جورج جورفتش

دراسات في الطبقات الاجتماعية

ترجمة أحمد رضا محمد رضا

مراجعة د. عز الدين فوده

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا

دراسات فى الطبقات الاجتماعية

تأليف : جورج جورفتش

ترجمة : أحمد رضا محمد رضا

مراجعة : د . عز الدين فوده



الهيئة المصرية العامة للكتاب

نبذة عن المؤلف

جورج جورفيتش ـ عالم اجتماع فرنسى ، من اصل روسى (١٨٩٤ ـ ١٩٦٦) . ولد فى ٢/١١/١٨٩٤ فى نوفوروسيسك (روسيا) حيث كان والده مديرا للبنك الروسى الأسيوى . أتم دراساته فى روستوف وريجا وباريس سنة ١٩٢٤ ـ وهاجر الى فرنسا عام ١٩٢٨ .

نشر فى تونجن (المانيا) كتابه الأول الذى خصصه لدراسة فلسفة « فخته » . وعندما استقر به المقام بفرنسا، حصل :لى دكتوراه فى الآداب عن رسالتين :

(١) الرســـالة الرئيسية فى فكرة القـــانون الاجتمـــاعى ،
(٢) الرسالة الاحتياطية او التكميلية عن « العصر الحاضر وفكرة القانون الاجتماعى » .

عمــل استاذا لعلم الاجتماع بجــامعة ستراسبورج من ١٩٣٥ الى ١٩٤٨ ، ثم انتقل الى كلية الآداب بجامعة باريس، وظل يدرس بها علم الاجتماع حتى توفى عام ١٩٦٦ .

اسس مركز الدراسات الاجتماعية ؛ وشغل منصب مدير الدراسات فى المدرسة العملية للدراسات العليا ، ومدير المجلة الدولية لعلم الاجتماع ، ومدير مكتبة علم الاجتماع المعاصر .

له عدة مؤلفات تبحث فى الاتجاهات الحديثة لعلم الاجتماع المعاصر ، منها : « دراســـــة فى علم الاجتماع » Traité de Sociologie ـ باريس .P.U.F ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠،

صدرت الطبعة الثالثة منه سنة ١٩٦٨ ، « الاتجاه الراهن لعلم الاجتماع La Vocation actuelle de la Sociologie. باريس .P.U.F سنة ١٩٥٠ ، وظهرت الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٨ ، « دراســـة فى الطبقـــات الاجتمـــاعية » Etude sur les Classes Sociales باريس ١٩٦٦ .

الدرس الأول

مقـــدمة

مضى مائة عام منذ أن طرح كارل ماركس مشكلة الطبقات الاجتماعية بصورة قوية ؛ وأصبحت هذه المسألة كما يقول مشكلة حقيقية بعد تصفية جميع بقايا « النظام القديم » وزوال آثار الامتيازات الشكلية السابقة على الثورة الفرنسية . كانت هذه الطبقات الاجتماعية على الأصح ، قبل حلول نظام الرأسمالية والتصنيع مراتب états ، ودرجات rangs وأنظمة ordres ، ونقابات حرفية corporations ، وكانت قبل ذلك طوائف castes وراثية . ونصادف في الكثير من المجتمعات « مجموعات مفروضة » groupements imposés بينها تدرج طبقي ؛ ولكنا قد نتساءل عما اذا كانت هذه المجموعات طبقات اجتماعية .

وحتى اذا ظهرت في غير هذا التدرج الطبقي الرسمي مجموعات متقاربة اقتصاديا groupements d'affinité économique (على أساس التماثل في الثروات ، ومصادر الدخول ، والمصالح) كالعبيد المحررين ، وجامعي الضرائب في عهد الأمبراطورية الرومانية ، والتجار ، وأصحاب المصارف في عصر النهضة ، والفقراء المعدمين prolétaires في روما ، فانه من المشكوك فيه أن نستطيع تسمية كل من هذه الحالات بحق طبقات اجتماعية . وكانت اللغة الفرنسية تتضمن تعبيرا يبدو أنه ينصرف بصفة

خاصة الى هذه المجموعات ، ذلك هو لفظ condition « ظرف أو حالة » يقول ديكارت : « لم أشعر بأنى فى ظرف أو حالة condition تضطرنى الى أن أزاول مهنة علمية » • ووجد « ليتريه » Littré فى بحثه عن المعانى المختلفة التى تتضمنها لفظة classe معنى خاصا عرفه بالعبارة التالية « درجة rang قائمة بين الناس تبعا لتنوع مراكزهم الاجتماعية وتفاوت هذه المراكز » • هذا التعريف اذا أضيفت اليه بعض التفصيلات يمكن أن ينطبق على المجموعات ذات الرابطة الاقتصادية التى نصادفها فى أنماط منوعة من المجتمع الشامل ، ولكنه لا ينطبق على الطبقات الاجتماعية بمعناها الحقيقى •

ومن الضرورى التحرز من خطأ ثالث قبل التصدى للمشكلة • فثمة من يتحدث أحيانا عن الطبقات السياسية ، والطبقات القانونية ، والطبقات الاقتصادية دون أن يدرى أنه يخرج على هذا النحو تماما من نطاق الموضوع ، اذ هو يهدم حينئذ وحدة الطبقة باعتبارها اطارا اجتماعيا؟ وقد يستثير بذلك ، أو لا يستثير تمييزات سياسية أو قانونية ، أو تغييرات فى الحالة الاقتصادية • ويكفى فى هذا الصدد اعتبار مثل واحد ، هو الكاتب الأمريكى الحديث « أوليفيه كروموىل كوكس Olivier Cromwe Cox الذى يؤكد فى كتابه Caste, Class, Race « الطائفة ، والطبقة والجنس » (١٩٤٨) أن كل طبقة هى طبقة سياسية • فاذا كان يقصد بذلك أن كل طبقة مبنية ومنظمة وواعية بنفسها تنزع الى الانتظام فى حزب سياسى، والكفاح من أجل الحصول على السلطة ، فانه يطرق بابا مفتوحا • أما اذا كان يريد القول بأن وجود الطبقة انما يقتصر على تصنيفها من الوجهة السياسية ، فانه مخطىء كل الخطأ • فالواقع أنه لا يمكن فى هذه الحالة التمييز بين الطبقات الاجتماعية والطبقات الخمس التى أنشأها « سرفيوس توليوس » Servius Tullius الذى قسم الرومان كلهم الى فئات حسب ثرواتهم حتى يمنحهم امتيازات تختلف من الوجهتين

العسكرية والانتخابية • واذا كان لا بد أيضا من تمييز طبقات قانونية ، كان لزاما وضع الرجال والنساء فى طبقتين مختلفتين حسب الفوارق التى رسمها التقنين المدنى ، وهكذا دواليك •

وانا لنجد مثلا عجيبا لهذا اللون من الخلط فى كتاب لآرثر بوير Arthur Bauer بعنوان « الطبقات الاجتماعية » « Les classes sociales » (١٩٠٢) ، وهو أول كتاب فرنسى يحمل هذا العنوان • فهو يؤكد من جهة أن موضوع علم الاجتماع كله ينحصر فى دراسة الطبقات الاجتماعية، ذلك لأنها هى التى تنتج الأحداث الاجتماعية ؛ ويجزىء الطبقات من جهة أخرى الى طبقات : عسكرية ، وسياسية ، وادارية ، ودينية ، وصناعية ، وطبقات خاصة بوسائل النقل ، وغير ذلك • وعلى الرغم من علمه بوجود ماركس ، فانه لم يهتم البتة بأعماله حتى يصوغ فكرة الطبقات التى يقدمها•

فى مقدورنا اذن أن نبدأ بالقول بأن الطبقات ليست مراتب états أو جماعات مفروضة ، أو طوائف ، أو مجموعات متقاربة اقتصاديا أو درجات بين الأشخاص الذين يزالون نشاطا ما ، وانما هى شىء أكثر من كل هذا •

وكان ابراز ماركس والماركسية لمشكلة الطبقات الاجتماعية قد مهد له سان سيمون وأتباعه ، وبرودون تمهيدا قويا • وهناك فى هذا الموضوع مؤلفات ضخمة ، ماركسية وغير ماركسية • واشتغل فى هذه المسألة الكثير من رجال الاجتماع والاقتصاد والتاريخ ذوى النزعات المختلفة • وقليل جدا من المؤلفين هم الذين أنكروا وجود الطبقات الاجتماعية فى المجتمع المعاصر أو وجود الصراع بين هذه الطبقات ؛ ثم ان مثل هذا الموقف من جهتهم يصعب جدا التمسك به فى الوقت الحاضر ، ما دامت الحقيقة ظاهرة للعيان • كيف اذن لم يتكشف مفهوم الطبقة بالوضوح الكافى رغم هذا العدد الكبير من المؤلفات المكرسة لهذه المشكلة ؟ فاذا أراد الانسان أن يجرى بحثا تجريبيا فى موضوع الطبقات الاجتماعية ــ ليعرف على سبيل المثال دور « الطبقات المتوسطة » ، أو ما اذا كان ثمة طبقة للفلاحين فى

فرنسا ، أو اذا كان يمكن ملاحظة وجود طبقة « تكنو بيروقراطية »[1] techno-bureaucratique يحتمل أن تستولى على السلطة — فانه يصادف اختلافا شديدا فى مفهوم الطبقة الاجتماعية .

ثم ان هذا الاختلاف الذى ظهر بجلاء بين غير الماركسيين ، وكذا بين الماركسيين أنفسهم ، قد اشتد بدرجة كبيرة على اثر تدخل بعض علماء الاجتماع الأمريكان منذ وقت قريب . ولم يهتم من هؤلاء العلماء بهذه المسألة حتى بضع عشرات السنين الأخيرة الا القليل . وثمة أحد علماء الاجتماع المبرزين مثل « كولى » Cooley قد اقتنع بتعريف مقتضب اذ يقول « نسمى طبقة كل جماعة لها كيان ثابت ، خلاف الأسرة ، تتوطد بذاتها فى المجتمع الذى يحيط بها » (Social Proecss, 1918) . والأمر اليوم على العكس من ذلك ، منذ ظهور مؤلفات لويد وارنر Lloyd Warner و « لنت » Lunt عن المدن الأمريكية (دراسات فى المدن الأمريكية) ؛ وبصفة خاصة كتاب « الحياة الاجتماعية فى مجتمع حديث » (١٩٤١) ، و « النظام القائم فى مجتمع حديث » (١٩٤١) وكذا المؤلف المنهاجى « الطبقة الاجتماعية فى أمريكا ، كتاب فى الاجراءات التى تتبع لقياس المكانة الاجتماعية » (١٩٤٩) ، اذ أصبحت العادة الشائعة فى هذا الصدد هى التأكيد على معالم الطبقات الاجتماعية . بل ان ج.ل مورينو J.L. Moreno قد انتهى الى الحديث عن « الطبقات الاجتماعية القياسية » classes sociométriques . ولكن هل لى أن أعترف بشىء ؟ ان الانسان ليعتريه بعض القلق حين يدرس الموضوع عن كثب . ويعتبر أغلبية علماء الاجتماع الأمريكان الطبقات الاجتماعية مجرد حشود من الأفراد ، أو فئات اجتماعية . من ذلك أن وارنر Warner صاغ التعريف الآتى : « نقصد بالطبقات فئات معينة من السكان الذين يعتبرهم الرأى العام فى مراكز عليا أو سفلى من حيث علاقاتهم بعضهم ببعض » .

---

(١) التكنوبيروقراطية : اسلوب فى ادارة الحكم القائم على سيطرة الهيئات والاشخاص الفنيين والاداريين الذين يتولون الوظيفة التنفيذية فى الدولة — المترجم .

وعلى هذا النحو يقسم وارنر ، و « لنت » سكان المدن الأمريكية الى ست طبقات : عليا حقيقية ، وعليا ـ سفلى ، وعليا متوسطة ، وسفلى متوسطة ، وسفلى ـ عليا ، وسفلى حقيقية • ويقرر الاثنان أن هذه الطبقات لا تقطن أحياء واحدة ، ولا تتكون فى جميع الأحوال من جماعات سلالية واحدة• ولم يتبع هذا التميز بين الطبقات الوضع الاقتصادى أو المهنة أو ايديولوجية هذه التجمعات ، انما اتبع رأى النـاس فى مكانة بعض الأفراد • والشىء الذى اهتم به وارنر ومعاونوه فى هذا الصدد هو سرعة الانتقال من فئة الى أخرى ، ووضع كل انسان فى مضمار التحرك الاجتماعى • ويميل وارنر بمشـاعره الى « الصـاعد فى المجتمع » social climber (وهو الوصولى الذى يرتفع فى سلم المجتمع) • هذا المفهوم ، وهو « اسمى » nominaliste [1] وفردى individualiste [2] فى جوهره ، يستبدل بالطبقات الاجتماعية فكرة التدرج الاجتمـاعى stratification socialc التى قد تجزىء فكرة الطبقة ، ولكنها تشير الى ظاهرة مختلفة كل الاختلاف •

ونصادف مثل هذه الكيفية فى عرض المشكلة فى نظريات « جيجر » Th. Geiger ، وهو من علماء الاجتماع الألمان ، هاجر الى الدانمرك وتوفى أخيرا ، وأدت آراؤه ، وهى أدق قليلا من آراء وارنر ، دورا لعله سيىء الأثر فى الجدل الذى يجرى حديثا فى موضوع بالطبقات الاجتماعية فقد أراد جيجر وهو الماركسى « التائب » أن ينحدر بالطبقات الاجتماعية الى مجرد تجمعات للأفراد حسب المعايير نفسها ، وعرض أن يستبدل بها التدرج الاجتمـاعى ، وكرس ثلاثة كتب متعاقبة لتحقيق هذا المشروع ، وهى : « التدرج الاجتماعى لدى الشعب الألمانى » (١٩٣٢)، و « المجتمع

---

(١) الاسمية nomanalisme : المذهب القـائل بأن الكليـات ليست الا أسماء أو ألفاظا ـ ويقابل الواقعية والتصورية •

(٢) الفردية individualisme : اتجـاه يرى فى الفرد أسـاس الواقـع والقيم ، ويذهب فى الفلسفة السياسية الى أن المثل الاعلى للحكومة الصالحة انما هو تنمية الحرية الشخصية والحد من سلطان الدولة على الافراد •

(مجمع اللغة العربية)

القائم على الطبقـات فى مراحل الامتزاج » (١٩٤٩) ، و « التعديلات فى التدرجات الاجتماعية » (١٩٥١)٠ وافتتن الأمريكان بهذه الفكرة الجديدة، ومن ثم كلف جيجر فى الولايات المتحدة بوضع خطة عامة لتحقيق واسع المدى فى مجال التدرج الاجتماعى • وقد يكون هذا العمل مفيدا اذا أجرى فى نطاق الطبقـات الاجتمـاعية ، ولكنه ينذر بنتائج عقيمـة اذا أجـرى فى خارج التقسيم الى طبقات اجتماعية أو مزاحما لهذه الطبقات •

ولنلخص آراء جيجر فى كلمات قليلة • فهو يسلم فى كتابه الأول بأن الطبقات تتميز عن الشرائح الطبقية strates ؛ ولكنه ينوه فقط بأن الطبقات الاجتماعية ليست قابلة للدراسـة الاحصـائية ، فى حين أن الشرائح الطبقية تقبل هذه الدراسـة ، وتؤدى الى فئـة المركز أو الوضع position, status ، والى « العقلية » mentalité وهى شىء أكثر ثباتا وتماسكا من « الايديولوجية » l'idéologie[1] • ثم انه لا يتضح من ذلك بدرجـة كافية كيف أن التدرجات التى يرى جيجر أنها ليست الا ثمرة تقديرات احصائية لا حقـائق اجتمـاعية ، يمكن أن تنعكس على العقليات • وفى كتابه الثانى ، يمضى جيجر الى أبعد من هذا الحد • فهو يرى أنه للوصول الى مفهوم موضوعى حقيقى للطبقة الاجتماعية لا يجوز اعتبار شىء خلاف السن والجنس والحـرفة والثروة والمسـكن والتربية ؛ وبهذه الكيفية تنتهى الى مفهوم اجتماعى احصائى للطبقة أكيد المفعول من حيث تحليل الأبنية الشـاملة ، بل وحتى الجزئيـة • ومع ذلك فانه لكى يتسنى تقريب هذه المجموعة من الأجزاء المنفصلة من الواقع الاجتماعى ، يمكن مقابلتها بالبنيان الاجتماعى الشامل للبيئة الاجتماعية ، وذلك لاقامة سلم التدرجات الطبقية ، أى مقابلة فئات اجتماعية بمراكز اجتماعية فعلية• ولعلنا نقتنع آنئذ بأن الطبقات المتوسطة أقرب شىء الى « الخلود » ، ذلك

---

(١) idéologie : دراسة الافكار والتصورات والمثل العليا ــ المترجم .

لأننا نجد فى كل أنماط المجتمع تدرجا فى الشرائح الطبقية • أما الوعى الطبقى ، فانما هو وعى كل انسان على حدة بوضعه الاجتماعى • وكتب جيجر : « نقصد بالطبقة فئة من أفراد المجتمع يمكن تحديد مركزها الاجتماعى ببعض المعايير الخارجية المشتركة • ويتفاعل الأشخاص الذين ينتمون الى مثل هذه الفئات بأحوالهم ومظهرهم وطرائق سلوكهم » • وهذا فى رأى المؤلف كل ما يمكن قوله فى شأن وعيهم الطبقى المزعوم ، أو عقليتهم ، أو ايديولوجيتهم • ويؤيد جيجر « اكتشافات » وارنر واليكم فضلا عن ذلك خلاصة ما انتهى اليه جيجر • فعنده أن نظرية الطبقات التى أقامها ماركس قد انقضى أوانها ، لأن جميع الطبقات أصبحت متقاربة بعضها من بعض ، ومتعاونة بعد أن تحولت الى فئات اجتماعية أو شرائح طبقية • ويصف المؤلف هذه الظاهرة فى كتابه الثالث الذى خصصه للتدرج الطبقى فى مدينة دانمركية • وبالاجمال فان جيجر يواجه المواقف السياسية والأحكام التقديرية التى يمكن الكشف عنها ونقدها فى مفهوم الطبقة لدى ماركس بأيديولوجية أخرى ونظام آخر للأحكام القيمية يمثلها التدرج الطبقى • تلك هى نظرية « باستيات » Bastiat المعروف مؤلف كتاب Harmonies économiques وقد بعثت الى الحياة ، وذلك هو « باستيات » الذى كان هدفا لماركس وبرودون Proudhon

ولعلنا نلاحظ أنه « اذا كان ماركس فى هذه الظروف قد عرض اكتشافا تناوله علماء الاجتماع الأحدث منه فأضعفوه ، أليس فى هذا دلالة على أنه لا يجوز المساس بمفهوم ماركس فى الطبقة الاجتماعية ؟ بل انه يكفى شرح هذا المفهوم واتخاذه أساسا للأبحاث التى تجرى فى شأن الموقف الحاضر » •

ولعل بعضهم يضيف الى ذلك قائلا : ان « كل ذلك يرجع الى أخطاء نظريات دوركيم Durkheim الاجتماعية ، لأن دوركيم قد غطى

من أجل علماء الاجتماع الفرنسيين حصيلة ماركس كلها ، واذ استلهم دوركيم ، أوجست كونت Auguste Comte ، وبونالد Bonald خلال كونت ، فانه لم يفعل شيئا أكثر من أن يفكر فى المهن المنظمة المنضمة الى الدولة ، أى فى طائفية تحجب عنه الطبقات الاجتماعية، ولم يؤد به تقسيم العمل الاجتماعى الا الى التضامن العضوى بين الحرف المتفرقة » . ولنبدأ بالمأخذ الثانى ، فهناك بالتأكيد شىء من الصحة فى ذلك الأسلوب الخاص بتقدير النتائج العملية التى استخلصها دوركيم بنفسه من نظرياته الاجتماعية . بيد أنه من الضرورى القول ــ احقاقا للحق ــ بأن مشكلة الطبقات الاجتماعية فى المدرسة الدوركيمية قد نوقشت بشدة وأثارت اهتماما كبيرا . وأسهم بقدر وفير فى هذا الشأن كل من «موس» Mauss » وبوجليه » Bouglé ، و « سيميان » Simiand (وهو أقرب أتباع دوركيم الى الماركسية) . وأخيرا موريس هالفاكس Maurice Halbwachs . ويهمنا عمل هذا الأخير بصفة خاصة لأنه عالج بصفة جوهرية مشكلة الطبقات الاجتماعية ؛ من ذلك أنه اتخذ موضوعا لرسالته « طبقة العمال ومستويات الحياة ، أبحاث فى نظرية الحاجات فى المجتمعات الصناعية المعاصرة » ، وناقش فى مقدمته مفهوم « الطبقة الاجتماعية » ؛ وعاد الى هذا الموضوع عام ۱۹۳۳ فى مؤلفه « تطور الحاجات فى طبقات العمال » ، ثم فى محاضراته فى السوربون عن « الطبقات الاجتماعية » ، وأخيرا فى دراسة له بعنوان « خصائص الطبقات المتوسطة » (۱۹۳۹) .

بماذا يا ترى أسهمت المدرسة الدوركيمية فى بناء مفهوم الطبقة الاجتماعية ؟ أولا : بالكيفية التى ينظر بها كل جماعة ــ بما فى ذلك تلك المجموعة النوعية للغاية ، وهى الطبقة الاجتماعية ــ على أنها مجموعة واحدة لا تقتصر على أعضائها ، و « ظاهرة اجتماعية كلية » رغم كونها جزئية ، وغنية بمحتوياتها المتنوعة ، وعلى الأخص بأنماطها التكنيكية

والثقافية ، ورموزها الخاصة ، وأعمالها الثقافية ، ومثلها العليا ؟ ويغدو وعى الطبقة محسوسا أكثر من ذى قبل اذا اعتبر « وعيا جماعيا » يقابل غيره من ضروب الوعى الجماعية . وأخيرا : فان وضع طبقة ما بين غيرها من الطبقات فى المجتمع الشامل يتضمن مشكلة العلاقة بين ادراك هذه الطبقة لنفسها وبين ادراك غيرها من الطبقات لوجودها . ومع ذلك فان كيفية عرض هذه المشكلة فى نطاق التقديرات الجماعية ، والرأى ، والحاجات ، والمثل العليا قد يتضمن خطر ربط مصير النظرية السوسيولوجية الخاصة بالطبقات الاجتماعية بمقدمات فلسفية ذاتية وروحية .

وتتجلى هذه الخطورة بصفة خاصة فى كتاب « الحد والمستوى » دراسة اجتماعية فى « البورجوازية الفرنسية الحديثة » (١٩٢٥) لادمون جوبلو Edmond Goblot ، وهو كتاب فيه شىء من التناقض ، الى جانب أنه لا يخضع خضوعا دقيقا لمذهب دوركيم . ومن رأى جوبلو أن الطبقات الاجتماعية لا وجود لها الا فى الرأى والعادات ، رأى هذه الطبقات فى نفسها ، ورأى سائر الطبقات باعتبارها المجتمع كله فيها . « قد تنجح طبقة ما فى اعتبار نفسها عالية القدر ، وحمل الغير على اعتبارها كذلك طالما لم يكن هناك من يتساءل عن مقومات هذا العلو » . فالواقع أنه « من المستحيل أن تكون طبقة ما صفوة الطبقات ، كما أنه من المستحيل أن تكون الصفوة فى أى شىء طبقة من الطبقات » . ولا وجود لطبقة (عليا) الا اذا أقنعت هذه الطبقة الغير بأنها صفوة الطبقات ، ولا يمكن أن تصبح صفوة الا اذا كفت عن أن تكون طبقة » . ومع ذلك فان جوبلو نفسه يقر بوجود عناصر موضوعية فى الطبقة البورجوازية وهى جماعة قائمة على الحفاظ على حد تقيمه وتمنع الغير من تخطيه ، وعلى مستوى معين تتطلبه من أعضائها ؛ وهذا المستوى يتضمن بالضرورة معايير اقتصادية ، الأمر الذى يؤدى بنا ، رغم ما يبذله جوبلو من جهد الى اعتبارات أشد واقعية .

واذا كان علم الاجتماع الفرنسى قد بالغ الى حد ما فى أهمية العنصر الشخصى فى تكوين الطبقة ، فقد يبدو لنا على العكس من ذلك ولأول وهلة ، أن هذه المعايير لا وجود لها فى كتابات ماركس • ومع ذلك فالأمر فى الحقيقة ليس كذلك • فالى جانب الدور الذى يؤدى فى الانتاج ، نجد الوعى الطبقى • والى جانب العنصر الاقتصادى نجد العنصر العقلى والايديولوجى • وهناك أخيرا الرأى الذى يعتبر الطبقة « موضوعا تاريخيا » خالقا لمستقبل المجتمع • والنظرية الماركسية فى شأن الطبقة الاجتماعية غنية بالاحتمالات ، وهى فى الوقت نفسه متناقضة فى بعض نواحيها ، وغير مستوفية التكوين ، ومن ثم فانها قد أتاحت المجال لتفسيرات عديدة متعارضة • ولا يسع علم الاجتماع الحديث أن يقنع ، بعد انقضاء مائة سنة ، بقبول وتطبيق نظرية ماركس فى الطبقات الاجتماعية ، لسبب واحد على الأقل : هو أن هذه النظرية ليست بالوضوح الكافى الذى يريد بعض أنصار الماركسية أن يحملوا الناس على الاعتقاد به • آية ذلك أن الجزء الثالث من كتاب « رأس المال » ينتهى تماما بالفصل الخاص بالطبقات الاجتماعية • وجدير بنا أن نبدأ بتحليل نصوص ماركس نفسه ودراسة مختلف الشروح الماركسية ، ثم ننتقل الى استعراض المفاهيم الرئيسية غير الماركسية ، وننتهى الى تحديد مفهومنا الخاص فى هذا الصدد •

الدرس الثانى

خاتمة المقدمة

نبهنا فى درسنا الأول ذلك البعض من قرائنا الذين قد يميلون الى المماثلة بين الطبقات الاجتماعية وبين (ا) الطوائف ، والجماعات المفروضة ، والمراتب ، و (ب) الجماعات المتقاربة اقتصاديا و (ج) مظاهر من أنشطة متباينة تمارسها بعض الجماعات السياسية والاقتصادية وغيرها ، و (د) فئات اجتماعية أو تجمعات من الأشخاص تتفق مع بعض المعايير ، وتنتظم فى ترتيب تدرجى ، ويشار اليها أحيانا على أنها تدرجات أو شرائح طبقية ، كما يتبين لدى وارنر وجيجر على سبيل المثال •

وأشرنا أخيرا الى القوة والضعف فى التحليل الذى أجراه أنصار دوركيم • وقلنا آنفا : انه اذا كان علم الاجتماع الفرنسى قد بالغ بعض الشىء فى تقدير العنصر الشخصى فى تكوين الطبقة الاجتماعية ، فانه قد يتبادر الى الذهن ــ لأول وهلة ــ من مطالعة كتابات ماركس أنه قد جهل هذا العنصر ، واعتمد كلية على معايير تستبدل بالفكر والوعى والشخصية والتقدير أوضاعا يقال انها موضوعية فى جوهرها ، ومستقلة تماما عن الارادة الجماعية أو الفردية • فالواقع أن الصيغة الشائعة لدى ماركس والماركسيين هى بالاجمال أن أساس الطبقات الاجتماعية ، باعتبارها وحدات جماعية فعلية ، هو الدور الذى تؤديه الطبقات فى الانتاج ، وتداول

الأموال الاقتصادية وتوزيعها ؟ ويحدد هذا الدور مستوى المعيشة، والوعى الطبقى ، والايديولوجية والثقافة والنزعة السياسية الخ ، عند هذه الطبقات التى يثبت وجودها بالصراع المضطرم فيما بينها ، والذى تمارسه من أجل الحصول على السلطة .

والحقيقة مع ذلك أننا اذا صرفنا النظر عن الافتراضات المبدئية القابلة للجدل ، فان هذا النحو فى اتخاذ موقف عام للمسألة يفتح المجال لمجموعة من الأسئلة الهامة :

١ ـ ما هو المقصود بالضبط « بالانتاج » و « القوة المنتجة » ؟ (ألم يسلم ماركس فى نص معروف بأن « العمل المشترك هو فى ذاته قوة منتجة ؟ ») ، وصرح فى كتاب آخر بأن « أعظم قوة منتجة بين أجهزة الانتاج ، هى الطبقة الثورية نفسها ؟ » (كتاب « فقر الفلسفة » (Misère de la Philosophie

٢ ـ ما هو بالضبط الدور الذى يؤديه الوعى الطبقى فى تكوين الطبقات الاجتماعية ؟ وبتعبير آخر ، هل يمكن أن يكون هناك وجود لطبقة لا وعى لها ؟

٣ ـ ما هو دور الايديولوجية ؟ وما المعنى الحقيقى لهذا المصطلح ؟ وما هى العلاقات التى تربط بين الايديولوجية وبين الوعى الطبقى والقوى الانتاجية ؟

٤ ـ ما معنى « الرسالة التاريخية » للطبقة ؟ وعلى نطاق أوسع ، ما هو مفهوم الطبقة باعتبارها من الموضوعات التاريخية ، وعلى الأخص مفهوم طبقة « البروليتاريا » Prolitariat باعتبارها المسئولة عن مستقبل المجتمع الانسانى ؟

٥ ـ كم عدد الطبقات الاجتماعية ؟ وما هى العلاقات بينها وبين غيرها من المجموعات ؟

٦ ـ ما الذى تتميز به الطبقات باعتبارها وحدات جماعية عن الجماعات الاجتماعية الأخرى ؟

٧ ـ هل كانت الطبقات الاجتماعية موجودة فى كل أوان ـ فيما عدا المجتمعات الموغلة فى القدم ـ أم أنها تنتمى فقط الى بعض أنماط المجتمعات؟

كان رأى ماركس متغايرا فى صدد هذه الأسئلة كلها ؛ أما الشيء الثابت فهو الغرض الرئيسى عنده ، وفحواه أن روابط الانتاج تشكل فى كل أنماط المجتمع الأساس الذى يحدد بناء المجتمع ، وتقسيمه الى طبقات، والوعى الطبقى ، والايديولوجية ، والثقافة • غير أن هذا الغرض قد يكون موضع شك ، اذ قد يقوم على أساس صحيح بالنسبة لنمط معين من بناء اجتماعى شامل ، كالرأسمالية مثلا ، ولكنه لا يصح بالنسبة لنمط آخر من المجتمع ، كالمجتمع الاقطاعى أو المجتمع الأبوى القديم •
la société patriarcale

ومن ثم يستبين لنا أنه لا بد من تناول المسألة برمتها من جديد • ولا تتغيا هذه الدراسة الكاملة الانتقاص من أفضال ماركس الذى اتخذ من فكرة الطبقات ، على خلاف الجيل الذى جاء فى أعقابه ، نقطة بداية لتحليلات مادية واقعية بنائية ، لا أداة لفتح جميع الأبواب • بيد أننا نستهدف الوصول الى تفهم معنوى لمشكلة الطبقات ، أكثر وضوحا ومرونة ، بل وأكثر نسبية •

وانى اذ أنهض بهذه المهمة الشاقة التى تنتظرنا ، لأود أن أعترف بشيء ؛ ذلك أنى حين أطرق هذه المسألة ، لا أخلو من بعض الدواعى الشخصية • والواقع أنى قد ألمحت الى ذلك فى بضع صفحات من كتاب « الاتجاه الحاضر لعلم الاجتماع » (١٩٥٠) ، وفى بعض الملاحظات التى وردت فى العددين الأولين من صحيفة Semaines sociologiques وقد اختص أحدهما بموضوع التصنيع ، وحكم الخبراء الفنيين technoratie (١٩٤٩) ، واتخذ الثانى عنوان « المدن والأرياف » (١٩٥٢) • وقد أثار

الموقف الذى اتخذته ـ فى صورة ايعاز أو تمثيل بنظريتى فى « المجموعات groupements » ـ شيئا من سوء الفهم أريد أن أبدده فى هذا العرض الأوفى فى تفاصيله ؟ وذلك بأن أتعمق المسألة كثيرا ، وأحاول أن أوضح الحل المقترح .

وعلى ذلك تنقسم دروسى الى أجزاء ثلاثة .

أولا : فى الجزء الأول سأحاول أن أحلل بأسلوب نقدى التعريفات والتفسيرات الرئيسية للطبقات الاجتماعية كما قدمها ماركس والماركسيون من مختلف الشعب ، ومنهم كاوتسكى Kautsky ، ولينين ، ولوكاش Lukacs

ثانيا : وسوف أدرس فى الجزء الثانى المفاهيم غير الماركسية التى شكلها حتى وقتنا الحاضر الاقتصاديون المهتمون الى درجة ما بعلم الاجتماع (شمولر ، باريتو ، فيبر ، شومبيتر) ، وعلماء الاجتماع المتخصصون (موريس هالفاكس و ب . سوروكن) .

ثالثا : وساجتهد فى جزء ثالث أن أشرح مفهومى الخاص للطبقات الاجتماعية فى بنائها وتهدمها الدائمين ؟ وأدرس وضعها بالنسبة الى غيرها من المجموعات الاجتماعية والشرائح الطبقية والأشكال المختلفة للتآلف الاجتماعى .

وسوف أعرض أيضا مشكلة « الحتمية النوعية » [1] déterminisme spécifique للطبقات الاجتماعية باعتبارها « ظواهر اجتماعية كلية » ، وأدرس موضوع عدد الطبقات ، وبقائها أو اختفائها . ولا بد من عرض مشاكل أخرى كثيرة تتصل بالطبقات الاجتماعية ، منها مشاكل « الرمزية النوعية » symbolisme spécifique لهذه الطبقات وأعمالها الثقافية ، وأنواع المعرفة وأشكالها ، والفن والأخلاق المتعلقة بها .

---

(1) الحتمية déterminisme : مذهب يرى أن بين الظواهر الطبيعية صلات ضرورية أو قوانين . (مجمع اللغة العربية)

غير أننا خليقــون بأن نصرف عن هذه المشــاكل ، ونكرس لها دروســاً أخرى ، فالوقت الحاضر لا يتسع لها •

سأبذل الجهد المستطاع فى دراسة جميع هذه المسائل « دون ضحك ولا بكاء » على حــد تعبير ســـبينوزا ؛ وأحاول أن أسـتبعد كل الأحكام التقديرية المستترة ، طالما كان فى الامكان ادراكها ، وأتجنب كل ألوان الغموض التى كثيرا ما تحيط بمناقشة مشكلة الطبقات الاجتمــاعية ، والتى نصادفها لدى أنصار الماركسية وخصــومها • ولا ريب أن كل هذه أمور يصعب تحقيقها ؛ وتجلى ذلك أخيرا فى الجدل الذى جرى بين أحد علماء الاجتماع الشــبان ، وهو « جان ليفور » Jean Lefort (الماركســية وسارتر) ، وبين الفيلسوف جان بول سارتر (الرد على ليفور) فى صحيفة « العصر الحديث Les Temps Modernes (العدد ٨٩ فى أبريل ١٩٥٣)• فعندما ناقش ليفور مشكلة العــلاقات بين الطبقة الاجتمــاعية وبين الحزب السياسى ، حاول أن يثبت أن الحزب السياسى الذى يزعم أنه يمثل الطبقة البروليتارية يمكنه بالمثل أن يضطهد هذه الطبقة • ويرد سارتر على ناقده، فينعى عليه أنه يخون قضية الطبقة التى يريد الدفاع عنها ؛ ذلك لأن من شأن نظرية ليفــور الحكم على هذه الطبقــة بالعجز • وعلى الرغم من أن المؤلفين يبديان أحيــانا بعض الملاحظات المتصــلة اتصــالا وثيقــا بالواقع الاجتماعى للطبقات ، فان المناقشة بينهما تجرى على مستوى لا بد عنده من اتخاذ موقف سياسى أو اعتناق مذهب عقيدى ، هذا فضلا على أن كلا منهما يستند الى فرضية postulat واحدة يشتد حولها الخلاف موروثة من الصوفية الألمانية la mystique allemande، تلك هى « المصير التاريخى » للطبقة ، ورسالة الطبقة باعتبارها «موضوعا تاريخيا» • ويأتى هذا الموقف مباشرة من هيجل Hegel ؛ الذى يعزو الى « الأمم » وتجســداتها الحية فى « دول » مصائر ورسالات وأدوار الموضوعات التاريخية •

ومن ثم فان ما نبذله من جهد فى مراعاة الانصــاف ، وهو انصــاف

نسبى بالتأكيد ، سوف يتأيد بمعارضـة كل صلة بين الطبقـة الاجتماعية وفلسفة التاريخ • ولا ريب فى أنى أسلم بتاريخية الطبقات الاجتماعية ، أى بدور هذه الطبقات الرئيسى فى تحويل المجتمعات الحاضرة • غير أنى أنكر امكان وجود فلسفة للتاريخ ، وأرى أن مثل هذه الفلسفة تتناقض فى عباراتها • وانا لو علمنا معنى التاريخ واتجاهه ، لانتهى بذلك التاريخ•

ان وظيفة الطبقات الاجتماعية باعتبـارها قوى منتجة ، وموضـوعات تاريخية ، ودورها فى الانتاج وفى تداول الأموال الاقتصادية وتوزيعها ، وعلاقاتهـا مع تنظيماتها الخاصـة بها ، ومع بنيانها وبنيـان المجتمع كله ، وامكانياتها فى الامتداد الى ما وراء حـدود الأمم المختلفـة ، كل أولئك ظواهر مفعمة بالحركات الجدلية (الديالكتية) تتسم بقابليتهـا اللانهـائية للتنوع التجـريبى • وانا لنخشى كثيرا تحـول هذه العـلاقات والوظائف والأدوار والضغوط والخلافات والحركات غير المتوقعة الى عقـائد ، وذلك باقرارها واعلائها وتحويلها الى فلسفات الهية وأدواء لكل العلل •

ولا بد ، لمقاومة كل نزعة من هذا القبيل ، من بذل مجهود تجريبى جدلى كبير • وسوف أحاول بذل هذا الجهد فى دروسى هذه ، وذلك بأن أبرهن على أن الأهمية الرئيسـية للطبقـات الاجتمـاعية ــ التى لا يمكن التكهن بعـددها أو صفاتها أو العـلاقات التى تربطها أو دورها التاريخى الفعلى ، كما لا يمكن تحديد هذه الأمور مقدما ــ انما ترتبط ببعض أنماط خاصة من الأبنية الاجتماعية الكلية ، بل وأحيانا ببعض الظروف النوعية•

الجزء الأول

فكرة الطبقات الاجتماعية لدى ماركس وبعض الماركسيين

ماركس Marx

أبدأ بتحليل نصوص ماركس [1] • ومن أشهر هذه النصوص (ولو أنه ليس أدقها ولا أقدمها ولا أثمنها من ناحية المضمون) ما نجده في « البيان الشيوعي Le Manifeste Communiste الذي صدر في يناير عام ١٨٤٨ قبل انفجار الثورة بباريس ببضعة أيام • وسوف استهل بسرد هذا النص حتى أحلل مضمونه :

« ان تاريخ المجتمع ككل حتى يومنا هذا هو تاريخ صراع الطبقات• فالانسان الحر والعبد ، والشريف والوضيع ، والبارون ورقيق الأرض ، ورئيس العمل والصانع ، وبالاجمال الطغاة والمقهورون الذين يواجه بعضهم بعضا في خلاف مستمر ، كل أولئك قد شنوا فيما بينهم صراعا متصلا لا ينقطع ، تارة في خفاء ، وتارة علانية ، صراعا كان ينتهي في كل مرة بانقلاب ثوري يحيق بالمجتمع كله ، أو بدمار الطبقات المتصارعة كلها • وانا لنجد في عصور التاريخ السابقة ، في كل مكان تقريبا ، تنظيما معقدا للمجتمع في مراتب états مختلفة ، وتدرجا متعددا للأوضاع الاجتماعية • نجد في روما القديمة الأشراف والفرسان والدهماء

---

(١) أوردت أعمال ماركس وفق ترجمة "ج. موليتور" للاعمال الكاملة له (الناشر ألفريد كوست) فيما عدا الكتابات التاريخية الثلاث ، وكتاب «فقر الفلسفة» ، التي اوردتها وفقا لما ظهر بسلسلة Editions sociales ، باريس ١٩٤٦ .

والعبيد ؛ وفى العصر الوسيط السادة الاقطاعيين والأتباع ، ورؤساء الحرف والصناع ، ورقيق الأرض ؛ ونجد فى كل من هذه الطبقات تقريبا تدرجا خاصا • أما المجتمع البورجوازى الحديث الذى انبثق فى عقب انهيار المجتمع الاقطاعى ، فانه لم يمح صراع الطبقات ، وانما استحدث طبقات جديدة ، وصورا من القهر جديدة ، وأشكالا جديدة للصراع بدلا من السابقة » (البيان الشيوعى) •

ولما كان هذا النص يستهدف الدعاية ، فانه تجاهل كل تمييز بين الأوضاع الاجتماعية conditions ، والمراتب états ، والطوائف castes والمجموعات المتقاربة اقتصاديا groupements d'affinité économique والنقابات الحرفية corporations والأقسام الاجتماعية catégories sociales بل انه لم يذكر المجتمعات التى لم يكن بها طبقات ولا مراتب والتى تتميز بالتالى فى الكتب الماركسية بأنها مجتمعات متخلفة (١) • ولا يعرض نص « البيان الشيوعى » الذى ذكرناه آنفا ، من باب أولى ، مشكلة العلاقة بين نمط المجتمع الصناعى ، وبين تقسيم المجتمع الى طبقات حسب المدلول الحاضر لهذا المصطلح •

وأشار « شارل آندلر » Charles Andler فى شرحه للبيان الشيوعى (١٩٠٢) الى صعوبة أخرى تثيرها التعريفات المتميزة التى يتضمنها هذا العمل ، فمن ناحية توجد الطبقة البروليتارية (٢) منذ زمن طويل ، كما يتطلب الحال من ناحية أخرى تحديد شكل لها • على أنه

(١) انظر على سبيل المثال « أصل الاسرة ' والملكية الفردية ' والدولة » لانجلز (١٨٨٤) ؛ ترجمة الى الفرنسية «بريك» (١٩٣٦) صفحة ٢٢٩ •

(٢) البروليتاريا Prolétariat كلمة أغريقية قديمة شاع استخدامها كاصطلاح يعبر عن الطبقة الغزيرة النسل ، تلك التى أصبحت فى المفهوم الاشتراكى الحديث ـ ولاسيما عند الماركسيين ـ تعنى الطبقة العاملة فى الصناعة ، التى تتمتع بعنصر الثبات والوحدة الطبقية فى تكوينها والقوة الثورية فى نضالها ، وفهم رسالتها التاريخية فى الصراع ضد مستغليها ، نتيجة استشراء النفوذ الرأسمالى الاحتكارى وقسوته عليها فى الصناعة الكبيرة (المراجع) •

يمكن تبديد هذه الصعوبة بفضل التميز بين البروليتاريا وبين سائر «الطبقات المقهورة » ، وبفضل مفهـوم « الوعى الطبقى » الذى يجعل من الطبقـات الموجودة من قبل وجودا تقديريا جماعة فعلية ، هى بمثابة مجموعة كلية ديناميكيـة • وهكذا يرى ماركس فى « البيـان الشـيوعى » أن الطبقـة الاجتماعية لا تتشكل بصورة نهائية الا بظهور التضامن الطبقى ، بالاضافة الى وحدة الدور فى الانتاج ، والمصالح الاقتصادية المشتركة ؛ ويفترض هذا التضامن الطبقى وجود الوعى الطبقى الذى لا يمكن بالتالى ايجاده الا عن طريق الايديولوجية الطبقية • فالبورجوازية التى لعبت فى التـاريخ دورا ثوريا فى جوهره ، أدى تفوقها فى مجـال الايديولوجية الى ايقاظ وعيها الطبقى قبل الأوان • أما طبقة البروليتاريا ـ التى تضم جماهير هائلة العدد تعيش وضع المقهورين ، حتى من الوجهة النفسانية ـ فلا تعى نفسها الا تدريجيا وعلى مراحل ؛ والايديولوجيـة الشـيوعية ، وبصفة خاصة « البيان الشيوعى » هو الخليق بمساعدتها على أن تشكل نفسها نهائيا فى صورة طبقة • وتتمثل المرحلة النهائية لهذه العملية فى تنظيم حزب سياسى يتغيا الاستيلاء على السلطة • ويقول لنا البيـان الشـيوعى : « ان السلطة السياسية هى السلطة التى تنظمها طبقة اجتمـاعية من أجـل قهر طبقـة أخـــرى » و « الدولـة البورجـوازية هى الهيئـة التى تحمى المجتمع الرأسمالى » •

ويؤكد مصير البورجوازية هذا النظر ؛ ذلك أن كل مرحلة اجتازتها البورجوازية فى تطورها صحبها تقدم سياسى مقابل : (أول ذلك) المرتبة الثالثة Tiers Etat (الشعب) التى ضمت دافعى الضرائب فى عهد الملكية ؛ ثم كانت فى عصر المصانع القوة الموازنة لطبقة الاشراف فى عهود الملكية المحـدودة أو المطلقة • واذ كانت البورجوازية هى حجر الزاوية للملكيات الكبيرة ، فانها منذ قيام الصناعات الضخمـة والسـوق العالمية قد استولت وحدها دون غيرها من الطبقات على السلطة السـياسية فى الدولة

النيابية الحديثة • وليست الحكومة الحديثة الا بمثابة لجنة ادارية تضطلع بشئون الطبقة البورجوازية •

ويعتقد ماركس أنه يستطيع أن يخلص من هذا الماضى بأن هذه المراحل هى نفسها المراحل التى سوف تمر بها طبقة البروليتاريا فى طريقها الصاعد فى الحقل السياسى • ذلك أنه لما كانت هذه الطبقة ، قبل كل شىء ، ألعوبة فى أيدى البورجوازية وتابعة لهـا ، ليس من الوجهة الاقتصادية فحسب ، وانما أيضا على المستوى الايديولوجى ، فانها سوف تنزع عن نفسها نير العبودية بالتدريج • وهى اذ تستغل المنازعات بين البورجوازية وملاك العقارات ، وتتدعم بانضمام أقسام كبيرة من البورجوازية الصغيرة الكادحة الى صفوفها ، فانها تنتزع من السلطة السياسية بعض المكاسب الجزئية التى سوف تتيح لها امكانية القيام بالثورة ؛ وهى ثورة تتميز عن الثورة البورجوازية من حيث انها سوف تقضى على الطبقات ، ومن ثم على الدولة نفسها •

ويقدم لنا ماركس فى حماسه لهذا الصراع النهائى الذى يبدو له وشيك الحدوث ملحوظة قد تثير الدهشة حيث يقول : « وكما انضم فيما مضى قسم من النبلاء الى صفوف البورجوازية ، فان قسما من البورجوازية يشكل فى وقتنا الحاضر مصالح مشتركة مع البروليتاريا ، وعلى الأخص ذلك القسم من أرباب الفكر البورجوازيين الذين ألموا بالمعارف النظرية للحركة التاريخية فى مجموعها » • مثل هذا الرأى يتضمن العديد من الأمور المتناقضة منها :

(ا) انه يشير الى ماركس نفسه •

(ب) انضمام الجماعات والأفراد الى بعض الطبقات بارادتهم واختيارهم •

(جـ) سؤال يثور فى صدد رجال الفكر : هل يشكل هؤلاء جماعة

خاصة خارج نطاق الصراع الطبقى ؟ ويبقى بعد كل هذا ما يثير الغموض ، من فروض أولية تعسفية ، وفلسفة للتاريخ شديدة التركيز ، دون أن يؤدى ذلك بحال الى حسم المسائل التى تثور حول مضمون الطبقة الاجتماعية •

وسندرس ابتداء من الدرس القادم مؤلفات ماركس التى تقل عن غيرها ارتباطا بأهداف عملية ، وذلك حتى نعرف ما اذا لم تكن تزودنا بالكثير من الوضوح فى المسائل التى تهمنا ، مبتدئين « بأعمال الشباب » Ouvrages de Jeunesse التى لم يصدر بعضها حتى عام ۱۸۳۲ •

أما اليوم ، فانا نختم درسنا بالتوقف لحظات عند كتاب الماركسى البلجيكى أوفربرج Overbergh « الطبقات الاجتماعية » (۱۹۰٥) ، لأن تعريفه للطبقات الاجتماعية يقوم مباشرة على نص البيان الشيوعى • وهو مع ذلك يجتهد فى ايضاحه حيث يقول : « الطبقات الاجتماعية تدرجات اجتماعية متراكبة مبنية على ملكية وسائل الانتاج » • وبعد أن بين أوفربرج أنه لا يمكن أن تثور قضية الطبقات الاجتماعية الا فى المجتمعات التى توجد فيها ملكية فردية لوسائل الانتاج، وتوجد دولة ــ أى أداة السيطرة التى تمارسها طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات ــ أبان أنه يرى أن ماركس قد ميز أربع طبقات اجتماعية :

(أ) البورجوازية الرأسمالية التى يزداد تألقها باطراد •

(ب) البروليتاريا التى تندلع الثورة بسبب ما تلاقيه من اضطهاد •

(جـ) الملاك العقاريون الذين ينحدرون من طبقة النبلاء الاقطاعيين ، ويشكلون طبقة لم يعد فى طوقها الا الدفاع عن كيانها •

(د) البورجوازية الصغيرة ، ويندرج فيها الصناع والفلاحون • غير أن الطبقتين الأخيرتين من الطبقات الأربع تدوران حول الأولين اللتين يسيطر الصراع بينهما على الموقف فى النمط الحاضر من مجتمعنا •

ومع ذلك لا يلحظ أوفربرج الأمور الآتيـة ، رغم تميز عبـــاراته بالوضوح ، ومعلوماته بالاتساع :

١ ـ ان تعريفـه الطبقـات بأنها شرائح (أو قطاعات) strates قد يؤدى الى انحلالها ، لأن فى المستطاع أن نجـد داخل كل طبقة عددا من الشرائح (أو القطاعات) couches

٢ ـ ان ملكية وسائل الانتاج قد تكون من الآثار المترتبة على تقسيم المجتمع الى طبقات بدلا من أن تكون أساسا للطبقات .

٣ ـ ان الطبقات الأربع التى يتحدث عنهـا ليست متميزة السـمات الا بالنسبة الى حقبة معينة من الرأسمالية التنافسية .

٤ ـ ان مسألة وجود طبقات فى أنماط المجتمع الاجمالى فيما عـدا نمط المجتمع الصناعى ، لم تزل مفتوحة على مصراعيها [١] .

٥ ـ ان مشكلة الوعى الطبقى والايديولوجية الطبقية تتطلب تحليلا عميقا ، مثلما تتطلب مشكلة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، وسواها من أنماط المجموعات الخاصة .

---

(١) بمعنى أن أوفربرج لم يقم بمناقشتها .

ماركس (تابع ما قبله)

أريد اليوم أن أبحث معكم ما اذا كانت فكرة « الطبقة » قد وضحت بدرجة أكبر فى أعمال ماركس التى سجلها قبل البيان الشيوعى ، ابتداء من « أعمال الشباب » حتى « فقر الفلسفة » . وسوف أدرس بعد ذلك النصوص ذات الصفة التاريخية ، فأحلل بعض الظروف ، كما فى « الثورة والثورة المضادة فى ألمانيا » (كتبه بالاشتراك مع انجلز عام ١٨٤٩) و « صراع الطبقات فى فرنسا (١٨٤٨ - ١٨٥٠) » (١٨٥٠) ، و « يوم ١٨ بروميير من عهد لوى بونابرت » (١٨٥٢) و « الحرب الأهلية فى فرنسا سنة ١٨٧١ » (١٨٧١) . ثم أتابع أخيرا دراسة المشكلة من خلال الأجزاء الثلاثة لكتاب « رأس المال » (لأن كتاب « مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى » ١٨٥٩ لا يتصل مباشرة بالمسألة التى تهمنا) . ولا يبدو ثمة شك فى أن ما تنوع خلال هذه المجموعات الثلاث من الأعمال انما هو فى الأغلب أسلوب التعبير وعدد الطبقات . ومع ذلك فانا لا ننكر أن مفهوم الطبقات قد عولج فى كل من الأعمال الثلاثة بأساليب مختلفة وأهمية متفاوتة .

ففى المجموعة الأولى من الأعمال ، درست المشكلة من ناحية فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، مع ما بينهما من تزاحم . وعولجت المسألة فى

المجموعة الثانية من الزاوية التاريخيــة الواقعيــة البحتة . (التقسيم الى طبقــات ، والتوافق بين هذه الطبقات تبعا للأحداث) وتحت أضــواء علم الاجتماع أحيانا ، والفلسفة أحيانا أخــرى . وفى المجموعة الثالثة يتابع ماركس حركة الطبقات فى اطار نشاط الاقتصاد الرأسمالى ومتناقضاته التى سوف تؤدى سريعا الى انفجاره . ولسوف نلحظ أن الشىء الذى يستديم خلال هذه الأنواع الثلاثة من التحاليل انما هو الصراع بين علم الاجتماع وفلسفة التاريخ فى تفكير ماركس العميق فيما يتصل بالطبقات الاجتماعية.

يظهر مصطلح « الطبقة » لأول مرة لدى ماركس ، ان لم يجانبنى الصواب (فربما استخدمه فى مقالاته فى صحيفة **Rheinische Zeitung** حيث ذكر برودون باعجاب) فى « مساهمة فى نقد فلسفة القانون لهيجل » الذى كتبه عام **١٨٤٣** ونشر فى « الحوليات الفرنسية الألمانية ». وينبغى ألا نخلط بين هذا العمل وبين « نقد فلسفة الدولة » لهيجل (**١٨٤١ ــ ١٨٤٢**) الذى لا يرد فيــه مصطلح الطبقــة رغم الفرص العــديدة المتاحة لتحليل « المجتمع المدنى » و « النقابات الحرفية » .

كتب ماركس بنوع خاص فى « مســاهمة فى نقد فلســفة القانون لهيجل » (**١٨٤٣**) يقــول : « ينتقل دور التحــرر على التوالى فى حركة دراماتيكية الى مختلف طبقات الشعب الفرنسى حتى يصل أخيرا الى الطبقة التى تحقق الحرية الاجتماعية » .

« أين هى اذن امكانيــة التحــرر الألمانى ؟ اليكم اجابتنا : يجب أن تشكل هذه الحركة طبقة ذات أصول وروابط جذرية ، طبقة من المجتمع البورجوازى لا تكون لها خصــائص الطبقــة البورجوازية » . « وحينما تعلن طبقة الكادحين حل النظام الاجتمــاعى الحــاضر ، فانها انما تكشف بذلك عن سر وجودها ، لأنها تشكل بنفسها الانحلال الفعلى لهذا النظام الاجتماعى » .

ويناقش ماركس فى « العائلة المقدسة » La Sainte-Famille المشكلة المتعلقة بآراء برودون ويدافع عن نظرياته ضد ناقديه الألمان • ونطالع على الأخص فى هذا الصدد ما يأتى : « لا يكتب برودون فحسب فى صالح الكادحين ، بل هو نفسه عامل كادح ؟ وكتابه منهاج علمى للبروليتاريا الفرنسية » • ولكتاب برودون « ما هى الملكية ؟ » من الأهمية بالنسبة للاقتصاد القومى الحديث ما لكتاب سييس Sieyès « ما هى المرتبة الثالثة ؟ » بالنسبة الى السياسة المعاصرة •

واليكم الصيغ المشتركة بين برودون وماركس : « البروليتاريا مجبرة بصفتها تلك أن تعمل على محو ذاتها ، وبالتالى على محو الملكية الخاصة • وبعبارة أخرى محو الوضع الذى يجعل منها بروليتاريا » • « تطرح الطبقة المالكة والطبقة الكادحة نفس الموقف فى صدد الغاء الملكية • غير أن الأولى هانئة بمركزها ، تشعر أنها مستقرة فيه استقرارا وطيدا (•••) ؟ أما الثانية فانها على العكس من ذلك تحس بأنها قد امحت بتنازلها عن جوهر كيانها ، وترى فى هذا التنازل عجزها وواقع وجودها التعيس • وعلى ذلك ففى مجال التناقض ، يشكل أصحاب الملكية الخاصة الحزب المحافظ ، والكادحون الحزب الهادم • فالأولون يعملون على الابقاء على التناقض ، فى حين يعمل الآخرون على ازالة التناقض » • ففى الظروف التى تعيش فيها البروليتاريا ، نجد جميع الأحوال المعيشية للمجتمع الحالى متبلورة فى أتعس صورها •

« ولا يهم فى هذا الصدد أن نعرف الهدف الوقتى الذى يتغياه عامل أو آخر من الكادحين أو طبقة البروليتاريا ككل ، وانما المهم أن نعرف ما هى البروليتاريا ، وما يجب من الوجهة التاريخية أن تفعله وفقا لكيانها• لقد رسم هدفها وعملها التاريخى وحددا بكيفية محسوسة وقطعية لا رجعة فيها ، فى وضعها المعيشى ، وكذا فى تنظيم المجتمع البورجوازى الحاضر كله • ويبدو لنا أنه لا حاجة بنا فى هذا الشأن أن نثبت أن قسما كبيرا من

البروليتاريا الانجليزية والفرنسية قد وعى رسالته التاريخية ، ولا يدخر وسعا فى سبيل جلاء هذا الوعى كما ينبغى » . « ان صيحة الحرب لديهم ليست : الملكية أو الجمهورية ، وانما هى : دكتاتورية طبقة العمال أو دكتاتورية الطبقة البورجوازية » .

ولا يقوم تقسيم المجتمع الى طبقات على حجم الثروة أو مقدار الدخل : « المنطق الساذج البسيط يجعل التميز بين الطبقات مسألة (سعة كيس النقود !) (...) . ان معيار كيس النقود هو فارق فى الكم البحت، يمكن بوساطته المقابلة بين فردين ينتميان الى طبقة واحدة . ومن المعلوم لدى الجميع أن الطوائف الحرفية فى العصر الوسيط كانت تتعارض مع بعضها باعتبار الحرفة . ونعلم بالمثل أن التفرقة الحديثة بين الطبقات لا تعتمد البتة على الحرفة . ولكن تقسيم العمل فى داخل الطبقة الواحدة ينتج على العكس من ذلك أساليب للعمل جد مختلفة » . « ومن المحتمل كثيرا ألا يعين مركز الأفراد دائما عن طريق الطبقة التى ينتمون اليها ؟ بيد أن هذا الأمر قليل الأهمية بالنسبة الى صراع الطبقات بقدر ما كان انتقال بعض النبلاء الى صفوف عامة الشعب قليل الأهمية بالنسبة الى الثورة الفرنسية » . « (والطبقات فى اجمالها) تقوم على ظروف اقتصادية مستقلة عن ارادتها وتتخذ تبعا لهذه الظروف أوضاعا متعارضة وعدائية للغاية (...) » .

ونطالع فى « الايديولوجية الألمانية » : « ولدت طبقة تتحمل جميع أعباء المجتمع دون أن تتمتع بمزاياه ، طبقة نبذها المجتمع ، ومن ثم أقصيت الى موضع يتعارض كل المعارضة مع سائر الطبقات » . « لقد أصبحت (طبقة العمال) بالفعل تعبر عن انحلال كل الطبقات » . « آراء الطبقة السائدة هى فى كل العصور الآراء السائدة » .

« ان تقسيم العمل الذى صادفناه من قبل كقوة من القوى الرئيسية فى التاريخ الماضى ، يتجلى بالمثل فى الآونة الحاضرة فى الطبقة السائدة فى

صورة تقسيم للعمل الروحى والعمل المادى ، بحيث تمثل احدى جماعات هذه الطبقة المفكرين فيها » • « وربما تحول هذا الانشقاق فى داخل هذه الطبقة الى نوع من التعارض والخصومة بين الجماعتين » • « ولا تحقق أية طبقة جديدة (•••) سيطرتها الا على قاعدة أعرض من قاعدة الطبقة التى كانت سائدة من قبل » •

وفى فقرة عجيبة للغاية ، يبدو أن ماركس يرى الأنموذج الأصلى لتعارض الطبقات وصراعها فى العلاقات بين المدن والأرياف ؛ فقد كتب على الأخص : « ان أعظم تقسيم للعمل المادى والعمل الروحى ، هو انفصال المدينة عن الريف • وتبدأ المواجهة بين المدينة وبين الريف مع الانتقال من الهمجية الى المدنية ، ومن النظام القبلى الى الدولة ، ومن المجتمع المحلى الى الأمة ، وتستمر قائمة على مدى تاريخ الحضارة حتى يومنا هذا (•••) • وهنا يظهر لأول مرة تقسيم السكان الى طبقتين كبيرتين تقومان مباشرة على تقسيم العمل وعلى وسائل الانتاج » •

« المدينة هى نتاج تركيز السكان ووسائل الانتاج ورأس المال والمتع والحاجات ، فى حين أن الريف يمثل على العكس من ذلك العزلة والانفصال • ولا يمكن أن يكون للتعارض بين المدينة والريف وجود الا فى نطاق الملكية الخاصة » • « يمكن اعتبار انفصال المدينة عن الريف انفصالا بين رأس المال والملكية العقارية ، وبداية لوجود مستقل عن الملكية العقارية ، ونماء فى رأس المال ، وملكية لا أساس لها الا فى العمل والمبادلة » • والغاء التعارض بين المدينة والريف هو من أوائل شروط الشيوعية •

« لا يشكل مختلف الأفراد طبقة ما الا اذا حملوا على عاتقهم عبء كفاح مشترك ضد طبقة أخرى ؛ أما فى غير ذلك فانهم يتصارعون فيما بينهم فى مجال المنافسة » • « ومن جهة أخرى ، تستقل الطبقة بدورها عن الأفراد ، ومن ثم تحدد لهم أوضاعهم ، وتعين لهم مركزهم الاجتماعى ،

وبالتـالى تطور أشخاصهم ، وتجعلهم خاضعين لها » ؟ فالطبقة اذن جماعة واقعية ، ولكنها جماعة واقعيـة تنزع الى الكشف عن نفسـها وبالتالى الى التصرف •

وكان ماركس قد عارض فى «الاقتصاد السياسى والفلسفة» (١٨٨٤) ميل بونال Bonald ، وسافينى Savigny ، وبوشتا Puchta ثم كونت ، نحو ابراز المجتمع كائنا فائقا خارج الأفراد الذين يشكلونه• فالواقع الاجتماعى ليس موضوعا خارجيا وليس شخصا أعلى من الفرد • « ينبغى التحرز من ابراز المجتمع شيئا مجـردا بالنسـبة الى الفرد » • « ولا يصبح المجتمع شيئا مجردا الا بفعل التصرفات aliénations »• وفى الامكان التثبت من الفكرة نفسها بالنسبة الى الطبقات الاجتماعية •

ويشـير ماركس فى « الايديولوجيـة الألمانيـة » الى أن « اقـرار النشاط الاجتماعى ، ودعم انتاجنا فى قوة تسيطر علينا » وتحويل « القدرة الاجتماعية ، أى القـوة المنتجة المضـاعفة (•••) الى قوة أجنبيـة خارج الأفراد » أمر يرتبط بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وبتقسيم المجتمع الى طبقات ؟ وتنزع الطبقات نفسها الى تأكيد ذاتها والظهور كوحدات سامية• أما فيما يختص بالبروليتاريا فان ماركس يتلمس بعض التخفيف فى فكرة أن «الطبقة التى تقوم بالثورة ، وهى ثورة تؤدى حتما الى تلاشى الطبقات » تفقد بالتالى صفتها كوحدة سامية • « ولا يمكن الغاء تبعية الأفراد لطبقات معينة الا عندما تتشكل طبقة ليست لها مصلحة طبقية خاصة تدافع عنها ضد الطبقة السائدة » •

« أما العمال الكادحون ، فان حالتهم المعيشـية ، وعملهم ، وبالتالى جميع ظروف المعيشـة فى المجتمع الحاضر قد أصبحت بالنسبة اليهم أمرا عرضيا لا سلطان لهم عليه ، ولا يستطيع أى تنظيم اجتماعى أن يتيح لهم أية هيمنة عليه » • « ومن ثم فانهم فى موقف يتعارض مباشرة مع الهيئـة التى شكلها أفراد المجتمع فى وقتنا الحاضر لتعبر عنهم ، وهى الدولة ؟

وعليهم اذن أن يهدموا الدولة حتى تنتصر شخصيتهم » • لا عجب اذن أن يتغير كل هذا مع زوال الطبقات والدولة فى مجتمع المستقبل • « وجمهور الكادحين الثوريين الذين يهيمنون على ظروفهم المعيشية وكذا على الظروف المعيشية لدى سائر أعضاء المجتمع » ، هذا الجمهور لا يتصدى للأفراد باعتباره قوة خارجية • « والموقف على النقيض من ذلك تماما ، اذ يسهم الأفراد فى المجتمع بصفتهم أفرادا • انه هو اتحاد الأفراد بارادتهم ، الذى يضع تحت هيمنتهم الظروف المتعلقة بتطورهم فى حرية وحركتهم ، وهى ظروف كانت متروكة حتى ذاك الحين لعامل الصدفة ، واستقلت عنهم (•••) بسبب تشتتهم » •

والحقيقة مع ذلك أن الكادحين لا يبلغون الوحدة الا فى أعقاب تطور طويل تقوم فيه الدعوة الى حقهم بدور من الأدوار • ثم ان هذه الدعوة ليست الا وسيلة لتحويلهم الى « أنتم » Vous ، أى الى « جمهور ثورى متحالف » • « الدولة والقانون تعبيران يشكل مضمونهما ظروف الطبقة ، الأمر الذى يثبته بوضوح القانون الخاص وقانون العقوبات » ؟ ومع ذلك ففى تكوين الوعى الطبقى البروليتارى ، يقوم الكفاح فى سبيل الحق بدور هام ، وكذا « الحاجة الى الاستمتاع » المحروم منه العمال ، الأمر الذى يتجلى لهم بوضوح حينما « يقابلون بين الوقت الطويل الذى يقضونه فى العمل » اللازم لحصولهم على الحد الأدنى الضرورى لمعيشتهم، وبين ترف البورجوازية التى تستفيد من أوقات فراغها • وانا لنجد أن ماركس لا ينكر فى « أعمال شبابه » العنصر السيكولوجى فى تكوين البروليتاريا : بل انه على العكس من ذلك ينسب اليه أهمية كبرى •

ماركس (بقية)

تعرضت فى محاضرتى السابقة لتحليل نصوص ماركس المختلفة التى تتصل بمشكلة الطبقات الاجتماعية ، وتوقفت بصفة خاصة عند « أعمال شبابه » التى لم ينشر قسم منها الا منذ عشرين سنة • واجتهدت أن أبين أن ما يغلب على بعض هذه الأعمال ، مثل « الفلسفة والاقتصاد السياسى » و « نقد فلسفة الدولة لهيجل » و « الايديولوجية الألمانية » وكذا « العائلة المقدسة » هو التحليل الاجتماعى الحقيقى الى جانب ضرب من فلسفة التاريخ ، فى حين أن هذه الأعمال لم تتناول الجانب الاقتصادى المركز الا لماما ، وكذا المظهر التاريخى للمشكلة •

ثم ان مفهوم « الطبقة » لم يكن قد تبلور بعد ، بل ان ماركس فى كتابه « الايديولوجية الألمانية » يمضى فى هذا السبيل الى حد مواجهة سكان المدن بسكان الريف باعتبارهما طبقتين تتضمنان تقسيم العمل الى عمل روحى وعمل مادى ؛ ويتحدث فى الوقت نفسه عن طبقة الكادحين باعتبارها طبقة مفترضة virtuelle فحسب ، ينبغى جعلها فعلية ، من أجل صالح الانسانية جمعاء ، لتنقذها من التصرفات ، وعلى الأخص تلك التى تجرى فى صراع الطبقات ، وتقذف بتلك الطبقات بعيدا عن أعضائها باعتبارها موضوعات خارجية أو شخوصا سامية •

والشيء المدهش خاصة في هذا الصدد ، هو مزج الواقعية الاجتماعية بالأخرويات eschatologie (۱) • فماركس ، من ناحية ، يقع على اكتشافات اجتماعية ثمينة ، منها على الأخص :

١ ـ ان الطبقات الاجتماعية تنزع الى السيطرة على أعضائها ، فتصدى لهم وكأنها تمائم fétiches ، وذلك على الأخص في فترة نمو الصناعة الكبرى •

٢ ـ لا يمكن أن يقوم التمييز بين الطبقات الاجتماعية على الثروة ولا على المهنة ، فهاتان الظاهرتان انما هما من نتائج الوضع الاجمالي للطبقة في المجتمع بالنسبة الى الانتاج والى سائر الطبقات الاجتماعية •

٣ ـ هناك وعي طبقي تعبر عنه الايديولوجية بصفة خاصة • ومن ناحية أخرى فان ذلك هو ضرب من فلسفة التاريخ ، وموقف فقهي ، فحواهما أن طبقة الكادحين لا يمكن أن تتحرر الا بانقاذ البشرية من الانقسام نفسه الى طبقات ، الشيء الذي لابد من حدوثه بثورة اجتماعية سوف تكون الأخيرة لأنها ستحل جميع المشاكل التي يثيرها وجود مجتمع ، وتمحو الى الأبد كل التصرفات والخصومات والمنازعات المحتملة ، حتى يسود الوفاق التام •

وتختتم مجموعة نصوص ماركس السابقة على البيان الشيوعي بالمؤلف الجدلي ضد « برودون » والذي يدعم ما بينهما من خلاف : « فقر الفلسفة » (١٨٤٧) • وفي هذا الكتاب الذي يظلم فيه ماركس برودون في الكثير من الأحيان ويعتبره « بورجوازيا صغيرا تتقاذفه المتناقضات التي لا يستطيع لها حلا » ويسحقه الجدل dialectique الذي يعجز عن السيطرة عليه ، تنبثق نظرية ماركس في الطبقات ، ربما بوضوح وتنوع أكثر مما

---

(١) علم الاخرويات escathologie ، مصطلح استخدمه اللاهوتيون بالاخص للدلالة على المبحث الخاص بنهاية العالم واليوم الآخر • (المعجم الفلسفي)

فى معظم نصوصه الأخرى . ويمكن فى الوقت نفسه اعتبار هذا الكتاب نقطة الانتقال بين الكتابات الفلسفية الاجتماعية وبين المؤلفات التاريخية والاقتصادية المتخصصة فى هذه المشكلة .

« تطورت القوى المنتجة حتى الوقت الحاضر بفضل نظام تنازع الطبقات . وان القول بأنه اذا أشبعت جميع حاجات العمال ، استطاع الناس أن يقبلوا على خلق منتجات ذات درجة أعلى لصناعات أشد تعقيدا ، انما فيه تغاض عن تنازع الطبقات وقلب للتطور التاريخى كله» (صفحة ٥٣).

« ان بروميثيوس ، لدى برودون ، شخصية غريبة ، ضعيفة فى المنطق كما هى ضعيفة فى الاقتصاد السياسى (صفحة ٧٩) » . « ثم من هو بروميثيوس ؟ (...) انه المجتمع ، انه العلاقات الاجتماعية القائمة على تنازع الطبقات ؛ وليست هذه العلاقات بين فرد وآخر ، وانما هى بين عامل ورأسمالى ، بين مزارع ومالك عقارى الخ .. فاذا أمحت هذه العلاقات باد المجتمع كله ، ولا يبقى من بروميثيوس هذا سوى شبح لا ساق له ولا ذراع ، أى من غير مصنع آلى ، ولا تقسيم للعمل ، يعوزه كل ما أعطيته من قبل ليحصل على هذا الفائض من العمل » (ص ٨٠) .

« ومن رأى برودون أن لكل فئة اقتصادية جانبين ، جانب حسن وآخر سىء . وهو ينظر الى الفئات مثلما ينظر البورجوازى الصغير الى عظماء التاريخ » (صفحة ٨٩) . « وكما أن رجال الاقتصاد هم الممثلون العلميون للطبقة البورجوازية ، فان الاشتراكيين والشيوعيين هم النظريون لدى الطبقة البروليتارية . وطالما أن البروليتاريا لم تتطور بعد بدرجة كافية لأن تشكل طبقة ، وأن صراع البروليتاريا مع البورجوازية لم يتخذ بالتالى طابعا سياسيا ، وأن القوى المنتجة لم تتطور بعد بدرجة كافية فى داخل البورجوازية نفسها حتى يمكن تبين الظروف المادية اللازمة لتحرر البروليتاريا وتكون مجتمع جديد ، فان هؤلاء النظريين ليسوا أكثر من

خياليين مغرقين فى الخيال ، يريدون أن يوفروا حاجات الطبقات المقهورة، ومن ثم يرتجلون أنظمة ويجرون وراء علم مجدد » (صفحة ١٠٠) .

« ولا يملك برودون من الشجاعة أو من الذكاء ما يكفى لأن يرتفع فوق الأفق البورجوازى ، ولو بالأساليب النظرية (...) . انه يريد التحليق فوق البورجوازيين والكادحين تحليق رجل العلم . ولكنه ليس الا بورجوازيا صغيرا يتأرجح بين « رأس المال » و « العمل » ؛ بين الاقتصاد السياسى والشيوعية » (صفحة ١٠١) . « ولم يتقدم برودون الى ما بعد المثل الأعلى عند البورجوازى الصغير . ولكى يحقق هذا المثل الأعلى ، فانه لا يتخيل شيئا أفضل من أن يعود بنا فى العصر الوسيط الى الصانع ، أو الى رئيس العمل على أكثر تقدير » . (صفحة ١١٣) .

« الانجليزى يحول الناس الى قبعات ، والألمانى يحول القبعات الى أفكار . الانجليزى هو ريكاردو Ricardo ، المصرفى الثرى والاقتصادى المبرز ؛ أما الألمانى فهو هيجل مدرس الفلسفة البسيط فى جامعة برلين » (صفحتا ٨٢ ، ٨٣) .

« الفئات الاقتصادية ليست الا تعبيرات نظرية ، وتجريدات لعلاقات الانتاج الاجتماعية . والسيد برودون ، الفيلسوف الحقيقى الذى يأخذ الأشياء بأضدادها ، لا يرى فى العلاقات الواقعية الا تجسيدات لهذه المبادىء ، وهذه الفئات التى كانت ناعسة (...) فى داخل « العقل البشرى المجرد ». أما السيد برودون الاقتصادى ، فانه أدرك كل الادراك أن الناس يصنعون الجوخ والأقمشة الحريرية وخلافها ... فى نطاق علاقات الانتاج المحددة . غير أن الشىء الذى لم يفهمه هو أن هذه العلاقات الاجتماعية المحددة هى أيضا من انتاج الناس ، مثلها مثل التيل والكتان ... والعلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوى المنتجة . وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة ، يغيرون أسلوبهم فى الانتاج، ووسيلتهم فى كسب العيش ، ويغيرون علاقاتهم الاجتماعية كلها .

فالطاحونة الهوائية تعطينا مجتمع السيد الاقطاعى ، والطاحونة البخارية مجتمع الرأسمالية الصناعية » .

« والأشخاص أنفسهم الذين ينشئون العلاقات الاجتماعية وفقا لانتاجيتهم المادية ينتجون أيضا المبادىء والآراء ؟ والفئات الاجتماعية قصيرة الأمد مثل العلاقات التى تعبر عنها ؟ وهى منتجات تاريخية وقتية قصيرة الأمد . وثمة حركة مستمرة من النمو فى القوى المنتجة ، والهدم فى العلاقات الاجتماعية ، والتكوين فى الآراء : وليس هناك شىء ثابت لا يتغير سوى تجريد الحركة mors immortalis (صفحة ٨٨).

« ويجهل السيد برودون أن التاريخ كله ليس الا تغيرا مستمرا فى الطبيعة البشرية » (صفحة ١١٥) ، ولهذا فان الرغبة فى وضع تعريف للملكية على أنها علاقة مستقلة ، ونوع خاص ، وفكرة مجردة أبدية ، هذه الرغبة ليست الا وهما من أوهام الميتافيزيقا والفقه (صفحة ١٢٠ ــ ١٢١) » . « تطورت الملكية فى كل عصر من عصور التاريخ بشكل مختلف وبمجموعة من العلاقات الاجتماعية مختلفة كل الاختلاف . وعلى هذا فتعريف الملكية البورجوازية انما هو استعراض جميع العلاقات الاجتماعية المتصلة بالانتاج البورجوازى » (صفحة ١٢٠) . وتعريف طبقة ما بأنها طبقة مالكة ليس بالمثل قولا دقيقا محددا . « البورجوازية فى مبدئها بروليتاريا ، وهذه نفسها أثر متخلف من بروليتاريا عصور الاقطاع. وكان للاقطاع أيضا طبقة بروليتاريا ، هى نظامة القنانة (رقيق الأرض) الذى يضم كل بذور البورجوازية . والبورجوازية فى غضون تطورها التاريخى ، تطور بالضرورة طبيعتها العدوانية التى كانت فى البداية مستخفية بعض الشىء . وكلما تطورت البورجوازية ، نمت فى داخلها بروليتاريا جديدة ، وحديثة. وينمو صراع بين الطبقة البروليتارية والطبقة البورجوازية ، صراع لا يظهر فى البداية الا بضروب من النزاع جزئية ووقتية ، وأحداث هدامة ــ وذلك قبل أن يشعر به الجانبان ويقدرانه

ويفهمانه ويعترفان به ، ويعلنان عنه على الملأ . ومن جهة أخرى فانه اذا كان لجميع أعضاء البورجوازية الحديثة مصلحة واحدة باعتبار أنهم يشكلون طبقة فى مواجهة طبقة أخرى ، فان لهم مصالح متعارضة وعدائية حين يواجه بعضهم بعضا . وينشأ هذا التعارض فى المصالح من الظروف الاقتصادية فى معيشتهم البورجوازية . ويزداد وضوحا يوما بعد آخر أن علاقات الانتاج التى تتحرك البورجوازية فى نطاقها ليست ذات طبيعة بسيطة ، وانما لها طبيعة ازدواجية . ففى نفس العلاقات التى تتولد فيها الثروة ، تنشأ الفاقة ؛ وفى نفس العلاقات التى تتطور فيها القوى المنتجة ، توجد قوة مولدة للردع. ثم ان هذه العلاقات لا تنتج الثروة البورجوازية، أى ثروة الطبقة البورجوازية ، الا بابادة ثروات الأعضاء الذين يشكلون هذه الطبقة ، وخلق طبقة من الكادحين تنمو باطراد » (ص ٩٨) .

« تحشد الصناعة الضخمة فى بقعة واحدة جمهورا من الناس لا يعرف بعضهم بعضا ؛ يفرق بينهم التنافس فى المصالح . بيد أن دعم الأجور ، وهى المصلحة المشتركة التى يدافعون عنها ضد رؤسائهم ، يجمعهم فى فكرة واحدة ، فكرة التحزب للمقاومة (...) . ولم يكن الهدف الأول من المقاومة سوى دعم الأجور ؛ غير أنه مع توالى اجتماع الرأسماليين بدورهم بفكرة القمع ، فان النقابات التى كانت منعزلة فى البداية أصبحت تتشكل فى مجموعات ، وأصبح دعم الاتحاد ألزم لهم من دعم الأجور ، فى وجه رأس المال المتحد على الدوام . وهذه ظاهرة حقيقية لدرجة أن الاقتصاديين الانجليز دهشوا كلهم عند رؤيتهم العمال يضحون بجزء كبير من أجورهم لصالح النقابات التى يعتقد الاقتصاديون أنها لم تتكون من أجل الأجور . وفى هذا الصراع الذى يماثل حربا أهلية حقيقية ، تتجمع وتتطور جميع العناصر اللازمة لحرب مستقبلة . فالظروف الاقتصادية قد حولت أولا جمهور الشعب فى القطر الى عمال. وخلقت سيطرة رأس المال بالنسبة لهذا الجمهور وضعا مشتركا ومصالح مشتركة ؛ ومن ثم أصبح هذا الجمهور طبقة فى وجه رأس المال ، ولكنه

لم يشكل بعد طبقة فيما بين نفسه • أما فى خصوص الصراع الذى لم نذكر منه الا بعض الوجوه ، فان هذا الجمهور يجتمع ويشكل طبقة خاصة به » (صفحة ١٣٤) •

« الطبقة المقهورة هى الشرط الحيوى لوجود مجتمع قائم على تنازع الطبقات • وعلى ذلك يقتضى تحرر الطبقة المقهورة بالضرورة خلق مجتمع جديد • ولا بد لكى تستطيع الطبقة المقهورة أن تتحرر ، أن تصبح القوى المنتجة المكتسبة من قبل ، والعلاقات الاجتماعية القائمة غير قادرة على الاستمرار فى المعيشة ، بعضها الى جوار بعض • واكبر قوة منتجة ، بين جميع وسائل الانتاج ، هى الطبقة الثورية نفسها• ويفترض تنظيم العناصر الثورية فى طبقة ما وجود جميع القوى المنتجة التى نشأت فى داخل المجتمع القديم » • « هل يعنى هذا أنه بعد سقوط المجتمع القديم ، تقوم سيطرة طبقية جديدة تتلخص فى سلطة سياسية جديدة ؟ كلا • ان شرط تحرر الطبقة العاملة هو الغاء جميع الطبقات ، كما كان شرط تحرر المرتبة الثالثة tiers état والنظام البورجوازى ، محو جميع المراتب والأنظمة »•

« سوف تستبدل الطبقة العاملة أثناء تطورها بالمجتمع المدنى القديم هيئة تستبعد الطبقات وتنازعها ، ولن يكون هناك بعد ذلك سلطة سياسية حقيقية ، طالما كانت السلطة السياسية هى بالتحديد الخلاصة الرسمية للتنازع فى المجتمع المدنى » (صفحة ١٣٥) • وفى مجتمع المستقبل الذى يمتنع فيه تنازع الطبقات ، ولا يكون ثمة طبقات ، لن يتحدد العرف بالحد الادنى للزمن الذى يستغرقه الانتاج ؛ وانما يتحدد زمن الانتاج الاجتماعى الذى يخصص لمختلف الأشياء بالمنفعة الاجتماعية لهذه الأشياء » (ص٥٤)

« وحتى يحين ذاك الأوان، فان النزاع بين البروليتاريا والبورجوازية هو صراع بين طبقة وطبقة ، صراع يرتفع الى أقصى مداه فيشكل ثورة شاملة » (صفحة ١٣٥) • « ولن تتوقف التطورات الاجتماعية عن أن

تصير ثورات سياسية الا فى نظام تتلاشى فيه الطبقات ومنازعات الطبقات. وحتى ذاك الحين ، فان الكلمة الأخيرة لعلم الاجتماع ، قبيل كل تعديل عام فى المجتمع ، سوف تكون دواما : القتال أو الموت » (صفحة ١٣٦) .

يخلص من هذه النصوص النتائج الآتية :

١ ـ لا يمكن تعريف الطبقات الاجتماعية كما شاء أن يعرفها الاقتصادى الألمانى ك. بوخر K. Bucher (أنظر فيما يلى الدرس التاسع) والماركسى البلجيكى أوفربرج . ولنذكر التعريف الذى وضعه الأخير ، وسبق لنا التنويه عنه ونقده (فى الدرس الثانى) : « الطبقات الاجتماعية تدرجات اجتماعية متراكبة مبنية على ملكية وسائل الانتاج » .

٢ ـ يميل ماركس الى ربط وجود الطبقات بمعناها الحقيقى الى ظهور الصناعة الكبرى ، أى أنه لا يتصدى لها الا اعتبارا من القرن السابع عشر .

٣ ـ قد يكون لطبقة ما وجود بالنسبة الى طبقة أخرى فى حين أنها ليس لها وجود فى ذاتها .

٤ ـ لكى يتدعم كيان الطبقة ، لا بد أن يتحول الوعى الطبقى الى ايديولوجية طبقية ، وأن يتشكل الاثنان فى خدمة الصراع الطبقى .

٥ ـ يميز ماركس فى عصره خمس طبقات :

١ ـ ملاك الأراضى .

٢ ـ البورجوازيون .

٣ ـ صغار البورجوازيين .

٤ ـ الفلاحون المزارعون .

٥ ـ العمال الكادحون . غير أنه يعتقد أن هذه الطبقات سوف تختصر الى طبقتين .

٦ ـ يرى ماركس أن كل صراع طبقى يتحول الى صراع سياسى.

٧ ـ يميــل الى أن يرى « عـداء » فى كل نزاع أو صراع بين الجماعات الخاصة ، وهو أمر مشكوك فى صحته .

٨ ـ لا يتخلى عن نظريته الاجتماعية ذات الطبيعة الأخروية eschatologique

وفى أربعة تحليلات تاريخيــة لاحقــة قدم ماركس مجمــوعة من الطبقات وفروع الطبقات (أجزاء من الطبقات) لم يتعرض لها فى البداية.

من ذلك أن ماركس فى كتابه « الثورة والثورة المضادة فى ألمانيا » (بالاشتراك مع انجلز) يميز بالنســبة الى ألمانيــا قبل عام ١٨٤٨ ثمانى طبقات مختلفة على الأقل :

١ ـ النبلاء الاقطاعيون .

٢ ـ البورجوازية .

٣ ـ البورجوازية الصغيرة .

٤ ـ طبقة الفلاحين ، الكبيرة والمتوسطة .

٥ ـ طبقة الفلاحين الصغيرة الحرة .

٦ ـ طبقة الفلاحين القنان .

٧ ـ عمال الزراعة .

٨ ـ عمال الصناعة .

ويعرض علينا أيضا فى كتابه « ضروب الصراع بين الطبقات فىفرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ » وهو الوحيد الذى يتضمن عنوانه مصطلح «الطبقة» عددا كبيرا من الطبقات الاجتماعية . ويســتهل التحليل كله بالاستشهاد بالمصرفى الليبرالى « لافيت » Laffitte الذى صرح بعد ثورة ١٨٣٠ قائلا « الآن تبدأ ســيادة أصحاب البنوك » . وكتب ماركس « لقد فضح

لافيت سر الثورة . لم تكن البورجوازية الفرنسية هى التى تحكم فى عهد لوى فيليب ، وانما كان يحكم قسم منها فقط ، هم أصحاب المصارف ، وملوك البورصة ، وملوك السكك الحديدية ، وملاك مناجم الفحم والحديد ، وملاك الغابات وما يتبعها من الملكية العقارية ، وما يسمى بالأرستقراطية المالية . « كانت البورجوازية الصناعية الحقيقية تشكل قسما من المعارضة الرسمية ، أى أنها لم تكن ممثلة الا كأقلية فى المجلسين » . « أما البورجوازية الصغيرة فى كلّ هذه التدرجات الطبقية ، وكذا طبقة الفلاحين ، فانهما كانتا مستبعدتين كلية من السلطة السياسية » .

وهكذا يميز ماركس :

١ ـ البورجوازية المالية .

٢ ـ البورجوازية الصناعية .

٣ ـ طبقة التجار البورجوازية (الحانوت La Boutique) .

٤ ـ البورجوازية الصغيرة .

٥ ـ طبقة الفلاحين .

٦ ـ الطبقة البروليتارية .

٧ ـ حثالة البروليتاريا Lumpen-Proletariat

« ليست الأرستقراطية المالية ، فى أسلوب كسبها للمال ، كما فى أوجه استمتاعها سوى بعث « بروليتاريا السوقة » فى ذرى المجتمع البورجوازى » . « وفى ذرى المجتمع البورجوازى خاصة انطلقت وسائل اشباع الرغبات المتناهية فى السوء والانحراف ، ودخلت فى كل لحظة فى نزاع مع القوانين البورجوازية نفسها ؟ ذلك لأنه حيث يغدو الاستمتاع ضربا من الفجور ، وحيث يختلط الذهب بالوحل والدم ، تسعى الثروة النابعة من الميسر بطبيعة الحال الى وسائل الاشباع » .

« وعن طريق الانتخابات العامة ، أصبح الملاك الاسميون الذين يشكلون الأغلبية الكبرى من الفرنسيين ، وهم الفلاحين ، المتصرفين فى أقدار فرنسا » • وعلى هذا النحو تنتقل من « الملكية البورجوازية » الى « الجمهورية البورجوازية » • ولكن « الفلاحين هم الذين اضطروا الى دفع نفقات ثورة فبراير ؛ واستمدت الثورة المضادة من بينهم القسم الرئيسى من رجالها » • « وأصبحت الجمهورية من ذاك الحين فى نظر الفلاح الفرنسى هى ضريبة الخمسة والأربعين سنتيما ؛ وشهد الفلاح فى بروليتاريا باريس ، المتلاف الذى يستمتع بأوقاته على حسابه هو » • « اذا لم تكن الانتخابات العامة هى العصا السحرية العجيبة التى أراد الجمهوريون الطيبون الحصول عليها ، فقد كان لها الفضل الأكبر فى انطلاق الصراع الطبقى ، والعمل على أن تفقد القطاعات الوسطى المختلفة فى المجتمع البورجوازى سريعا أوهامها وآمالها الكاذبة عند معاناتها الحياة » •

وفى ٢٢ يونية تمرد العمال ، « وما أن أقصيت البروليتاريا مؤقتا عن مسرح الأحداث ، واعترف رسميا بدكتاتورية البورجوازية ، حتى كان لزاما على القطاعات المتوسطة فى المجتمع البورجوازى ، والبورجوازية الصغيرة ، وطبقة الفلاحين ، وقد تفاقم وضعهم حتى أصبح لا يحتمل ، وازدادت معارضتهم للبورجوازية حدة ، أن ينضموا أكثر فأكثر الى البروليتاريا » • على أن ما حدث كان على العكس من ذلك • « وفى حين كانوا فيما مضى لا يرون فى انطلاقة البروليتاريا سوى العلة فى تعاستهم ، فانهم وجدوا الآن هذه العلة حتما فى هزيمتها » • « وجمعت طائفة الحانوت (طبقة التجار البورجوازية) كل قواها وسارت مخترقة الحواجز لفتح الطريق من الشارع الى الحانوت » • وفى يوم انتخاب لوى بونابرت « كان ١٠ ديسمبر يوم فتنة الفلاحين »• « لا ضرائب بعد اليوم، فليسقط الأغنياء ، ولتسقط الجمهورية ، وليحيا الأمبراطور ! » وصوتت البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا كتلة واحدة فى صالح نابليون ، لعزل

« كافينياك » ، وانتزاع القرار النهائي من الجمعية التأسيسية باتحاد أصواتهم .

« في فرنسا ، يؤدى البورجوازى الصغير ما يجب أن يؤديه عادة البورجوازى الصناعى ، ويؤدى العامل ما هو في العادة عمل البورجوازى الصغير ؟ أما عمل العامل فمن يؤديه ؟ لا أحد . هذا العمل لا يؤدى في فرنسا ، وانما ينادى به » . « والرأسماليون على حدة ، يستغلون الفلاحين على حدة ، عن طريق الرهن العقارى والربا . والطبقة الرأسمالية تستغل طبقة الفلاحين بضريبة الدولة » .

في فرنسا ، تتوارى « خلف العبارات الاشتراكية العامة » ارادة « قلب سيطرة الارستقراطية المالية ، وتخليص الصناعة والتجارة من قيودها السابقة . تلك هى اشتراكية الصناعة والتجارة والزراعة (...) ومن‌هذه الاشتراكية البورجوازية التى تضم كثيرها من‌أنواع الاشتراكية : قسما من العمال وصغار البورجوازيين ، تتميز اشتراكية صغار البورجوازيين ، وهى الاشتراكية الحقة ، ويطارد رأس المال هذه الطبقة أساسا بصفته دائنا لها ، وتطالب الطبقة بانشاء أنظمة ائتمانية » . « وهكذا يصبح صغار البورجوازيين مشايعى أو اتباع الأنظمة الاشتراكية القائمة ، والاشتراكية النظرية التى لم تكن تعبر عن طبقة البروليتاريا الا حين لم تكن هذه الطبقة قد تطورت بعد بدرجة كافية لأن تصبح حركة تاريخية حرة مستقلة » .

« يزداد تجمع البروليتاريا باطراد حول الاشتراكية الثورية ، حول الشيوعية . هذه الاشتراكية هى الاعلان الدائم عن الثورة وعن دكتاتورية طبقة البروليتاريا كنقطة انتقال لازمة للوصول الى ازالة الفروق بين الطبقات عموما ، والغاء كل علاقات الانتاج التى تعتمد عليها الطبقات ، وكل الروابط الاجتماعية التى تقابل علاقات الانتاج ، وهدم كل الأفكار التى تصدر عن هذه الروابط الاجتماعية » . ويزيد انجلز على ذلك في مقدمته

فيقول : « انتهت كل الثورات حتى وقتنا الحاضر الى انتزاع الحكم من طبقة معينة بفعل طبقة أخرى ، غير أن الطبقات السائدة كلها لم تكن حتى الآن سوى أقليات صغيرة بالنسبة الى كتلة الشعب المحكوم . وهكذا كانت تقلب الاقلية السائدة » .

وفى كتاب « لوى بونابرت والثامن عشر من برومير » (١٨٥٢ ، الطبعة الثانية ١٨٦٩) كتب ماركس : « اننا ننسى عبارة سيسموندى Sismondi المشهورة » « كانت البروليتاريا الرومانية تعيش عالة على المجتمع فى حين يعيش المجتمع الحديث عالة على البروليتاريا (مقدمة لماركس بتاريخ ٢٣ يونية ١٨٦٩) . والجمهورية ليست بوجه عام الا شكلا للتغير السياسى للمجتمع البورجوازى ، لا الشكل الذى يحتفظ به لنفسه » . « أوضحت فى موضع آخر أهمية انتخابات ١٠ ديسمبر (...) ويكفى أن أنوه هنا بأنها كانت رد فعل قام به الفلاحون الذين دفعوا على الأرجح نفقات ثورة فبراير ، ضد الطبقات الأُخرى فى الأمة ، رد فعل الريف ضد المدنية » . غير أن لوى نابليون كان لأسباب مختلفة مؤيدا بالمثل من البورجوازيين وصغار البورجوازيين والكادحين . بل كان امبراطور المستقبل بنفسه يمثل «حثالة البروليتاريا» Lumpen Prolétariat

ويذكر ماركس فى شأن البورجوازية أنها « تضحى بمصلحتها الطبقية العامة ومصلحتها السياسية فى سبيل مصالحها الفردية الأكثر ضيقا وخسة » ويذكر بالمثل أنه « كان لزاما أن يصاب نواب البورجوازية بتلك العلة التى استشرت منذ عام ١٨٤٨ فى القارة كلها ، علة الغباء البرلمانى التى تقصى كل الذين يصابون بها فى عالم خيالى ، وتنتزع منهم كل ألوان الذكاء والذاكرة والفهم بالنسبة للعالم الخارجى الصارم ، فى حين أنهم قد هدموا بأيديهم قسرا فى صراعهم ضد الطبقات الأخرى ، كل ظروف السلطة البرلمانية ، حتى يتأتى لهم أن يعتبروا انتصاراتهم البرلمانية انتصارات حقيقية ، ويتخيلوا أنهم يصيبون الرئيس اذا ضربوا وزراءه » .

ووصف جيـزو Guizot يوم ٢ ديسـمبر قـائلا : « انه النصر الكامل والنهائى للاشتراكية (٠٠٠) • وكان أول نتائجه المحسوسة على أية حال انتصار بونابرت على البرلمان ، وانتصار السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، والعنف دون عبارات على عنف العبارات » • « ولا يبدو أن الدولة قد أصبحت مستقلة تمام الاستقلال الا فى عهد بونابرت الثانى » •

« سوف تهتف البورجوازية الفرنسية فى غداة الانقلاب السياسى : لم يزل رئيس مجتمع ١٠ ديسمبر هو وحـده القـادر على انقاذ المجتمع البورجوازى ، ولم تزل السرقة هى وحـدها القـادرة على انقاذ المجتمع البورجوازى ! »• « يشعر بونابرت» بصفته السلطة التنفيذية التى أصبحت مستقلة عن المجتمع ، بأن من واجبه أن يؤمن النظام البورجوازى • بيد أن قوة هذا النظام البورجوازى تكمن فى الطبقة المتوسـطة ، ولهذا فانه يقيم نفسه ممثلا لهذه الطبقة وينشر مراسيم بهذا المعنى » •

ومن رأى ماركس أن هذه المهزلة الناتجة من حدث تاريخى معين لها أساس آخر : « السلطة التنفيذية بتنظيمها البيروقراطى والعسـكرى الشاسع (٠٠٠) وجيش الموظفين التابع لها (٠٠٠) وجيشها الآخر (٠٠٠) من الجنود ، جسد طفيلى مخيف يغطى كالغشاء جسد المجتمع الفرنسى »، نجح فى أن يكون مستقلا ليسيطر على كل الطبقات باسم عصبة بيروقراطية عسكرية يرأسها مؤقتا بونابرت الثانى » • ويعود ماركس الى هذه الملاحظة فى كتاب « الحرب الأهلية فى فرنسا » (١٨٧١) وفى الجـزء الثالث من كتاب « رأس المال » •

ويجدر بنا الآن أن نخصص ختام هذا الدرس لتحليل نقطة أخرى: تلك هى تدخل الايديولوجيا فى صراع الطبقات ، وتمويهها هذا الصراع بدلا من أن تجليه وتلهمه وترشده • ولنقتبس فى هذا الموضوع فقرة مفيدة من الكتاب الذى درسناه آنفا :

« يقوم فوق أشكال الملكية المختلفة ، وظروف الحياة الاجتماعية بناء علوى من الانطباعات والأوهام وأساليب التفكير والمفاهيم الفلسفية الخاصة. والطبقة بأجمعها هى التى تخلق هذه الأشياء وتشكلها تبعا لظروفها المادية والعلاقات الاجتماعية المقابلة لها . وقد يتخيل الفـرد الذى يتلقـاها عن طريق العرف أو التربية أنها تشكل الأسباب الحاسمة لنشاطه ونقطة البداية لهذا النشـاط (...) . وكما أن الانسـان يميز فى حياته الخاصـة بين ما يقوله الناس عنه أو يفكرون بشأنه ، وبين حقيقة شخصه ، وما يؤديه بالفعل ، فانه يجب التمييز أكثر من ذلك فى الصراعات التاريخيـة ، بين أقاويل الأحزاب وادعاءاتها ، وبين تكوينها ومصالحها الحقيقية ؟ وكذا بين ماتتخيله عن نفسها وبين ما هى عليه فى واقعها » .

وهكذا عرضت مشكلة الايديولوجيـة ها هنا فى وضوح . وتردد هذا التعبير مرارا فى نصوص ماركس التى حللناها على التوالى . غير أن معنى هذا المصطلح لم يكن واحدا فى جميع الأحـوال ، فهو يتغير خلال أعمال ماركس . ولما كان هذا المصطلح يؤدى فى الوقت ذاته دورا هاما فى مفهوم الطبقات الاجتماعية، فانا لا نعتقد أننا قادرون على التقدم خطوات أخرى دون أن نحاول ايضاح المعانى المختلفـة للفظة « ايديولوجيا » . وبهذا الموضوع سوف نبدأ درسنا القادم .

ماركس (تابع ما قبله)

عندما قمنا بتحليل بعض أعمال ماركس التاريخية التى ورد بها ذكر الطبقات الاجتماعية كوسيلة لشرح بعض الأحداث الاجتماعية المركبة ، كفشل ثورة ١٨٤٨ ، والانقلاب السياسى الذى قام به لوى بونابرت ، بينا أن ايديولوجية الطبقات العديدة أو أقسام الطبقات التى ذكرها ماركس تلعب دورا فى بناء مفهوم هذه الطبقات • وعلى هذا انتهينا الى التساؤل عما يقصده ماركس بلفظة « ايديولوجيا » •

فى « أعمال شباب » ماركس ، يتسم تعبير الايديولوجيا هذا بطابع محقر لا ريب فيه • استخدم هذا التعبير لأول مرة دستوت دوتراسى Destutt de Tracy فى كتابه « مشروع عناصر الايديولوجيا » (١٨٠١)، وردده بعد ذلك نابليون حين أطلق على أعضاء « اكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية » ، وكلهم أصدقاء «دستوت دوتراسى» اسم «الايديولوجيين» ؛ واتخذ هذا التعبير فى قلم ماركس الشاب ، كما اتخذ فى قلم الأمبراطور، طابع الازدراء • وألف ماركس كتابه « الايديولوجيا الألمانية » ذا الأجزاء الثلاثة ليهاجم به الفلسفة الألمانية فى عصره ، وليثبت عدم جدواها ؛ وأبان فيه كيف أن مواطنيه ينزعون الى « تحويل القبعات الى آراء » (فقر الفلسفة) • فالايديولوجيا و « البناء العلوى الايديولوجى قد

وصفا أولا بأنها مفاهيم « تقلب الأشياء رأسا على عقب » وأنها « خيالات » أو بعبارة أبسط « الصورة الكاذبة التى يرسمها الناس عن أنفسهم » . انها على الأخص آراء جزمية (دوجماطيقية)[1] تبرر بعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة التى توصف بأنها «ايديولوجية» . ومع هذا فان الايديولوجيا تعنى منذ بدايتها مذهبا أحيانا ، وأحيانا أخرى انتاجا عقليا مباشرا ولكنه غير صحيح ، كالدين ، (الذى يعرف دائما بأنه ايديولوجيا لأنه لا يمكن أن يكون صحيحا : اذ « هو كالأفيون للشعب ») . ثم هى أخيرا أسلوب من الآراء الحقيقية عندما تتعلق بالماركسية باعتبارها ايديولوجيا البروليتاريا .

ويميل مصطلح « ايديولوجيا » فى « فقر الفلسفة » و « البيان الشيوعى » وفى الكتابات التاريخية الثلاث الأولى الى أن يتخذ معنى أوسع من ذى قبل ، اذ يتضمن كل العلوم الانسانية ، بصفتها هذه ، وخاصة العلوم الاجتماعية (بما فيها الاقتصاد السياسى والتاريخ طالما لم تتشرب بالماركسية) ، وبرامج وتصريحات الأحزاب السياسية المختلفة ، وأخيرا التصويرات والآراء وردود الأفعال السيكولوجية ، وأمانى مختلف الطبقات الاجتماعية .

ويزداد معنى مصطلح الايديولوجيا اتساعا ابتداء من مقدمة كتاب « نقد الاقتصاد السياسى » (١٨٥٩) : فيدرج ماركس بين « الأبنية الايديولوجية العلوية » كل الأعمال الثقافية بصفتها هذه (القانون والأخلاق والاسطاطيقا واللغة والمعارف الفلسفية والعلمية) ، وكل المذاهب والمواقف الاجتماعية والسياسية، وكل المنتجات الفكرية والأحوال والأفعال النفسية التى تميز الوعى الطبقى أو الوعى الفردى ؛ ولا يستثنى

---

(١) الجزمية (دوجماطيقية) dogmatisme : اثبات قيمة العقل وقدرته على المعرفة ، وتبعا امكان الوصول الى اليقين . وقد يطلق على أنصار هذا المذهب أو تهكما على آراء الخصوم . ويستعمل تهكما أيضا للدلالة على من يسلمون دون تمحيص .
(مجمع اللغة العربية)

من كل ذلك الا أمرا واحدا : فهو يستبعد من مجال الايديولوجيا ، الى جانب العلوم الطبيعية ، الاقتصاد السياسى الذى ترفعه الماركسية الى مستوى العلوم الحقيقية . ولا بد فى مجتمع المستقبل أن يؤدى اختفاء الطبقات الى موقف تتخلص فيه كل المعارف الاجتماعية والفلسفية من صلاتها بالمجالات الاجتماعية ، ويتلاشى معاملها الاجتماعى . يتضح لنا اذن أن مصطلح « ايديولوجيا » رغم أنه يميل الى أن يفقد بالتدريج عند ماركس صفته التحقيرية فانه لم يزل معيبا لاتصاله بالأعمال والعلوم المضطربة .

ولا يبدو لى ثمة شك فى أن مدلول مصطلح الايديولوجيا فى ذهن ماركس لم يزل متقلبا . وانى لأميز بسهولة ثلاثة عشر معنى مختلفا ، لا يحجب بعضها بعضا الا بدرجة جزئية .

١ ـ التخيلات الجماعية أو الأوهام ، والتصورات الكاذبة غير الواعية التى يرسمها الناس والجماعات والطبقات عن أنفسهم وعن خصومهم والمجموعات التى يشتركون فيها والأوضاع الاجتماعية التى يوجدون فيها . وقد تقترن هذه التخيلات بالوعى الطبقى أو تندمج بصورة أوسع بالعقلية التى تتميز بها طبقة ما . وانا لنجد أمثلة منها فى الأحوال التى يتحدث فيها ممثلو طبقة ما عن « النظام » (ناسين أن ما هو نظام بالنسبة الى طبقتهم هو اختلال بالنسبة الى الطبقات المضادة لها) ، وعن « المسئولية » أمام الأمة ، وما أشبه ذلك .

٢ ـ هذه التخيلات أو الأوهام عندما تكون واعية أو شبه واعية . مثال ذلك : شعارات الدعاية ؛ تركيب صور خادعة للخصوم ؛ اختراع ، نشر واذاعة صور خيالية ليس من شأنها الا اخفاء الحقيقة فيما يختص بالسلوك والعقلية والآراء ودرجات القيم التى تميز الطبقات المضادة .

٣ ـ تفسيرات الأوضاع الاجتماعية ، ابتداء من التقديرات السياسية أو الأخلاقية أو الدينية أو الفلسفية التى تتضمن اتخاذ موقف ما ، وانما

لا تتضمن لزوما وهمـا من الأوهام • من ذلك بصفة خاصـة حالة كل « وعى طبقى » ، حتى أشد ألوان هذا الوعى وضوحا •

٤ ـ المذاهب الفقهية المؤلفـة من أجل تبرير أوهام ؛ أو تقديرات تفسيرية تتصل بمواقف اجتماعية ، وخاصة بالصراع الطبقى من وجهـة نظر طبقة معينة • ومن أمثلة ذلك المذاهب الاشتراكية والسياسية بما فيهـا المذهب الشيوعى كما أقامه ماركس •

٥ ـ كل عمل « موضوعى » فى «الوعى الواقعى» الجماعى والفردى فى وقت واحد (اللغة والقانون والأخلاق والفن والمعرفة) طالما كان هذا العمل مرتبطا ارتباطا وظيفيا بطبقة ما أو يسهم فى بناء طبقة •

٦ ـ العلوم الانسانية ، وخاصة العلوم الاجتماعية ، تبعا لقوة العامل الاجتماعى الموجود فيها (باستثناء الاقتصاد السياسى الذى رفعته الماركسية الى مستوى الحجة الموضوعية) •

٧ ـ المعرفة الفلسفية ، بسبب طبيعتها المتحزبة ، واستحالة التحقق من صحتها •

٨ ـ الدين ، لأنه ثمرة عقلية خبيثة ، عارية من الحقيقة •

وثمة خمسة معان أخرى فوق المعـانى التى ذكرتها آنفـا ، أضافها الموركسيون المحدثون وخاصة ســوريل Sorel ، ومانهـايم Mannheim وغيرهمـا ، والماركســيون الذين يستخدمون أسـاليب « فرويد » مثـل «هورنى» وغيرها •

٩ ـ مجموعة العلامات والرموز التى تتميز بها طبقة اجتماعية والتى تعبر عن عقد هذه الطبقة ومتاعبها وأمانيها •

١٠ ـ الأساطير والطوبيات utopies (١) ، كأسطورة « الاضراب

---

(١) طوبيا utopie ـ تدبير أو نظام خيـــالى ـ مثوى الكمال ـ المكان التخيلى للسعادة البشرية • المترجم

العام » و « طوبيا » تلاشى الدولة • والأساطير والطوبيات (ولا أقصد بهذا اللفظ الأخير المعنى الخاص الذى أعطاه مانهايم) تنظيمات منهاجية خيالية للرموز الوجدانية والارادية •

١١ — مجموعة الآراء والقيم التى لم تعد صالحة فى وضع اجتماعى معين ، أى لم تعد مناسبة للاطار الاجتماعى الذى يراد النهوض بها فيه •

١٢ — ظاهرة الانحراف العقلى أو على الأقل التفسير الخاطىء الذى تجريه طبقة اجتماعية للدور الحقيقى الذى تلتزم القيام به (وتتميز بهـا خاصة طبقة فقدت سلطتها أو ضعفت مكانتها الاجتماعية) •

١٣ — تصرفات لا تتمشى مع موقف معين أو مع الوضع الاجتماعى لطبقة ما : آية ذلك عدم توافق وعى الطبقـة مع التغيرات التى تطرأ على العلاقات بين الطبقات ، أو على الأحداث أو بناء الطبقة •

ويبدو لى أنه لا نزاع فى أن المذهب الماركسى خليق بأن يختار بين هذه المعانى الثلاثة عشر لمصطلح الايديولوجيا ، والا فانه يتعرض لضياع قيمته العلمية ، من حيث تعريف فكرة الطبقة الاجتماعية ، وكذا من حيث دراسة مشاكل «سوسيولوجيا المعرفة» sociologie de la connaissance أما من ناحية ماركس نفسه ، فقد تراءى له أن أبسـط مخـرج من هذه المتاهة من معانى مصطلح الايديولوجيا يتمثل فى افتراض أولى بأنه لا وجه للمقابلة بين الايديولوجيا البروليتارية وبين غيرها من الايديولوجيـات ، فهى ايديولوجيا ممتازة لأنها تتكفل بتغيير العـالم وانهاء وجود الطبقات ، وفى أعقـابها الايديولوجيـات نفســها ؛ وهى الى ذلك تختلط بالنظرية الماركسية نفسها ، وهى نظرية فلسفية واجتماعية واقتصـادية لها حجيـة شاملة • فالايديولوجيـا البروليتـارية تمثـل فى خاطر ماركس ، اذا لم تنحرف ، تفوقا على كل الايديولوجيات ، فهى ضرب من المعرفة ، متحرر من كل علاقة بالمجالات الاجتماعية ، وتنتهى الى الحقيقة الكاملة ، الكلية، المطلقة التى تتوطد بعيدا عن أى مجال يشار اليه •

وتثور فى هذا الصدد أمام ماركس عدة صعوبات :

(أ) التهديد بمذهب عقلى مطلق يخشاه ماركس •

(ب) التهديد بذوبان علم الأخلاق والقانون والفن فى « المعرفة » الوحيدة المنفصلة عن المجتمع (أى المذهب العقلى المناقض لنزعته البرجماتية pragmatiste [1] والارادية volontariste) •

(جـ) تناقضه مع نظريته الخاصة التى تقول بأن « العقل » فى ذاته ليس الا شكلا من أشكال الايديولوجيا البورجوازية •

(د) بدعة الحقيقة المطلقة المستخفية فىايديولوجيا الطبقة البروليتارية التى تستخدمها لتشكل نفسها حتى تنصر هذه الحقيقة فى التاريخ المتحول الى « عدالة الهية » ؛ فكأنها من أسرار فلسفة التاريخ التى تتأر من التحليل العلمى !

آن الأوان للعودة الى رابع أعمال ماركس وآخرها ، ذلك الذى له سمة تاريخية : « الحرب الأهليــة فى فرنســا ، ١٨٧١ » • هذا التحليل لسلطة الكومون [2] Commune الذى يتحــول كثيرا الى انتحال الأعــذار ، يحتوى رغم ذلك على بضــعة نصــوص هامة تتعلق بمشــكلة الطبقات • ونطالع فيه : « ليس فى مقدور طبقة العمال أن تضع يدها على جهاز من أجهزة الدولة وتديره فى سبيل أهدافها الخاصــة » • « يجب على البروليتاريا أن تسحق جهاز الدولــة القــديم • فبعد كل ثورة تمثل مرحلة اكثر تقدما فى صراع الطبقات ، كانت طبيعــة الردع الخالص فى

---

(١) البرجماتية : مذهب يرى ان معيار صدق الآراء والافكار انما هو فى قيمــة عواقبها عملا ، وله صور فى الفلسفة والدين والاخلاق والاجتماع .
«مجمع اللغة العربية»

(٢) السلطة التى قامت فى باريس بعد رفع حصار الالمـــــان ، وثورة ١٨ مارس ١٨٧١ ــ ثم سقطت فى ٢٨ مايو من الســنة نفسها فى أعقاب حصار جديد للعاصمة قام به الجيش النظامى التابع لحكومة تيير Thiers ــ المترجم

سلطة الدولة تبرز بصورة أشد وقاحة من ذى قبل • وثورة ١٨٣٠ التى انتهت بنقل الحكومة من أيدى ملاك الأراضى الى أصحاب رؤوس الأموال، نقلت الحكومة من أبعد خصـوم العمـال عنهم الى أقـرب خصـومهم المباشرين (•••) ومع ذلك كان لا بد للجمهوريين البورجـوازيين بعـد عملهم البطولى الوحيد فى شـهر يونية أن ينتقلوا من الصف الأول الى مؤخـرة « حـزب النظام » Parti de l'Ordre وهو تشـكيلة من جميع الأقسـام والعصابات المتنافسـة فى طبقـة المحتكرين فى عـداواتهم التى أصبحت الآن سـافرة ضـد الطبقـات المنتجـة • وكان الشـكل الخاص لحـكومتهم ، « حـكومة التوصـية » gouvernement en commandite هو الجمهورية البرلمانية ، وعلى رأسـها لوى بونابرت ؟ وكانت نظاما من الارهاب الصريح ، والسب العمدى الدنىء • وكان «الكومون» فى جوهره حـكومة طبقـة العمـال ، وثمـرة الصراع الطبقى بين المنتجين وطبقـة المحتكرين ، وأخيرا فهو الشكل السياسى المكشوف الذى كان يمكن معه تحقيق التحرر الاقتصادى للعمل » •

ويتجلى من هذه النصوص شكل من أشكال العودة الى المذهب المضاد لتدخل الدولة antiétatisme (لسان سيمون وبرودن) ؟ آية ذلك مصطلح « المنتج » نفسـه الذى يتردد فى قلم ماركس بدلا من مصطلح « البروليتير » • ويعتبر زوال الدولة أثرا مباشرا لاستيلاء طبقة العمال على السلطة ، الأمر الذى يضفى لونا خياليا مثاليا utopique على النصوص السالف ذكرها • وعنصر « التبرير » رغم أننا نفهم مناسبته لتلك الظروف، الا أنه يضعف بعض الشىء التفسير الحقيقى لهزيمة عمال باريس • وكان قسم كبير من أعضاء الكومون من أنصار « برودون » • ولم يذكر ماركس ذلك ، ولكنه يكرمهم بطريقـة غير مبـاشرة اذ يتبنى طريقتهم فى التفكير وأسلوبهم •

نستطيع الآن أن نتناول المجمـوعة الثالثة من أعمـال ماركس التى

يعالج فيها مشكلة الطبقات الاجتماعية ؟ تلك هي أساسا كتاب « رأس المال » بأجزائه الثلاثة • ولا تهمنا الصفحتان أو الثلاث صفحات الأخيرة من الجزء الثالث من « رأس المال » كما ذكرت من قبل ، لأنها ليست الا ترجمة لفقرة من « ريكاردو » تميز بين ثلاثة أنواع من الملكية والأرباح : ملكية قوة العمل ، وملكية رأس المال ، وملكية الأراضى ، وفى مقابلها : الدخل الناشىء اما من الأجر ، أو من الربح بمعناه الحقيقى ، أو من الايراد • ولكنا سوف نحصل على الشىء الكثير من مجموع التحليل الذى قام به ماركس لوظيفة رأس المال باعتباره نظاما اقتصاديا وباعتباره ، بدرجة أوسع ، نمطا من البناء الشامل •

وينبهنا ماركس فى مقدمة الطبعة الثانية الألمانية لكتاب « رأس المال » (١٨٧٢) (١) الى أنه « طالما كان الاقتصاد السياسى بورجوازيا ، أى أنه لا يرى النظام الرأسمالى مرحلة وقتية فى التقدم التاريخى ، وانما يراه الصورة المطلقة والنهائية للانتاج الاجتماعى ، فانه لا يمكن أن يظل علما من العلوم الا اذا استمر الصراع بين الطبقات مستترا ، أو لم يظهر الا فى حالات فردية منعزلة » • على أن من الأهداف الرئيسية لكتاب « رأس المال » تبيان أن هذا الصراع يزداد ضراوة فى النظام الرأسمالى ، وأن الاقتصاد السياسى لا يمكن أن يبقى علما من العلوم الا اذا قام على وصف اجتماعى للموقف بأكمله يتنبأ بنهاية النظام الرأسمالى • ويختم مقدمة الجزء الأول (الطبعة الثانية الألمانية) مبينا أن : « البورجوازى العملى يستشعر حركات المجتمع الرأسمالى المتناقضة بأوضح ما يكون بفضل تطورات الصناعة الحديثة خلال دورتها التى تبلغ ذروتها مع الأزمة العامة » •

ونجد فى الجزء الأول المخصص « لقضية انتاج رأس المال » وصفا تاريخيا لتشكيل البروليتاريا ، ووصفا اجتماعيا اقتصاديا للنزاع الذى

---

(١) صدرت الطبعة الاولى للجزء الاول فى عام ١٨٦٧ •

لا مفر منه بين البروليتاريا والطبقة البورجوازية ، وكذا بعض الاشارات الى جماعة خاصة من « المنفذين المشرفين » • واستعرض ماركس فى فصول طويلة بالقسم الرابع من الجزء الأول (ويقابل الكتاب الثالث من ترجمة « موليتور ») المشقة الكبيرة التى تكبدتها البروليتاريا الحديثة من أجل تكوينها ؛ « نشأة عنيفة قام بها (بآلام رهيبة) (•••) نظام دموى طرد الفلاحين من أراضيهم بأن حولهم بالقوة الى طبقة من الأجراء ، وعمل قذر قامت به الدولة بزيادة تكديس رأس المال معدرجة استغلال العمل »• فالمصدر الأول لرأس المال هو العنف والقوة وانكار الملكية الخاصة بأولئك الذين يصبحون عمالا •

ويستمر نزع ملكية العمال الكادحين مع تطور الصناعة الآلية الحقيقية ، ذلك لأن « شرط الأسلوب الرأسمالى فى الانتاج وتكديس المال ، وبالتالى الملكية الخاصة الرأسمالية ، هو محو الملكية الخاصة القائمة على العمل الشخصى ، أى نزع ملكية العامل » • وتستهدف نظرية ماركس فى شأن فائض القيمة (Mehrwert) ـ الذى يتميز من السعر ومن القيمة السارية ـ اثبات أن الطبقة البورجوازية لا يمكن أن يكون لها وجود الا باستغلال طبقة العمال ، اذ تسلبها فائض القيمة ، وهو ناتج العمل الجماعى ، فتنزع ملكيتها فى شكل ربح هو هدف كل مشروع رأسمالى• « يشترى صاحب رأس المال قوة العمل ، وبذلك يضم العمل ، وكأنه خميرة حية الى العناصر الميتة التى يمتلكها بالفعل والتى لا بد أن تسهم فى تشكيل الانتاج » • « ما أن يدخل العمال فى مضمار العمل بصفتهم أجراء ، حتى يصبحوا فى نظر صاحب رأس المال جزءا من رأس المال »• « طبقة العمال ، من الوجهة الاجتماعية، وحتى خارج نطاق العمل المباشر، ليست الا بديلا من رأس المال ، مثلها مثل أى أداة أخرى من أدوات العمل » ، ولهذا فان « الاقتصاد التقليدى لا يرى فى العامل الكادح (•••) سوى آلة لانتاج فائض القيمة » • وتأتى هذه النتيجة بفضل يوم العمل الطويل ، والأجور الشديدة الانخفاض ، وقوة الانتاج المتزايدة بحيث

يستنزف العامل كل قواه • « فى المجتمع الرأسمالى ، لا يتأتى لطبقة ما أن تظفر لنفسها بأوقات فراغ الا باجبارها النـاس على أن يكرسوا للعمـل حياتهم كلها » •

ويهاجم ماركس ابتداء من الفصول الأولى لكتـاب « رأس المال » الاعتقاد الخرافى فى منتجات العمل المتحـولة الى سلع : « تتخذ العـلاقة الاجتماعية القائمة بين الناس فى نظرهم شـكلا خياليا لعلاقة بين أشياء : هذا هو ما أسميه التميمية [1] التى تلتصق بمنتجات العمل بمجرد أن تصبح سلعا ، فلا تنفصل بالتالى عن انتاج السلع » • فنتاج العمـل يتحـول الى هيروغليفية اجتماعية • وبمرور الزمن يحاول الناس أن يكشفوا عن معنى هذه الهيروغليفيات ، « ويتعمقوا سر انتاجهم الاجتماعى » • « الانسـان فى النظام الرأسمالى يسيطر عليه اسلوب الانتاج بدلا من أن يسيطر هو عليه » • ومن ثم فان الاقتصاد التقليدى لا يرى فى العـامل وحده « بل أيضا فى صاحب رأس المال شيئا سوى آلة تحول فائض القيمة الى رأس مال اضـافى » • ومع ذلك فليس العـامل ولا صاحب رأس المـال ، بل ولا الطبقات التى ينتميان اليها أشياء أو تجريدات اقتصادية : فكل هؤلاء كائنات حية ، وجماعات اجتمـاعية متنازعة ، لها رغائبها ومخاوفها وآلامها ومتعها ومداركها الطبقية وايديولوجياتها » •

« مزقت الصـناعة الكبرى الحجاب الذى كان يخفى عن النـــاس أسلوبهم الخاص فى الانتاج » فلم تعد الصناعات المتنوعة والعلاقات القائمة بينها ، وما يحدث بالفعل فى داخل كل منها سرا من الأسرار • « لا تعتبر الصناعة الحديثة الشكل الحالى لعملية انتاجية شـكلا نهائيا ولا تعالجه أبدا بهذه الصفة • فأساس الصناعة الحديثة اذن ثورى ، فى حين أن أساس وسائل الانتاج السـابقة كلها كان فى جـوهره محافظا » • « لا تستطيع

---

(١) التميمية fétichisme : عبادة التمائم — ومجازا : تبجيل شىء ما تبجيلا مفرطا لدرجة الاعتقاد الخرافى فيه — المترجم •

البورجوازية أن تعيش دون أن تحدث دواما انقلابا فى وسائل العمل داخل ظروف الانتاج ، وبالتالى فى جميع العلاقات الاجتماعية (٠٠٠) • تتلاشى كل الأنظمة المستقرة التليدة مع حاشيتها من الأفكار والمفاهيم الموقرة بسبب قدمها ؛ وتصبح كل الأنظمة الجديدة قديمة قبل أن تتوطد » • « وتهدم الآلية أيضا رأسا على عقب ذلك الوسيط الشكلى بين صاحب رأس المال والعامل ، الا وهو العقد » •

النظام الآلى يحول المصانع الى ثكنات حقيقية ، يخضع فيها العمال دون رضاهم لأوامر أصحاب العمل أو نوابهم الذين يمارسون سلطتهم على البروليتاريا • « فى الواقع العملى ، تخضع سلطة صاحب رأس المال ، أى قوة ارادة خارجية ، نشاط العمال لغايتها • ومن ثم فانه اذا كانت الادارة الرأسمالية فى أساسها مزدوجة ، لأن هذا الازدواج من طبيعة العمل الذى تديره ، فهى من ناحية عمل اجتماعى يستهدف الانتاج ، ومن ناحية أخرى تسعى الى استثمار رأس المال ، فانها (أى الادارة الرأسمالية) استبدادية من ناحية الشكل • وكلما نما التعاون على نطاق أوسع ، اتخذ هذا الاستبداد أشكالا خاصة » •

وفضلا عن ذلك : « زالت راحة العامل ، وزال كل استقرار وأمان فى وضعه » ؛ ومن ثم يعيش العامل الكادح تحت تهديد مستمر بأن « صاحب رأس المال ، بعد أن انتزع منه وسائل العمل ، سوف ينتزع منه وسائل المعيشة » • وعلى هذا فان جيش الاحتياط الصناعى الذى يتمثل أقصى مظهر له فى جيش المتعطلين « يزداد جسامة كلما تضخمت الثروة الاجتماعية ، ورأس المال المستثمر ، ومدى نموه وطاقة هذا النمو ، وبالتالى الحجم المطلق لطبقة البروليتاريا (٠٠٠) • وكلما ازداد عدد جيش الاحتياط هذا بالنسبة الى جيش العمال القائمين فعلا بالعمل ، ازداد تعداد فائض السكان الذين تتناسب تعاستهم تناسبا عكسيا مع عملهم » •

فاذا استندنا الى هذه النصوص ، بدا لنا أن التصنيع والرأسمالية ــ

اللذين ظهرا فى القرن السابع عشر ، كانا يشكلان البيئة التى نشأت فيها البورجوازية والبروليتاريا ، طبقتين وصلتا الى حد ادراك دورهما القوى فى الانتاج ومصالحهما المتضاربة • أليس هذا بالمثل هو النظام الوحيد الذى تتكون فيه طبقات بالمعنى الصحيح ؟ اذا كان هذا هو الاتجاه الفعلى لتفكير ماركس ، فانه سوف يتأكد لنا فى الجزء الثانى من كتاب « رأس المال » • ولكن لنذكر قبل أن ننتقل الى هذا الجزء ، تحليل الدور الذى تقوم به جماعة الوسطاء من المشرفين ، وهى التى سوف تظهر فى الجزء الثالث من كتاب رأس المال • ففى هذا يتحدث ماركس عن السلطة والقوة والاستبداد الذى تمارسه جماعة أصحاب الأعمال فى المصانع ، وهى ظاهرة تتأتى من أن العمل الذى يؤدى على نطاق واسع يستلزم ادارة واشرافا ، فيذكر ماركس أنه « يتولى فريق خاص من الأجراء الاشراف المباشر الدائم على العمال ، فرادى أو جماعات » • « وكما هو الحال فى الجيش ، تحتاج مجموعة من العمال الذين يشتغلون لحساب رأس مال واحد الى نفر من كبار الضباط (وهم المديرون) وصف الضباط (من مشرفين ورؤساء عمال) يقومون فى مراحل العمل بالقيادة نيابة عن رأس المال ، وتصير مهمة الاشراف وظيفتهم الوحيدة » •

هؤلاء الناس أجراء فى خدمة رأس المال ـ الذى يحتفظ « بالكلمة العليا فى الصناعة » أو بتعبير آخر هم وكلاء رأس المال التنفيذيون • فهل من الضرورى أن ينضموا الى الطبقة البروليتارية ؟ أو الى الطبقة البورجوازية ؟ أم انهم يمثلون طبقة وسطى ، أو طبقة جديدة فى دور التكوين ؟ لا يقول لنا ماركس شيئا عن ذلك فى الجزء الأول من كتاب رأس المال ؛ وسوف نرى فى الجزء الثالث أنه يتخذ بالأحرى الاتجاه الأخير اذ يستشعر احتمال ظهور الطبقة التكنو بيروقراطية •

وصدر الجزء الثانى من كتاب « رأس المال » المكرس لعملية التداول ، فى عام ١٨٨٥ بفضل اهتمام انجلز (فقد توفى ماركس عام

١٨٨٣) • ويحتوى هذا الجـزء على قدر من النصـوص المتصلة مباشرة بمشكلة الطبقات يقل عن الموجود منها فى الجزء الأول • ونجد فيه الطبقة البروليتارية وقد ضمها الرأسمالى الى رأس المال المتغير والمتداول • كتب ماركس : « لا تستطيع طبقة العمال التى لا بد أن تعيش يوما بيوم أن تمهل طويلا أصحاب رؤوس الأموال الصناعية (•••) ويجب أن يدفع رأس المال المتغير مقدما فى شكل نقود لمدد قصـيرة نوعا ما » • « لا توجد الا طبقتان : طبقة العمال التى لا تملك سـوى قوة العمل ، وطبقـة أصحاب رؤوس الأموال التى تحتكر المال ووسـائل الانتـاج • ومما يخرج عن المألوف أن نرى طبقة العمال تقدم (•••) مما تملكه المال اللازم لتحقيق فائض القيمة الموجود فى السلع » •

ويحتج ماركس ضـد كل محـاولة لتمويه صراع الطبقـات الذى يتجلى فى تداول رأس المال نفسه • كتب يقول « عندما ننظر من الوجهة الاجتماعية الى الانتاج الكلى الذى يشمل تجدد رأس المال الاجتماعى وكذا الاسـتهلاك الفـردى ، لا يصح أن نقع فى الخطأ الذى يرتكبه رجـال الاقتصاد البورجوازى (•••) فنعتقد أن مجتمعا رأسـمالى الانتـاج يفقد طبيعته الاقتصادية والتاريخية المتميزة اذا اعتبرناه فى جملته ككل• انما الأمر على العكس من ذلك تماما ؛ فانا نكون عندئذ بصدد رأس المال الكلى الذى يبدو كأنه رأس المال المكون من اسهم جميع الرأسماليين مجتمعين• وهذه الشركة المساهمة تشبه الكثير من غيرها من الشركات المساهمة من حيث أن كل مساهم يعلم مقدار ما يسـهم به فى الشركة ، لا ما يحصل عليه منها » • ثم ان تكدس رأس المال ــ الذى يتدعم بقوة بفضل الظواهر التى تميز تداوله ــ انما يسـهم فى نمـو النزاع الطبقى بين البروليتـاريا والبورجوازية •

ماركس (خاتمة) ، انجلز ، كوتسكى ، لينين

قمت فى الدرس الأخير بتحليل المعانى العديدة لكلمة «ايديولوجيا» ، وحاولت بعدها أن ألخص الحركة الفكرية لدى ماركس فى صدد الطبقات الاجتماعية فى الجزئين الأولين من كتاب رأس المال ، الخاصين « بعملية انتاج رأس المال » و « تداول رأس المال » . واقتبست بصفة خاصة الفقرات التى يتضح منها أن ماركس كان يفضل رؤية الطبقات متمثلة على الأخص فى شكل البروليتاريا والبورجوازية (التى ظهرت ابتداء من القرن السابع عشر) ، وأنه لم يسلم من القلق من ناحية « جماعة المشرفين » ، وأنه كان يستند الى تكدس رأس المال ليزيد من حدة النزاع بين الطبقات .

أما الجزء الثالث الذى عالج فيه العملية الاجمالية للانتاج الرأسمالى ، فقد تولى انجلز اصداره فى عام ١٨٩٤ (بعد وفاة ماركس باحدى عشرة سنة) . ويحاول ماركس فى هذا الجزء أن يثبت أن تركيز رأس المال ونمو التصنيع لا يستطيعان استبعاد الاتجاه نحو هبوط الربح . ويعزى هذا الهبوط الى ضرورة استثمار الأموال المتزايدة باطراد فى قطاع وسائل الانتاج ، وتحديد الأسواق بعد تقسيمها بين الدول الكبرى فى غضون التوسع الاستعمارى ، والى أزمات دورية متزايدة الحدة باطراد ، وتطور الحركة العمالية ، وأخيرا الى التنافس بين رأس المال الصناعى ، ورأس

المال المالى ، ورأس المال التجارى ـ فهذه الأشكال من رأس المال ومن الربح تتصارع كلها مع الدخل العقارى • ويرى ماركس أن هذا التطور يؤدى باطراد الى تعزيز التناقضات الداخلية فى النظام الرأسمالى : فيتجه هذا النظام بصورة جلية نحو انفجار ثورى يقترب أوانه دواما ودون تمهل • « ان الحدود التى يمكن بل ويجب أن يتحرك بداخلها تركيز وتشغيل قيمة رأس المال التى تعتمد على نزع ملكية الجمهور الكبير من المنتجين وافقارهم ، هذه الحدود تتنازع دواما مع أساليب الانتاج التى يجب أن يستخدمها رأس المال لبلوغ أهدافه ، والتى تتغيا زيادة الانتاج زيادة لا حد لها (•••) وتطور الانتاجية الاجتماعية للعمل تطورا مطلقا • وتتنازع هذه الوسيلة الأخيرة بصفة دائمة مع الهدف المحدود الذى يستهدفه استثمار رأس المال الموجود• واذا كان أسلوب الانتاج الرأسمالى اذن وسيلة تاريخية لانماء قوة الانتاج المادية وخلق السوق العالمية المقابلة لها ، فانه فى الوقت ذاته يتناقض دواما بين رسالته هذه (•••) وبين ظروف الانتاج الاجتماعى المقابلة » • وزيادة على ذلك يتجلى التناقض المتزايد دواما « بين القدرة الاجتماعية العامة التى يكونها فى النهاية رأس المال وبين قدرة كل رأسمالى على التصرف فى ظروف الانتاج الاجتماعية هذه » •

ويصدق هذا النظر بدرجة أكبر بالنسبة الى وضع العمال الكادحين• ففى الانتاج الرأسمالى ، يجد جمهور المنتجين المباشرين أمامهم الخاصية الاجتماعية للانتاج فى صورة سلطة شديدة التدقيق ، وجهاز اجتماعى منظم ومدرج على أكمل وجه ؛ غير أن هذه السلطة لا تنتمى الى أصحابها الا لأنهم يمثلون ظروف العمل (•••) وليس لأنهم السادة السياسيون أو أرباب الخبرة الفنية ، كما كان الأمر مع أساليب الانتاج القديمة • وتشيع الفوضى بأكمل صورها بين ممثلى هذه السلطة ، من الرأسماليين ، وأصحاب السلع •

وتنقسم البورجوازية نفسها الى عدة طبقات ، أو « طبقات فرعية » أو « أقسام » حسبما أبانت قبلا أعمال ماركس التاريخية : بورجوازية صناعية ، ومالية ، وتجارية ، وهى تقابل الأنواع الثلاثة لرأس المال التى ورد وصف النزاع القائم بينها فى الجزء الثالث من كتاب رأس المال . ويتدعم هذا الموقف بظهور جماعة خاصة من المديرين الاداريين الأجراء ، وهم الأعضاء التنفيذيون للسلطة الآمرة التى يتمتع بها أصحاب العمل فى المصنع .

ويعود ماركس الى هذه المشكلة فى الجزء الأخير من كتاب رأس المال فيقول : « يفترق أجر المدير أولا عن الربح ، ويتخذ صورة الأجر المخصص للعمل البارع ، وذلك عندما يجرى الاستثمار على نطاق واسع بدرجة كافية تتيح دفع أجر هذا المدير ، رغم أن الرأسماليين لا يشغلون أوقات فراغهم بمزاولة ... الفلسفة » . « يبدو أجر الادارة بالنسبة الى المدير التجارى ، والمدير الصناعى ، كما لو كان متميزا تماما من ربح المتعهد entrepreneur فى جمعيات التعاون العمالى للانتاج ، وكذا فى المشروعات الرأسمالية المساهمة . ومع ذلك فان هذا التميز يتخذ فى هذه الحالة سمة التعارض ، لأن المدير يحصل على أجره من العمال بدلا من أن يمثل رأس المال فى مواجهتهم » . وعلى العكس من ذلك فان « المشروعات المساهمة التى تنمو بالائتمان ، تنزع بصورة متزايدة الى جعل العمل الادارى وظيفة متميزة عن ملكية رأس المال المقترض أو غير المقترض . ويحدث فى هذا الشأن ما قد حدث من قبل للوظائف القضائية أو الادارية التى كانت فى العهد الاقطاعى تنتمى الى الملكية العقارية ، ثم فصلها عنها النظام البورجوازى . فمن ناحية يجد الرأسمالى العادى ، أى الممول ، نفسه فى مواجهة الرأسمالى صاحب الوظيفة . ومع تطور الائتمان ، يكتسب رأس المال النقدى صفة اجتماعية ، ويتركز فى البنوك ، فلا يقرضه مالكه للغير . ومن ناحية أخرى يتولى المدير العادى (الذى لا يملك رأس المال بأية صفة كانت) كل الوظائف ؛ ولا يبقى اذاً غير

« الموظف » ، أما صاحب رأس المال الذى يغدو شخصا زائدا عن الحاجة، فانه يختفى من عملية الانتاج » • ويعارض ماركس فى فقرة أخرى التقسيم الطبقى وفقا للدخول ، لأن الأطباء مثلا والموظفين ينتمون حينئذ الى طبقات مختلفة •

ولعلنا تتساءل عما اذا لم يكن ماركس فى أيامه الأخيرة قد جال بخاطره فكرة احتمال تكون طبقة اجتماعية جديدة من الجماعة التكنو بيروقراطية (الموظفين الفنيين) ، وأنه أشار بحذر الى أنه ليس من المستبعد أن تدخل هذه الجماعة ، عند بلوغ الرأسمالية ذروتها ، فى صراع مع كل من الطبقتين البورجوازية والبروليتارية •

ولا بد هنا من أن نولى اهتماما خاصا الى الفقرة التى جاءت فى كتاب « لوى بونابرت والثامن عشر من برومير » (وقد ذكرتها فى درسى الرابع) والتى نبه اليها لينين بصفة خاصة فى كتاب « الدولة والثورة » • فقد أوضح لينين أن ماركس نفسه قد نوه فى خطابه المرسل الى كوجلمان Kugelman فى ١٢ أبريل ١٨٧١ بأهمية الجهاز البيروقراطى العسكرى ــ الذى تحيط به الدولة البورجوازية نفسها ، والذى سوف تضطر البروليتاريا الى تحطيمه بالثورة الاجتماعية ، مع بناء جهازها البيروقراطى ــ ولو بصفة مؤقتة ــ من أجل « الدولة البروليتارية » • ولنذكر هذا النص : « السلطة التنفيذية بتنظيمها البيروقراطى والعسكرى الهائل ، وجهازها الحكومى المعقد والمصطنع ، وجيشها من الموظفين (•••) وجيشها الآخر (•••) من الجنود ، جسم طفيلى مخيف يغطى كالغشاء بدن المجتمع الفرنسى ، ويسد مسامه كلها • هذه السلطة تكونت فى عصر الملكية المطلقة ، مع أفول عهد الاقطاع الذى ساعدت على قلبه » (لوى بونابرت والثامن عشر من برومير) • ولم يكن من شأن الثورة الفرنسية الأولى ، ونابليون ، ثم ملكية شهر يوليه ، وأخيرا الجمهورية البرلمانية الا انجاز هذا الجهاز ودعمه • ويستمر ماركس : « لم يكن من شأن هذه

الثورات السياسية كلها سوى دعم هذا الجهاز بدلا من تدميره (...) •
غير أنه فى عهد الملكية المطلقة ، وخلال الثورة الأولى ، وفى عهد نابليون،
لم تكن البيروقراطية سوى وسيلة لاعداد سيطرة الطبقة البورجوازية •
وكانت البيروقراطية فى فترة عودة الملكية، وعهد لوى فيليب، والجمهورية
البرلمانية أداة الطبقة الحاكمة ، رغم محاولتها لأن تقيم من نفسها سلطة
مستقلة » • ومع ذلك رفعت هذه الجماعة البيروقراطية رأسها فى عهد
بونابرت الثانى • واذ يشير ماركس فى الجزء الأخير من كتاب رأس المال
الى ظهور المديرين والموظفين الاداريين والمشرفين فى الصناعة الكبرى ،
فانا نتساءل عما اذا لم يكن فى مقدور كل هذه الجماعات أن تتصل بعضها
ببعض ، أو اذا لم يكن فى استطاعة هذه الطبقة المفترضة أن تستقل
استقلالا جزئيا أو كليا حتى فى غضون دكتاتورية البروليتاريا • وعلى أية
حال فانا نرى أن بورنهام Burnham لم يخترع شيئا بالمرة : فهو
انما نسج على منوال فقرات ماركس هذه ، والكثير من نصوص سان
سيمون ، فضخمها وشوهها •

أما بخصوص ماركس ، فمن الواضح أن مفهومه عن الطبقات فى
« رأس المال » كان شبيها بمفهومه عنها فى مؤلفاته الاجتماعية الفلسفية
والتاريخية ، مفهوما غير ساذج • فالواقع أن التحليل الاقتصادى الحقيقى،
وبالتالى الأكثر اتساما بالواقعية ، يكشف بالمثل عن وجود العديد من
الطبقات ، الفرضية على الأقل ، فى داخل النظام الرأسمالى ، وظهور الوعى
الطبقى والايديولوجيا ، متزاحمة أحيانا مع الدور الذى تلعبه الطبقات فى
الانتاج • وتجلى أخيرا فى هذا العمل اكثر من أى نص آخر أن وجود
الطبقات وتنازعها لم يتأكد عن يقين تؤيده الحقائق العلمية الثابتة الا ابتداء
من ظهور مرحلة المانيفاتورة [1] manufacture الرأسمالية ، وعلى
الأخص الاستخدام الآلى فى الصناعة •

---

(1) حدث الانتقال لهذه المرحلة ، السابقة على مرحلة الصناعة الآلية ، بولادة
الورش والمعامل والمشاغل التى تجمع فيها العمال الحرفيون بواسطة رأس المال عن طريق=

ولا يتبقى لنا فى ختام تحليلنا لنصـوص ماركس المتعلقة بالطبقـات الاجتماعية سوى أن نذكر « نقده لبرنامج جوتا Gotha » (١٨٧٥) الذى أبرزته بصفة خاصة تعليقات ومجادلات لينين ، وفيه يثبت ماركس أنه لم يزل مخلصا لنظريته الاجتماعية أيام شبابه ، والتى تتكهن باختفاء كل من الطبقـات الاجتمـاعية والدولـة فى وقت واحـد • ويقيم ماركس بعض الاعتراضات على صيغة البرنامج الذى يفرض الأجـر وفقا لمبدأ الانتـاج الكامل للعمل • ويوضح ماركس أن مثل هذا التقسيم مستحيل فى النظام البورجوازى ، بل وأيضا فى نظام دكتـاتورية البروليتـاريا الانتقالى وهو نوع من الدولة لا بورجوازى ولا مسـاواة فيه • وكتب ماركس خاصـة يقول : « بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى فترة تحول ثورى من المجتمع الأول الى الثانى ، تقابلها فترة انتقال سـياسى لا يمكن أن تكون الدولة أثناءه سوى دكتاتورية البروليتاريا الثورية » • ويصر ماركس فى مذكرات خطية دونها بيده على كتاب « الدولة والثورة » لخصمه «باكونين» Bakounine وعثر عليها منذ وقت قريب ، على أن « دكتاتورية البروليتاريا هى سيطرة طبقة العمال على مخلفات العالم القديم التى تقاومها ، وسـوف تستمر الى أن يتم تدمير القواعد الاقتصادية لوجود الطبقات • ومعنى هذا أنه طالما بقيت طبقات أخرى ، وخاصة الطبقة الرأسمالية ، وطالما تصارعت البروليتاريا مع هذه الطبقات (لأنه ليس من أثر تولى البروليتاريا السلطة أن يختفى خصومها أو النظام الاجتماعى القديم) فانها ــ أى البروليتاريا ــ لا بد أن تستخدم وسائل العنف ، لأن العنف من وسـائل الحكم » • (محفوظات ماركس وانجلز ١٩٣٢ ، الجزء الرابع) •

يقول ماركس ، فى « نقد برنامج جوتا » ان هذا الأمر يتضمن بالمثل عدم المساواة فى الأجر ، ذلك لأن الانتاج غير المتساوى ، بسبب أن « أحد الأفراد يفوق الآخر فى الجسم أو العقل » ، لا يمكن قياسه بمعيار واحد

= (أ) تجميع العمال الذين يزاولون حرفا مختلفة لصناعة سلعة معينة تتطلب تعاونهم أو (ب) تجميع العمال الذين يزاولون حرفة واحدة وتجزئة العمل بينهم (المراجع) •

فى المرحلة الأولى من المجتمع الشيوعى • ولا بد أن يحصل المفكرون والموظفون والأخصائيون على أجر أفضل من سواهم من العاملين • ولكن ماركس يهدأ نفسا فيقول انه « فى مرحلة عليا من مراحل المجتمع الشيوعى ، حينما تختفى التبعية الذليلة فى تقسيم العمل ، وتختفى معها المقابلة بين العمل العقلى والعمل اليدوى ، ولا يكون العمل بعد ذلك مجرد وسيلة للتعيش ، وانما يصبح أول مطالب الحياة ، وتنمو قوى الانتاج مع تطور الأفراد فى جميع الاتجاهات ، وتنبثق جميع الثروات الجماعية ـ عند هذا فقط يمكن تخطى الأفق البورجوازى الضيق تخطيا تاما ، ويدون المجتمع على أعلامه : « من كل انسان حسب قدراته capacités ولكل انسان حسب حاجاته » • نشهد اذن لدى ماركس ، بالنسبة الى المرحلة الوسطى بين الرأسمالية والشيوعية التامة التطور ، انبثاق مشكلة الطبقة التكنوبيروقراطية •

اعتقد أنه من المفيد ، قبل الشروع فى اجراء نقد شامل للمفهوم الماركسى عن الطبقات الاجتماعية ، أن نستعرض ما أسهم به الماركسيون وخاصة انجلز ولينين وبوخارين ولوكاش ـ فأعمال غيرهم أقل أهمية من أعمالهم فى هذا الصدد ؛ هذا بخلاف بعض الاعتبارات الخاصة بهلفردنج، وعلى الأخص بروزا لوكسمبرج فى شأن رأس المال المالى ، وبالتالى البورجوازية المصرفية • ومع ذلك فسوف أهتم أيضا بنظريات الاصلاحى « برنشتين » ، والأرثوذكسى « كاوتسكى » •

انجلز Engels

لا نجد عند انجلز الذى كان على الأخص مساعد ماركس المخلص ومروج أعماله ، سوى بعض الايضاحات التكميلية فى مشكلة الطبقات . ففى كتابه بعنوان « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (١٨٨٤) ، كتب يقول : « ليس للدولة وجود أبدى ، فثمــة مجتمعات كانت فى غنى عنها (...) . وفى درجة معينة من درجات التطور الاقتصادى ، ارتبطت بالضرورة بانشقاق المجتمع الى طبقات ، جعل هذا الانشــقاق من الدولة شيئا ضروريا » والدولة « نتاج المجتمع الذى بلغ درجة معينة من التطور ، وتشهد بأن هذا المجتمع مضطرب لأنه يتناقض مع نفسه تناقضا لا حل له ، اذ انقسم على نفسـه فى منازعات لا يخمد لهـا أوار ، ولا قدرة له على درئها . غير أنه لكى لا تهلك الطبقـات المتنازعة ذات المصـالح المتعارضة بعضها بعضا (هى والمجتمع) فى ضروب عقيمة من الصراع ، أصبح من اللازم أن تضطلع سلطة تسمو فى الظاهر على المجتمع ، بتخفيف حـدة النزاع وحصره فى حدود « النظام » . هذه السلطة النابعة من المجتمع ، والتى تريد مع ذلك أن تتخذ مكانها فوقه ، وتنفصل منه اكثر فأكثر ، هى الدولة » . « ولما كانت الدولة قد نشأت من الحاجة الى القبض على زمام المنازعات الطبقية ، ولكنها فى الوقت نفسه ولدت وسط النزاع القائم بين هذه الطبقات ، فانها كمبـدأ عام دولـة الطبقـة الأقوى ، الطبقة صاحبـة السيادة الاقتصادية، وهى التى (...) تصير أيضا الطبقة المسيطرة سياسيا،

ومن ثم تستحوذ على وسائل جديدة لاخضاع واستغلال الطبقة المقهورة » •

« على أنه بالاستثناء من ذلك تمر فترات تكاد الطبقات المتصارعة تتوازن فيها بعضها مع بعض لدرجة أن الدولة تكتسب ، بصفتها وسيط فى الظاهر ، بعض الاستقلال الوقتى بالنسبة الى كل من هذه الطبقات • تلك هى حالة الملكية المطلقة فيالقرنين السابع عشر والثامن عشر، التى وازنت بين طبقة الأشراف والبورجوازية ؛ وكذا حالة البونابرتية فى الأمبراطورية الفرنسية الأولى ، وبخاصة فى الأمبراطورية الفرنسية الثانية ، التىاستغلت البروليتاريا ضد البورجوازية ، والبورجوازية ضد البروليتاريا • وأحدث نتاج من هذا النوع (•••) هو الأمبراطورية الألمانية الجديدة ذات الصبغة البسماركية ، حيث وضع الرأسماليون والعمال على كفتى ميزان ، يواجه بعضهم بعضا ، ويخدعهم فضلا عن ذلك الأشراف البروسيون الفاسدون من أجل مصالحهم الشخصية » •

وكانت هذه الفقرة الأخيرة هى التى استغلها كثيراً أنصار مذهب الاصلاح بمختلف مشاربه ، سواء منهم برنشتين « الملحد » أو «ببيل» أو كاوتسكى ، أو هلفردنج ، وهم « الأرثوذكس » بدرجة ما ، الذين يعتبرون أن الدولة الديموقراطية الحقة تستطيع على الأقل ، ان لم تؤد دور الحكم بين الطبقات ، أن تكون مركزا لتجميع السلطة الموزعة بين الطبقات • ومع ذلك فالأمر فى رأى انجلز ليس الا أوضاعا وقتية عارضة لا أهمية لها ، لأن اختفاء الطبقات والدولة أمر وشيك الحدوث » • انا نقترب الآن بخطوات واسعة من احدى درجات التطور فى الانتاج التى لم يعد وجود هذه الطبقات فيها أمرا ضروريا ، فضلا عن أنه أصبح عقبة ايجابية فى سبيل الانتاج • وسوف تسقط الطبقات حتما مثلما ظهرت فى الوجود ، ولا مفر من أن تسقط معها الدولة • أما المجتمع الذى سوف ينظم الانتاج على أسس اتحاد حر متكافىء بين المنتجين ، فانه سوف ينقل جهاز الدولة كله الى حيث يكون مقره الدائم : فى متحف الآثار الى جانب المغزل والبلطة البرونزية » •

ويبدو أن انجلز لا يلحظ أية صعوبة خاصة بالنسبة الى فترة الانتقال ، على العكس فى ذلك من ماركس . وكلما تقدم ماركس فى العمر ، بدا ميله الى تحديد وجود الطبقات فى نمط المجتمع الرأسمالى والصناعى ؛ فى حين يبدو انجلز وكأنه يصادف طبقات فى كل مكان (الا فى المجتمعات العتيقة) ويرسم فى قريحته معادلة بين مفاهيم الطبقة ومفهوم الدولة . كتب فى ذلك « هكذا كانت الدولة القديمة قبل كل شىء دولة ملاك العبيد ، تبقيهم فى نير العبودية ؛ كما كانت الدولة الاقطاعية عدة الأشراف لاخضاع الفلاحين عبيد الأرض والتابعين؛ والدولة النيابية الحديثة أداة لاستغلال رأس المال للعمل المأجور » . ومن هنا خرجت « الماركسية السوقية » vulgaire التى تكتفى بنصوص البيان الشيوعى ولا تأخذ فى اعتبارها التمييز بين الطبقات الاجتماعية وبين الجماعات المتقاربة فى وضعها الاجتماعى ، فضلا عن الجماعات المفروضة وشبه المغلقة .

برنشتين Bernstein وكاوتسكى Kautsky

من بين الماركسيين الذين نشطوا بعد ماركس وانجلز ، كانت المناقشات بين برنشتين وكاوتسكى مركزا لاهتمام الناس بين سنة ١٩٠٠ ، ١٩٢٠ • ماثل برنشتين بين الطبقات الاجتماعية وبين المجموعات المتقاربة اقتصاديا ، وعلى الأخص المتميزة منها بالتماثل فى الثروة أو الأجر أو الدخل • وبعد أن حدد موقفه هذا أصبح من السهل عليه للغاية أن يثبت أن الطبقات الوسطى بين البورجوازية والبروليتاريا تنمو على الدوام ، وأن تطور الرأسمالية انما يدعم الديموقراطية ، وخاصة الدولة الديموقراطية التى تعلو على الطبقات وتستطيع بذلك أن تصلح نظام الحكم بأفضل الوسائل السلمية وفى اتجاه الجماعية collectivisme • أما كاوتسكى فانه على العكس من ذلك تمسك بالفرق بين الطبقات والمجموعات المرادفة للشرائح الطبقية strates والتى تتكون من باب أولى حسب تقسيمات الثروة • وذكر بحق أن وضع جماعة ما ودورها فى الانتاج هما وحدهما ، كما قال ماركس ، الخليقان بتقديم معيار التفرقة بين الطبقات، معيار يضاف اليه الوعى الطبقى والايديولوجيا • وميز فى هذا الصدد ثلاث طبقات : البورجوازية ، والطبقة المتوسطة ، والبروليتاريا (وضم الفلاحين الى فئة البورجوازية الصغيرة ، والتجار ، والفنيين) • ورأى أن بعض عناصر الطبقات المتوسطة يدور حول البورجوازية ، والبعض الآخر يدور حول البروليتاريا ، وأن طبقة ملاك الأراضى القديمة (والتى

كان يراها خاصــة فى مظهر الأشراف الريفين البروسيين hoberau سوف تنهار عما قريب •

ومع ذلك يتفق كاوتسكى مع برنشتين فى نقطتين هامتين ، دون أن يبدو عليــه ذلك فى وضــوح • النقطة الأولى هى زيادة أهميــة الطبقــة المتوســطة فى الفترة التى تبلغ فيها الرأســمالية ذروتهــا ، وليس تناقص أهميتها • « تتولد طبقة متوسطة جديدة فى داخل الطبقة المثقفة ، تخلقها من ناحية حاجات أسلوب الانتاج الرأسمالى ، ومن ناحية أخرى اختفاء الاستثمار الصغير ؛ طبقة متوسطة تنمو باستمرار فى العدد والأهمية بالنسبة الى البورجوازية الصغيرة ، ولكنها مع ذلك تقل قيمتها باطراد بعرض قوى العمل الذى ينمو دواما ، ومن ثم يزداد تذمرها باستمرار » (الاشتراكية والمهن الحرة ١٨٩٥) • وفى هذه الطبقة المتوسطة يؤدى جماعة المفكرين دورا خاصا ؛ فمنهم من يتجه عاجلا أم آجلا صوب البروليتاريا ، فى حين يتشبث آخــرون بالطبقــة البورجوازية ، وفى قدرتهم أن يدفعوا الطبقة المتوسطة كلها ضد البروليتاريا • ولما كانت الطبقة المتوســطة تزداد عددا وقوة باطراد ، فان هذا الأمر يشكل عقبة لا بد من الاهتمــام بها ، وهى خليقة بأن تؤخر قيام دكتاتورية البروليتاريا •

واعتبارا من هذه الملاحظة ، يصل كاوتسكى الى نتيجة ثانية تعتبر هى الأخرى انحيــازا الى برنشتين • ذلك أن الدولة تســتطيع فى النظام الديموقراطى بصفة خاصة ، وبالنظر الى أهمية الطبقة المتوسطة ، أن تغدو قوة محايدة تسيطر على كل من البورجوازية والبروليتاريا • وفى الامكان أن تؤدى الديمــوقراطيــة الســياسية التى تصرف شــئونها ببراعــة الى « الجماعيــة » Collectivisme طالما ظفر الحــزب الذى يمثل الطبقــة البروليتارية بالأغلبية فى البرلمان (وذلك بأن يضم الى مشروعاته قسما من الطبقة المتوسطة ، ويستغل تذمر هذه الطبقة التى يتهددها نمو البروليتاريا) واستخدم الدولة القائمة فى اجراء التأميــات بأســلوب سلمى • وهكذا

يفسر كاوتسكى « الدكتاتورية البروليتارية » التى لا يرى لهـا معنى فى أحداث القرن العشرين الا أنها مصطلح للدعاية . ولا يدل هذا المصطلح الا على مرحلة من مراحل الديموقراطيـة السـياسية التى تتقـدم نحـو الاشتراكية حينما تتمتع البروليتـاريا ، يعـاونها قسـم كبير من الطبقات المتوسطة ، بتأييد أغلبية الناخبين فى نطاق الأنظمة البرلمانية. وانا لا ندرى فى الحقيقة ، اذا ما سلمنا بهذا التفسير ، كيف يمكن أن تذوى الدولـة بعد ذلك . ويرى بعض الماركسـيين مثل سـولتزيف Solntzeff فى روسـيا ، وستراتشى Strachey فى الولايات المتحدة أن مفهوم الطبقات المتوسطة الذى أقره كاوتسـكى غير صحيح ، وأنه يجـدر العـودة الى نظرية الطبقتين (البورجوازية والبروليتارية) ، فهذا كمـا يقولون هو رأى ماركس الحقيقى .

لينين Lenine

تأتى هنا آخر مرحلة فى مناقشة مشكلة الطبقات فى المعسكر الماركسى ، وخاصة فى مؤلفات لينين وبوخارين ولوكاش . فلينين فى «الدولة والثورة» (الذى كتبه فى أغسطس ١٩١٧ ، أى قبل الاستيلاء على السلطة) وفى « الثورة البروليتارية وكاوتسكى المرتد » (نوفمبر ١٩١٨، أى بعد انقضاء سنة) يناقش نقطتين جوهريتين فى نظرية ماركس عن الطبقات الاجتماعية :

(ا) العلاقة بين البروليتاريا والدولة الديموقراطية .

(ب) عدد الطبقات وصراعاتها فى روسيا أثناء الثورة وبعدها مباشرة. ففيما يتعلق بالنقطة الأولى ، يحاول لينين ، منوها بماركس وانجلز أن يوضح أنه لم يكن ثمة وجود « للديموقراطية عامة » فى رأى الاثنين ، وانما هناك فقط « ديموقراطية بورجوازية » ، و « ديموقراطية بروليتارية » : فالدولة ، حتى ولو كانت أكثر الدول ديموقراطية ، تظل دواما هيئة نضال فى خدمة احدى الطبقات . « لا يمكن اذن ازالة الدولة البورجوازية حتى ولو كانت على أكمل ماتكون الديموقراطية البورجوازية الا عن طريق ثورة تقوم ضدها » . « من المستحيل استبدال دولة بروليتارية بالدولة البورجوازية دون قيام ثورة عنيفة » . ولا بد من اخضاع الموظفين والجيش ، لأنهم ينزعون كما ذكر ماركس الى تكوين

دولة داخل الدولة. « يجب تسليح العمال وتحويلهم الى جيش » . « لقد أخطأ الديموقراطيون الاشتراكيون الأوروبيون حين اعتبروا الدولة البورجوازية تنظيما لا يمكن التغلب عليه ، واتهموا بالفوضوية كل محاولة لايجاد أشكال سياسية أخرى » ، هى أشكال الديموقراطية البروليتارية ، أى المركزية المختارة طوعا ، التى تقيم الدكتاتورية البروليتارية عن طريق دكتاتورية الحزب الذى يمثلها . ويذكر لينين أن ماركس انتقد برنامج جوتا ، وانتقد انجلز برنامج ارفورت Erfurt ، وخاصة لأن هذه البرامج تؤكد أن الدولة الديموقراطية أو الدولة الشعبية تستطيع أن تضمن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ؛ ولكن فاتها أن الأمر فى ذلك انما يتعلق بالديموقراطية والدولة البورجوازية . ويعلن لينين فى صراحة حاسمة : « يجب التسليم بأنه من المستحيل تحطيم الدولة البورجوازية دون تحطيم الديموقراطية ، وأن فناء الدولة تبعا لذلك هو أيضا فناء الديموقراطية . ولا يعنى هذا أنه لا يمكن تكون ديموقراطية جديدة ، ولكن هذه الديموقراطية الجديدة لن تكون مرتبطة بالدولة ، لأن المجتمع الشيوعى فى المرحلة الختامية لن تكون فيه دولة أو طبقات. « الشيوعية هى القادرة وحدها على تحقيق الديمقراطية الصحيحة الكاملة ، المتناهية الكمال لدرجة أنه لن يكون ثمة حاجة اليها ، ومن ثم تتلاشى كما تلاشت الدولة » .

وحتى ذاك الأوان ، لا بد من تنظيم دولة دكتاتورية ، الأمر الذى لا يمكن عمله الا « بتسليح مجالس السوفيت كلها ، سوفيت العمال والجنود ، وتسليمهم السلطة » . « وحتى تحين اللحظة التى نصل فيها الى المرحلة القصوى من الشيوعية (التى توقعها ماركس) ، يجب على الشيوعيين أن يقتضوا من الدولة التى يتولون قيادتها الاشراف بأشد ما يمكن من الدقة على العمل والاستهلاك ؛ غير أن هذا الاشراف لا بد أن يبدأ بنزع ملكية أصحاب رؤوس الأموال، وبسط سلطة العمل، ويتحقق لا بواسطة دولة الموظفين وانما بواسطة دولة العمال المسلحين » .

« ولما كانت لكل دولة تنظيما منهاجيا للعنف ، وكانت الديموقراطية البورجوازية شكلا من أشكال الدولة البورجوازية فحسب ، فان الدولة البروليتارية ـ في أولى مراحل الشيوعية ، وهي دكتاتورية البروليتاريا التي يصير فيها كل المواطنين مستخدمين في الدولة ، دولة العمال المسلحين ـ سوف تمارس العنف ، ليس كما تمارسه الدولة الديموقراطية البورجوازية وانما بأسلوب آخر ، وبطريقة مباشرة » . وكلما أصبحت هذه الدولة أكثر ديموقراطية من قبل ، وقضت على الطبقات ، فانها أي الدولة ، وكذا الديموقراطية ، سوف تزول أهميتها ويختفيان من الوجود .

ونذكر ضمنا أنه يبدو أن لينين يربط مصير الديموقراطية بمصير الدولة ، دون أن يفكر في احتمال تنظيم الديموقراطية الصناعية التي يضطلع فيها العمال أنفسهم بادارة الاقتصاد المخطط ادارة مباشرة . ويبدو في الوقت نفسه أنه كثير التفاؤل بدرجة مفرطة بالنسبة الى درجة العنف التي يجب أن تلجأ اليه دكتاتورية البروليتاريا ، بعد أن تكون قد رفضت الضمانات التي تقدمها الديموقراطية البورجوازية . وقد ثبت من الوجهه التاريخية أن استخدام العنف أمر بالغ الأهمية .

وينتهي كتاب « الدولة والثورة » بجدل ضد نظرية « سيطرة الدولة » étatisme لكاوتسكي ، وهو جدل سوف يتناوله لينين ثانية في كتاب « الثورة البروليتارية وكاوتسكي المرتد » .

لينين (ختام) بوخارين ، لوكاش

انتهيت فى الدرس السابق بتحليل كتاب لينين « الدولة والثورة » ١٩١٧ • ويتهم لينين الماركسيين الألمان بأنهم لم يستطيعوا فهم الروابط القائمة بين الديموقراطية السياسية وبين الدولة البورجوازية ، كما لم يدركوا الخطر الكامن فى جماعة الفنيين البيروقراطيين التى تعمل فى خدمة هذه الدولة والتى تمثل دعامة قوية للطبقة البورجوازية • ولا تستطيع دكتاتورية البروليتاريا أن تحقق هدفها الا بتسليح العمال مباشرة ، وهدم البيروقراطية واحلال موظفين جدد محلها فى الدولة البروليتارية • وكتب لينين أيضا فى كتابه « الثورة البروليتارية وكاوتسكى المرتد » (١٩١٨) : « لم يفهم كاوتسكى الفرق بين النظام البرلمانى البورجوازى الذى يوحد الديموقراطية (التى ليست للشعب) والبيروقراطية (وهى ضد الشعب) ، وبين الديموقراطية البروليتارية التى سوف تعمل فوراً على اجتثاث جذور البيروقراطية ، والتى سوف تكون قادرة على محوها تماما » • والمشكلة فى نظر لينين هى ايجاد موظفين فى خدمة الدولة البروليتارية ليسوا من البيروقراطيين • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت الدولة السوفيتية قد تغلبت ، ولو بصفة جزئية على هذه الصعوبة الجسيمة • وعلى أية حال فانه من المهم أن نعلم أن مشكلة وجود طبقة تكنوبيروقراطية ـ أى ذلك « الرجل الثالث » بين البورجوازية

وبين البروليتاريا ـ قد أقض مضاجع كل من لينين وماركس ، رغم نصف القرن من الزمان الذى يفصل بنهما .

ولننظر الآن فى تحليل لينين للطبقات الاجتماعية فى روسيا فى كتابه ضد كاوتسكى ، وفى بعض كتاباته الأخرى ، والتصريحات التى يبرر بها سياسته . ولا بد من التنويه بأن تعريفه العام للطبقات الاجتماعية جاء مخيبا للآمال . فقد كتب لينين : « يطلق اسم الطبقات على مجموعات بشرية كبيرة تتميز بوضعها فى نظام تاريخى معين من الانتاج الاجتماعى ، وبالعلاقات بينها وبين وسائل الانتاج (وهى علاقات يحددها القانون فى الغالب) ، وبدورها فى التنظيم الاجتماعى للعمل ، وبقدرتها بالتالى على الحصول على نصيبها من الثروة ، كما تتميز بحجم هذه الثروة » (الأعمال الكاملة ، الجزء ١٧) . وما يلفت النظر فى هذا التعريف هو اغفاله الوعى الطبقى والايديولوجية الطبقية ، والفرق بين الطبقات الاجتماعية وسائر الجماعات ، كما يدهشنا ذلك المزيج من المعايير الاقتصادية المتنوعة التى من بينها درجة الثراء .

وينتقد لينين كتيب كاوتسكى « دكتاتورية البروليتاريا » (١٩١٨) الذى يحتوى على تقدير سلبى للثورة السوفيتية ، فيؤكد ثانية أنه يعتبر دكتاتورية البروليتاريا ، أو الديموقراطية البروليتارية أكثر ديموقراطية من أية ديموقراطية بورجوازية . كما يعتبر السلطة السوفيتية أكثر ديموقراطية من أية سلطة لأية جمهورية بورجوازية ، لأن سلطة السوفييت تحل فعلا حكومة العامل والفلاح محل حكومة المصانع التى يتولاها أصحاب رؤوس الأموال ، كما تحل المشروعات الزراعية محل ملاك الأراضى . ولا مفر للسلطة البروليتارية من التصرف والتحكم طالما كانت البورجوازية بالاشتراك مع الهيئة الادارية من الفنيين والعسكريين الذين يعملون فى خدمتها ، ويخلصون لها منذ عهد طويل ، لما تزل على الرغم من الثورة تحتفظ بمجموعة من الأوراق الرابحة ـ وبصفة خاصة بتشكيل معد اعدادا

عظيما لادارة شئون الدولة والمشروعات الاقتصادية ـ تستخدمها حتما فى دعم النظام البورجوازى • وعندما حرم أول دستور سوفيتى كل شخص يستخدم عمالا فى مشروع ما من حقوق الانتخاب ، فانه على العكس مما أكده كاوتسكى ، لم يحرم أغلب الفلاحين الروس من حقوقهم ، لأن الأغلبية الساحقة منهم لم تستخدم عمالا زراعيين بالمرة ، وانما كانوا يمارسون الاستغلال العائلى أو الجماعية الريفية Communautaire (مير Mir) (١) •

كتب لينين « ظفرت بالسلطة جميع الطبقات التى استغلتها البورجوازية، وهى البروليتاريا وعدة أقسام من طبقة الفلاحين » • ونحن نعلم أنه كانت فى روسيا ، ابان الثورة ، بخلاف ملاك الأراضى وأفراد البروليتاريا ، عدة طبقات من الفلاحين ، وبصورة أعم ، خليط من الطبقات الريفية • ويؤكد لينين فى هذا الكتاب أن البروليتاريا وجميع طبقة الفلاحين الفقراء قد تكتلت ضد البورجوازية والملاك العقاريين وأغنياء الفلاحين • وهكذا لسنا ، حسب هذا التحليل ، بصدد طبقتين فحسب ، وانما سبع طبقات ، نجح اثنتان منها ، بمساندة الطبقات المتوسطة ، فى قهر الطبقات الأربع الأخرى ، وهى : البورجوازيون ، وملاك الأراضى ، والكولاك (٢) والبيروقراطيون • ويرى لينين أن الطبقات المتوسطة تتشكل بالتحديد من أرباب الحرف وصغار التجار بالمدن من جهة (ويشكلون البورجوازية الصغيرة بالمدن) والفلاحين المتوسطى الثروة من جهة أخرى (seredniaks) • ويرى لينين أنه بالامكان ضم هاتين الطبقتين الأخيرتين الى قضية البروليتاريا وطبقة فقراء الفلاحين ، حيث أنهما لا يخسران شيئا فى تغيير النظام • وتكمن قوة السوفيت الثورية فى قدرتها على أن تعمل أداة للربط بين كل هذه العناصر لتكوين جبهة عريضة ضد الرأسمالية •

---

(١) المير ـ مقاطعة ريفية مستقلة فى روسيا ، وهى من صور الملكية الاقطاعية ـ المترجم

(٢) الكولاك ـ الفلاحون المستقلون الاثرياء • المترجم

ومن ثم قامت طبقة الفلاحين فى مستهل الثورة الشيوعية بمساندة مجالس السوفيت التى أعلنت عن المصادرة الفورية لأراضى كبار الملاك . ولكن ما لبث الفلاحون الكولاك أن فزعوا من اجراءات « جماعية » وسائل الانتاج ، وأيقظتهم فى الوقت نفسه الحركات الثورية المضادة . وهكذا فان قانون ٢٩ فبراير سنة ١٩١٨ الذى يحدد أساليب تأميم الأرض ، كما قرره مرسوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، بنظام جماعية المشروعات الزراعية أينما تيسر ذلك بدلا من الاتجاه نحو التقسيم ، قد جعل الكولاك أثرياء الفلاحين من ألد أعداء دكتاتورية البروليتاريا وفقراء الفلاحين .

وجدير بالملاحظة أن السياسة السوفيتية كلها ، منذ « السياسة الاقتصادية الجديدة » .N.E.P (١٩٢١ - ١٩٢٨) حتى الوقت الحاضر، مارة بالصراع ضد الكولاك ، وجماعية الزراعة فى اطار الكولخوز (١) والسوفخوز (٢) قد هيمنت عليها تلك الاعتبارات التى ارتآها لينين . ويميز لينين فى ختام تحليلاته ما لا يقل عن ثمانى طبقات ، منها فى المدن:

١ - البورجوازية .
٢ - التكنو بيروقراطية .
٣ - البورجوازية الصغيرة .
٤ - البروليتاريا ؛ وفى الريف :
٥ - ملاك الأراضى .
٦ - الكولاك .
٧ - السيريدنياك (الفلاحون المتوسطون) .
٨ - فقراء الفلاحين .

وبعد أن تم التخلص من طبقات ملاك الأراضى والبورجوازيين والكولاك على التوالى ، بقى فى المدن :

---

(١) الكولخوز : المزارع الجماعية .
(٢) السوفخوز : المزارع الحكومية - المترجم .

١ ـ التكنو بيروقراطية .

٢ ـ البورجوازية الصغيرة .

٣ ـ البروليتاريا ؛ وفى الريف .

٤ ـ فقراء الفلاحين .

٥ ـ الفلاحون المتوسطون ، أى خمس طبقات على الأقل .

وبعد لينين ، ميز الفقه الرسمى كما شرحه ستالين ؛ بين ١٩٢٤ و ١٩٢٩ (فترة الحركة ضد الكولاك) ثلاث طبقات ريفية . وتطالعنا وثيقة سوفيتية فى تلك الفترة بأن « طبقة الفلاحين الروس تتكون من ثلاثة أقسام عامة : الأغنياء (الكولاك) ، والمتوسطون (السيريدنياك) ، والفقراء (البدنياك) Bedniaks . ويختلف موقف اللينينية إزاء هذه الطبقات الثلاث . فالفلاحون الفقراء يعتبرون سندا لطبقة العمال ، والفلاحون المتوسطون حلفاء لهم . أما الكولاك فيعتبرون أعداء » . (دونا هذا النص حسبما ورد فى كتاب « العلاقات بين فكرة الدولة وفكرة الطبقات الاجتماعية ، ١٩٣٣ ، صفحة ٣٩٥ ، لجورجفتش Djordjevitch . ولعلنا نقدر أن التميز بين طبقات الفلاحين الروس الثلاث مبسط بعض الشىء (فلم يتحدد الفرق بين الشريحة الطبقية couche ou strate وبين الطبقة) وأن مشكلة الطبقة التكنوبيروقراطية ظلت دون حل .

بوخارين Boukharine

أعتقد ، بخصوص تعريف الطبقة الاجتماعية فى المدرسة الماركسية اللينينية ، أن أدق تعريف من وجهة النظر الماركسية هو ذاك الذى صاغه بوخارين ، الذى ترجع منازعاته مع الجهات الرسمية الى سنوات « التخلص من الكولاك ، حيث كان يرى ضرورة ضم القسم الثالث من الفلاحين الروس الى السيردنياك (الطبقة الريفية المتوسطة) ، وكان يخشى تمردهم • وفى كتابه عن « نظرية المادية التاريخية » ١٩٣١ ، وضع التعريف الآتى : « الطبقة الاجتماعية وحدة جماعية من الأشخاص الذين يؤدون دورا واحدا فى الانتاج ، ويقيمون علاقات واحدة مع غيرها من الوحدات الجماعية التى تسهم معها فى عملية الانتاج » • وعلى هذا فهناك معياران : اقتصادى واجتماعى • ويضاف الى هذين المعيارين الفروق المترتبة على الوعى الطبقى ، والايديولوجيا ، والموقف السياسى ، ومستوى الحياة ، والدخل ، والثقافة ، وكلها أشياء تتماثل لدى أفراد الطبقة الواحدة ، لأنها تتحدد كلها بوضع الوحدة الجماعية التى ينتمون اليها فى عملية الانتاج والدور الذى تقوم به هذه الوحدة •

وللوكاش بعض الحق فى أن يعيب فى Archiv für Gesch. des Sozial und der Arbeiterbeweg, (١٩٢٥) على بوخارين مفهومه الوضعى الآلى السلبى بدرجة كبيرة فى خصوص الحياة الاجتماعية

والطبقات • ومما يبرر هذا النقد أن بوخارين لا يذكر فى تعريفه للطبقة الوعى الطبقى ولا الايديولوجيا ، وأنه يؤكد فى فقرات أخرى من كتابه أن الصلة بين المجتمع وبين الطبقة ، وكمية الطاقة المادية التى يعيش عليها المجتمع والتى تتعرض لمختلف أنواع التغيرات فى مدارج الحياة الاجتماعية، لها فى كل حين سعة معينة »• ومع ذلك فلا بد من القول بأن لينين قد أعطى تعريفا للطبقة يعادل فى «آليته» و «موضوعيته» تعريف بوخارين ، فى حين أنه لم يكن يشاركه وجهة نظره ، وأنه أكد مثل ماركس ، بل وأكثر مما فعل ماركس ، عنصر الوعى والارادة والخلق فى الصراع الطبقى • وتصدق هذه الملاحظة من باب أولى على كاوتسكى • فقد كان مثل هذا الاتجاه شائعا لدى الماركسيين بما فيهم اللينينيين ، رغم النزعة العملية والارادية الخالصة لدى استاذهم •

لوكاش Lukacs

ليس هناك الا استثناء واحد يتمثل فى الآراء التى شكلها لوكاش بنفسه فى كتابه « تاريخ الطبقة والوعى الطبقى » (١٩٢٣) • وسوف أختم عرضى لمفهوم الطبقات عند الماركسيين بتحليل هذا العمل ، ثم أتناول بعد ذلك نقد نظريتهم •

مر لوكاش قبل أن يتحول الى الماركسية ـ بالمثالية الجديدة ، والروحية الألمانية ، ودرس دلتى Dilthey ، وريكير Rickert وماكس فيبر Max Weber والفيشتية الجديدة [1] néo-fichtéanisme والهيجلية الجديدة [2] Hégélianisme وأعطى أخيرا عن النظرية الماركسية فى الطبقات صورة ذات طابع هيجلى قوى • وتشكلت فكرة الطبقة وعلى الأخص فكرة الوعى الطبقى لدى لوكاش بقدر من العناية أكبر مما عند غيره من الماركسيين • ولكنه لا يدرس طبقات اجتماعية معينة بالذات ، واقعية ومتعددة ، وانما يشغل نفسه فى آخر الأمر بفلسفة للطبقة البروليتارية ، بل وعلى الأدق بميتافيزيقيا لهذه الطبقة ، أكثر مما يشغل

---

(١) نسبة الى فيشتة ، يوهان جوتليب (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) فيلسوف وزعيم ألمانى ـ المترجم

(٢) نسبة الى هيجل ، جورج ولهلم فردريك (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف ألمانى ـ المترجم

بسوسيولوجية الطبقة أو بمفهوم ســوسيولوجى لها • بل انه لم يعرض لمسألة عدد الطبقات •

ويرى لوكاش أنه يجب لفهم ماهية الطبقة الاجتماعية اعتبارها أولا « كلا ثابتا » totalité concrète ؛ « والكل الثابت » لا يمكن ادراكه الا بفضل الجدل (الديالكتيك) الذى يعيد تركيبه « وحدة فى الكثرة » • ومن العناصر المكونة لهذه الوحـدة « وعى الطبقة » الذى يرتبط « بالمآل التاريخى » الذى هو نفسه « كل ثابت » • ويؤكد لوكاش أن « وجهـة النظر الخاصة بالكل هى التى تميز الماركسية من العلم البورجوازى أكثر مما يميزها تفوق البواعث الاقتصـادية فى تفسـير التاريخ » « ان سيطرة مقولة الكلية Catégorie de la totalité هى التعبير عن المبـدأ الثورى فى العلوم الانسانية » • ويبدو هذا التأكيد جريئـا وعرضـة للطعن حين نستبين أن النقابى الكاثوليكى أ• سـبان O. Spann من جهة ، والفقه النازى من جهة أخرى قد استغلا بالمثل فكرة « الكلية » • ويأخذ لوكاش هذا المصطلح (أى الكل) بالمعنى الهيجلى ، وعلى الأخص ذلك المعنى الذى أضفاه عليه هيجل الشاب المتأثر بالنزعة الرومانسية •

كتب لوكاش « لا يوجـد عند الماركسـية فى النهاية علم قانون أو اقتصاد سياسى أو تاريخ أو غير ذلك منفصل بعضها عن بعض ، وانما هناك علم واحد فحسب ، علم التاريخ الجدلى لتطور المجتمع ككل » • (ولعلنا نتساءل عما اذا كان هذا الوضع بعيدا كل البعد عن مفهوم موس Mauss فى « الظواهر الاجتماعية الكلية » وعن تفسيرى الذى أقول فيه بأنه يمكن دراسة هذه الظواهر بوسائل مختلفة ووجوه شتى) • ومع ذلك فان أهم نقطة فى نظر لوكاش هى أن « كلية الشىء لا يمكن تأكيدها بالفعل الا اذا كان الشخص الذى يناقشها هو نفسه « كل » أى عندما يضطر الشخص لكى يفكر فى نفســه ، أن يفكر فى الشىء ككل • هذه النظرة الخاصـة بكلية الشخص والشىء فى وقت واحـد لا تتمثل فى الوقت الحاضر الا فى الطبقات الاجتماعية وحدها » •

غير أنه لكى يمكن فهم عمــل هذه الشخوص الجمـاعية التى لهـا امتياز تجســد الكل ، يجب تعمق معنى مصطلح « الوعى الطبقى » الذى لا يمكن فهمه بالكامل الا فى خصــوص طبقة العمــال • ويعطى لوكاش العديد من التعريفـات الوصفية للوعى الطبقى ، فيما يتعلق بالبروليتـاريا بصفة خاصــة • ومن المناسب فى هــذه الصيغ التميز بين ما هو جوهرى وما هو ثانوى : عند هذا يتبين لنا أن هذا الموضوع يسبب للمؤلف أشد ضروب الارتبـاك • وقد يكون لنـا فى هذه الارتباكات من الدلالة أكثر مما نجده في التعريفات نفسها • وأسوق فى ذلك بعض الأمثلة • « الوعى الطبقى (للبروليتاريا) هو وعى العمليـة الجدلية نفســها ، ومن ثم فهو مفهوم جدلى • فالواقع أن الجانب العملى الايجـابى من الوعى الطبقى ، الذى هو طبيعته الحقيقيــة ، لا يمكن ادراكه الا عندما تستلزم العمليــة التاريخية تطبيقه ، وخاصــة عند حــدوث أزمة اقتصــادية حــادة تقتضى تدخله » • هذا النص كما هو واضح تعسفى ومضطرب بدرجة كافية • واذا كان التعريف الآتى أكثر وضــوحا من التعريف الســابق ، فانه مع ذلك لا يقل عنه قابلية للجدل : « الوعى الطبقى هو فلســفة البروليتـاريا الأخلاقية ، ووحــدة نظريتها وتطبيقها العملى ، والنقطة التى تدور عندها جدلا الضرورة الاقتصادية للنضال فى ســبيل تحــرير البروليتـاريا » ، والمــدهش فى كل هــذا هــو أن الأمر لا يختص بوعى طبقى ، وانمــا بايديولوجية ، وبايديولوجية خيالية •

ويخصص لوكاش للوعى الطبقى بعد ذلك فصلين كاملين من كتابه: الفصل الثالث والرابع ، وعنوان الأخير : « القــاء الأضــواء على موضوع البروليتــاريا ووعيها » (١) • ويقر المؤلف أولا بأنه يوجــد فى النظرية الماركسية نوع من الشد والجذب بين معيار الوضع الذى تشغله الطبقة فى مراحل عملية الانتاج ، وبين معيار الوعى الطبقى • ويشــير الى أن هذا

(١) La projection dans l'objet et la conscience du Prolétariat.

الشد والجذب يختفيان عندما يدرك الانسان هذه الحقيقة المزدوجة ، وهي أن « الوعي الطبقي ليس وعيا سيكولوجيا » وأن « المجتمع كل ثابت » يشمل الانتاج والتقسيم الى طبقات وألوان الوعي •

يرى لوكاش أن الوعي الطبقي لا يمكن أن يكون وعيا سيكولوجيا ، حتى ولو كان ذلك بسبب أن « الماركسية العلمية تتكون من تأكيد استقلال قوى التاريخ بالنسبة الى وعي الناس لها • وبالاجمال فان لوكاش يستغل في هذا المجال فكرة « الوعي الروحي » أو الايديولوجية في صورة الوهم • وعلى أية حال فهو يصرح بأن مسافة كبيرة « تفصل الوعي الطبقي عن الواقع الممكن وصفه وتفسيره من الوجهة السيكولوجية والذي يشكل الصورة التجريبية التي يتخيلها الناس لأوضاعهم الاجتماعية » • وفي هذا النطاق فان « الوعي الطبقي هو من وجهة النظر المجردة والشكلية « لا وعي » نفساني يحدده موقف الطبقة» أي الوضع الاجتماعي التاريخي الاقتصادي للموضوع » • و « الانتهازية » هي وحدها التي « تماثل بين الوعي النفساني الواقعي للعامل الكادح وبين الوعي الطبقي للبروليتاريا »

وفضلا عن ذلك فانه يقدم حجة أخرى لاظهار الهوة أو الشقة التي تفصل بين الوعي النفساني للبروليتاريا وبين الوعي الطبقي • ذلك أن لوكاش ينكر وجود أي وعي واقعي أو نفساني خلاف الوعي الفردي • وعلى هذا فان الوعي الطبقي لا يمكن أن تكون له صفة مباشرة ، والا فانه يصبح عندئذ « وعيا بالنوع » أو « وعيا جماعيا » ينتمي في رأيه الى « مضمار الأسطورة » • وكتب خاصة يقول : « اذا حاول الانسان أن ينسب الى الوعي الطبقي شكلا من أشكال الوجود المباشر ، فانه لا يستطيع أن يتجنب الوقوع في دنيا الأساطير : في الوعي الغامض بالنوع (وهو وعي غامض ومضمر كروح الشعب Volksgeist عند هيجل) • ومثل هذا الوعي ـ الذي لا بد أن يكون الاله الخالق لكل حركة ـ يقيم علاقات مع الوعي الفردي ويجري عليه بعض الأفعال التي لا تفهم بالمرة ،

وتزداد هذه الصعوبة بسبب سيكولوجية طبيعية النزعة وآلية » . ومع ذلك يسلم لوكاش بأنه يمكن فى الوعى النفسانى الفردى « اكتشاف اتجاه (نية) واعية أو شبه واعية فى البداية نحو المجتمع ككل » . هذه « النية » قد تصلح اذن نقطة انتقال بين الوعى النفسانى والوعى الطبقى الذى يرتبط « بالعملية الباطنية للجدل التاريخى » .

لنتوقف ، قبل أن نسترسل فى هذا الصدد ، عند هذا البرهان الذى يقدمه لوكاش - فى شىء من الدهشة والحيرة . فها هو ذا أحد أنصار « الكليات الجدلية » ينكر على الوعى الواقعى ما يمنحه هو للمجتمع. انه من أنصار الوعى الشامل ، الوعى المغلق ، المنطوى على نفسه ، الأمر الذى يتعارض تماما مع الواقعية التى تتضمنها المادية الجدلية ، ومع تعريف الطبقة بأنها موضوع كلى ، وأخيرا مع تلميحات لوكاش الى « نية » الوعى. وانى لأشعر أنه لم يعد التفكير فى مشكلة الوعى الواقعى ، أو السيكولوجى حسب تعبيره - تبعا للمراجعة العميقة التى أجرتها فى موضوع هذا الوعى منذ أوائل القرن العشرين مذاهب السلوكية [١] ، والفرويدية [٢] ، والحدسية [٣] ، والفينومنولوجية [٤] (علم الظواهر) . بل ان لوكاش يجهل نظرية الوعى الجماعى لدوركايم ، بأسلوبها المعقد الذى يتضمن « التعالى » [٥] ، والباطنية [٦] بالنسبة الى الوعى الفردى ، وهو مفهوم عرضة للنقد يقينا ، ولكن يتجلى معناه الحقيقى بشكل عجيب اذا سلمنا بالنظريات الحديثة المتعلقة بألوان الوعى الصريحة ، غير الشاملة ، التى تبرز على العالم وتندمج فيه. وان تفسير ضروب الوعى ، واندماجها جزئيا بعضها فى بعض ، وتبادل مظاهرها ، وتناقضها فيما بينها ، وتكامل بعضها بعضا ، كل ذلك يلقى ضوءا جديدا على الوعى الجماعى الذى يشكل الوعى الطبقى حالة خاصة منه .

---

(١) behaviorisme (٢) freudisme (٣) intuitionisme

(٤) Phénoménologie (٥) transcendance (٦) immanence

وبعد أن أعلن لوكاش أن الطبقة هي أولا « كل » أصبح فجأة « اسمى » النزعة [1] ، وفرديا [2] فيما يتصل بالوعي الطبقي أو السيكولوجي للذات « نحن » nous ، والجماعات ، والمجتمعات الشاملة ، حتى ليصبح الوعي الطبقي فيمفهومه روحا أو جوهرا ميتافيزيقيا لطبقة البروليتاريا ، منفصلا في البداية عنها ، ثم يندمج ويتجسد فيها بفضل معجزة « استحالة المادة أي القربان الى لحم ودم المسيح » [3] الجدلية ، التي حدثت في التاريخ ؛ الأمر الذي يتلخص في العملية التي يفرض بها حزب ما عقيدة كاملة البناء على طبقة ما ، ويفرضها بوساطة هذه الطبقة على مجتمع ما ...

وعلى هذا النحو يجد لوكاش نفسه في موقف بالغ الصعوبة فيما يختص بالعلاقة بين الوعي الطبقي السيكولوجي وبين الوعي الطبقي الايديولوجي النابع من الرسالة التاريخية للبروليتاريا . ويلجأ ، لكي يخرج من هذا المأزق ، الى فكرتين ممتعتين ، تتعلق أولاهما بالبحث عن الصلات بين الطبقة الاجتماعية وبين أعمالها الثقافية ، من معرفة وفن وأخلاق ولغة ، وبصفة أعم « نظرة على العالم » [4] أو ايديولوجية بالمعنى الواسع في الاصطلاحات الماركسية . ويرى اعتبار الوعي الطبقي بمثابة « قاعدة اسناد » للأعمال الثقافية المذكورة ؛ كما يمكن اعتباره على الصعيد المنهاجي مرتكزا تنسب اليه هذه الأعمال [5] . كتب لوكاش « يبدو الوعي الطبقي على هذا النحو « قاعدة اسناد » point d'imputation للاستجابات التي يمكن أن توافق من الوجهة الفعلية ، موقفا نمطيا لطبقة ما في عملية الانتاج » . ويذكر نظرية الأنماط المثالية لماكس فيبر . فأنماط الأعمال الثقافية أو الايديولوجية ، وأنماط الموقف في الانتاج ، يمكن على هذا النحو مواجهتها بعضها ببعض بفضل فكرة الوعي الطبقي . وفي فقرة

(١) nominaliste (٢) individualiste (٣) transsubstantiation

(٤) weltanschauung (٥) Zurechnungspunkt

أخرى يتكلم لوكاش عن الوعى الطبقى بذاته « كقاعدة اسناد ـ لمصالح الطبقة » • غير أن الانسان عندما يتأمل فى كل هذا يشعر بشىء من القلق يثير التساؤل عما اذا كان « الوعى الطبقى » فى رأى لوكاش ليس الا ضربا من الخيال و « قاعدة اسناد » مبنية بكيفية مصطنعة لايجاد تفسير اجتماعى تاريخى للظواهر الثقافية التىتبقى بدون ذلك غير قابلة للتفسير• ونحن نلمح هنا انبثاق خطر النزعة « الاسمية » (١) • فضلا عن أنه من السهل التعرف على جذور هذه النزعة : فقد كان لوكاش من أشياع ماكس فيبر منذ أمد طويل •

وسوف نرى فى الدرس القادم كيف يحاول لوكاش التغلب على هذا الخطر بطرق مختلفة • فهو اذ يسلم بصفة خاصة بأن الوعى الطبقى ـ فى كل نظام خلاف النظام الرأسمالى ـ ليس الا « قاعدة اسناد » ، فانه يؤكد أنه فى اللحظة التى يتكون فيها هذا النظام ، وخاصة الطبقة البروليتارية ، يصبح الوعى الطبقى « الواقع التاريخى الكلى الذى يتجسد حقيقة الحياة البشرية ومعناها » • ولنلحظ فى ختام عرضنا اليوم أننا اذ نرفض المقابلة التى يقيمها لوكاش بين الوعى السيكولوجى للبروليتاريا ووعيها الطبقى ، فلعلنا نقبل كخطوة أولى بحثا فى « قواعد الاسناد » من أجل مذهب أو نظام للأعمال الثقافية ، أو ايديولوجية دقيقة ، أو نظرة عالمية ؟ ولكن بشرطين : العناية بتجنب كل تحول فى الأطر الاجتماعية الواقعية الى صور خيالية ، وكل تفسير للحقائق والآراء والقيم على أنها مجرد ظواهر عارضة ـ نتائج لأسباب اجتماعية ـ الأمر الذى يلغى صحتها • والبحث عن « مراكز الاسناد » من هذه الوجهة ، خليق بأن يشكل أول خطوة تتيح لنا أن نطرق فصلا هاما فى سوسيولوجية الروح : اقامة صلات وظيفية بين الطبقات الاجتماعية، وبين المعرفة والاخلاق والفن والدين واللغة ، الخ •

---

(١) nominalisme

لوكاش (ختام)
مبحث في نقد المفهوم الماركسى في الطبقات الاجتماعية ...

سبق أن أوضحنا في الدرس الأخير أن لوكاش عندما تحول من ماركس الى هيجل ، مزج هذا الأخير ، بطريقة توفيقية eclectique (١) باسمية ماكس فيبر ؛ وبنى على فكرة الطبقات الاجتماعية أو بالأحرى طبقة البروليتاريا ، نظرية ميتافيزيقية وضعت في وجهه مصاعب لا سبيل له أحيانا الى الخلاص منها : منها بصفة خاصة مفهوم الطبقة باعتبارها أحيانا « كلا » ماديا من الدرجة الثانية ــ فهى ذات كلية وموضوع كلى فى وقت واحد ــ وأحيانا أخرى نقطة اسناد خيالية الى حد ما لايديولوجية أو « صورة العالم » (فيما يتعلق بالوعى الطبقى) . هذا الموقف يهدم كل واقعية مباشرة للوعى الطبقى ، وكل صلة بينه وبين الوعى السيكولوجى ، وكل وجود للذات « نحن » ، وللجماعات فى داخل الطبقات .

ومع ذلك فان لوكاش يجد لنفسه مخرجا من هذا المأزق ، كما ذكرت من قبل ، حين يؤكد أن الموقف يتغير فى النظام الرأسمالى ، وعلى

(١) مذهب التوفيق eclectisme ــ الجمع بين آراء أو مذاهب مختلفة ومحاولة التأليف بينها لتكون مذهبا واحدا ــ (مجمع اللغة العربية)

الأخص بالنسبة الى الطبقة البروليتارية التى تناضل فى سبيل الاستيلاء على السلطة . وهنا لم يعد الوعى الطبقى مجرد نقطة اسناد ، وانما هو مركز العملية التاريخية ، وسبيل التقارب والانتقال بين الوعى الواقعى والوعى باعتباره ايديولوجية . كتب لوكاش : « تختلف العلاقة بين الوعى الطبقى وبين التاريخ اختلافا تاما فى المجتمعات السابقة على النظام الرأسمالى عنها فى المجتمعات التى تتميز بهذا النظام . ذلك لأنه فى خصوص أنماط المجتمع السابقة لم يمكن بناء الطبقات الا بفضل تدخل المادية التاريخية (بأثر رجعى) ، فى حين أنها معطيات مباشرة فى المجتمع الحاضر » . « لم يصل الوعى الطبقى الى المرحلة التى يمكن فيها ادراكه مباشرة الا فى ظل النظام الرأسمالى ، بزوال التقسيمات القديمة الى مراتب états وتكوين مجتمع تقسيماته كلها اقتصادية » . وعلى ذلك فان الرأسمالية هى التى دفعت « الوعى الطبقى » الى الأمام لا كنقطة اسناد فحسب ، وانما كقوة واقعية للمجتمع والتاريخ .

ويترتب على هذا خاصة نسبية المادية التاريخية ، وهى اكتشاف هام حقا ، يظهر فى الفصل الخامس من كتاب لوكاش بعنوان « تغير وظيفة المادية التاريخية » . ونقرأ هنا فى الواقع : « المادية التاريخية (...) تعنى معرفة المجتمع الرأسمالى لنفسه بنفسه » . « لا يمكن أن نعتبر من عوامل الصدفة أن يصبح المجتمع الرأسمالى بالذات الحقل التقليدى لتطبيق المادية التاريخية » . « لا يمكن تطبيق المادية التاريخية بكيفية واحدة تماما على الأبنية الاجتماعية السابقة على الرأسمالية . فهنا يحتاج الانسان لكى يكشف عن الدور الذى تقوم به القوى التى تحرك المجتمع الى تحليلات أشد تعقيدا وأكثر دقة . والواقع أنه ليس من المؤكد البتة فى هذه الحالة امكان التفرقة بين القوى الاقتصادية وبين غيرها من القوى . « ولهذا يتحتم مراعاة قدر أكبر من الحرص فى التحليل فى هذا المجال ». وانا لنلمس بأيدينا فى هذه النقطة أكبر خطأ ارتكبته « الماركسية العامية » marxisme vulgaire حين « اعتبرت الفئات التاريخية فى

النظام الرأسمالى فئات خالدة مميزة لكل الأنظمة السابقة » ، وهى قد « كررت على هذا النحو أخطاء الاقتصاد السياسى التقليدى » •

وباختصار ـ وحتى نقول كل ما كان لوكاش يوعز به فى حرص ، وهو مرتبط بأنظمة حزبه ـ يشكك مؤلفنا (أى لوكاش) فى وجود الطبقات والوعى الطبقى ، وكذا فى صحة المادية التاريخية نفسها ، فى خارج نمط المجتمع الرأسمالى الذى يشكل فى الحقيقة المجال الوحيد الذى صيغت هذه المفاهيم من أجله •

وأود أن أنوه بأن هذه هى النتيجة التى وصلت اليها بنفسى ، دون أن أعرف لوكاش ، وذلك فى أفكارى عن ماركس (انظر : « الاتجاه الحاضر لعلم الاجتماع » ١٩٥٠ ، الفصل العاشر بعنوان « علم الاجتماع لدى ماركس الشاب » : صفحات ٥٦٨ ـ ٦٠٢) وفى نظريتى بشأن نسبية وتنوع « الحتمية الاجتماعية » التى تتغير طبيعتها مع كل نمط من بناء شامل (أنظر كتابى : « الحتميات الاجتماعية والحرية الانسانية » ١٩٥٤ ، والتلميحات الأولى الى هذا الموضوع فى « عناصر علم الاجتماع القانونى » ١٩٤٠ ، صفحات ٢٤٣ ـ ٢٦١) •

ويعود لوكاش الى المجتمع الرأسمالى ، فيثبت أن الوعى الطبقى لدى البروليتاريا أكثر واقعية من نظيره لدى البورجوازية ، لأن الأول منهما يدرك معنى التاريخ ، فى اندفاعه لتخطى النظام الرأسمالى ، فى حين يظل الثانى محدودا بالتصاقه بالبناء القائم • ولهذا ففى المستطاع ، كما يقول لوكاش ، ملاحظة « علامات تنبىء بتنازل الوعى الطبقى البورجوازى سلفا للوعى الطبقى البروليتارى » • وهنا يصبح الوعى الطبقى السلاح الرئيسى للطبقة • ليس فى الامكان الخروج من أزمة الرأسمالية الا عن طريق الوعى الطبقى البروليتارى • « فى الامكان اذن أن نفهم كيف أن الادراك الحقيقى للبنيان الاجتماعى (وأحداثه الخاصة) لدى البروليتاريا وحدها ، يصير عاملا رئيسيا من عوامل القوة ، بل وربما السلاح الذى سوف يكون أمضى سلاح » • وهكذا فان البروليتاريا ، بفضل وعيها

الطبقى ، هى القادرة وحدها على ادراك معنى المصير التاريخى ؟ فبدلا من أن « تسمو بالتاريخ » « Aufheben » ، وتنكره ، فانها « تتخطاه ، بمعنى أنها تصنع التاريخ باعادتها صنع البشرية » • فالوعى الطبقى عند البروليتاريا هو اذن التاريخ وقد أصبح واعيا نفسه •

ويتكون السلاح الذى يمثله هذا الوعى الطبقى على الأخص من « قدرته على ادراك المجتمع فى جملته باعتباره كلا تاريخيا معينا ، وفهم الأشكال الموضوعية (التى تبرز كأشياء) باعتبارها عمليات تجرى بين الناس ، ومن ثم ترجمة المعنى المستقر فى التاريخ الذى أصبح واعيا وعيا ايجابيا ، وذلك فى الواقع العملى » • عند هذا فان وعى طبقة البروليتاريا يظهر قدرته على تحويل طبيعة المجتمع (Verwandlung-Funktion)

وهنا تتجلى بالكامل الصوفية الهيجلية • اذ لما كان هيجل يماثل بين الدول القومية وبين مسالك الاله على الأرض ، فان لوكاش يماثل بين هذه المسالك نفسها وبين وعى طبقة البروليتاريا الذى أعده التاريخ السابق كله• غير أنه يتحتم أن يكون هذا الوعى الطبقى واقعيا وليس سيكونوجيا حتى يكون جديرا بمهمته ، وهذا شىء لا يمكن كفالته الا بمطابقة هذا الوعى ، ان لم يكن بمماثلته للايديولوجية الشيوعية التى يجب على الحزب أن يتولى رقابتها • ويختم لوكاش كتابه بتبريرات مشوشة تدور فى حلقة مفرغة ، تفسر الوعى الطبقى بالايديولوجية ، والعكس بالعكس •

على أن الحصيلة التى قدمها هذا الكتاب ذات أهمية • فالواقع أنه يلقى ضوءا غير طبيعى على نواحى القوة والضعف ـ بل وأقول على المهاوى (الميتافيزيقية) ـ فى النظرية الماركسية عن الطبقات ، وهى التى سأحاول الآن نقدها بصفة عامة •

مبحث فى نقد المفهوم الماركسى للطبقات الاجتماعية

ان الفروق المختلفة فى نظرية الطبقات الاجتماعية لدى ماركس نفسه ، وتفسيرات مفهوم الطبقة التى أعطاها الماركسيون من انجلز الى

كاوتسكى ، ومن لينين الى لوكاش ، لتبدو فى خاطرى أنها تدل فى وقت واحد على أنها اكتشاف هام فى علم الاجتماع ، وأن هذا الاكتشــاف لم يوضح أبدا بدرجة كافية لا فى مضمونه ولا فى أساسه ، لا فى حدوده ولا فى مداه •

ففيما يختص بالمضمون ، أى مفهــوم الطبقــة الاجتمــاعية ، نجــد ماركس لا يقدم الا تعريفا سلبيا ، ولم تكن بياناته الايجابية فى هذا الصدد كافية أو وافية ، حتى لقد أوضح ماركس أن الطبقة ليست طائفة ولا مرتبة ولا نقابة ولا مهنة ولا حرفة ، ولا درجــة ، وأنها لا تقوم على الثروة أو الدخل أو قيمة الأجر أو مستوى المعيشة ونوعها ــ رغم أنها قد تنعكس على العديد من هذه الخصائص • ويبدو أن ماركس وأغلبيــة الماركسيين يعتبرون المعايير الآتية علامات ايجابية كافية للدلالة على الطبقات الاجتماعية: الدور الذى يؤدى فى الانتاج ، تداول الثروات وتوزيعها ، الاسهام فى الخصومة الاجتماعية الذى يتبدى فى النضال من أجل السلطة السياسية ، والسيطرة على الدولة باعتبارها العضو التنفيذى لطبقة تسيطر على ســائر الطبقات ، وأخيرا الوعى الطبقى الذى يناظر تأليف ايديولوجية سياسية واجتماعية خاصة• وثمة مميزات أخرى مثل «اشتراكية» الطبقة وتضامنها لدى ماركس الشــاب ، و « المجمــوعات البشرية الكبيرة » لدى لينين ، و « الوحدات الجماعية » لدى بوخارين ، و « الكليــات الواقعيــة » عند لوكاش ، تثبت أن الطبقــات الاجتمــاعيــة كانت فى ذهن قســم كبير من الماركســيين « ظواهر اجتماعية كلية » وليست مجمــوعات من النمــاذج المتماثلة أو « فئات اجتماعية » أو تكتلات اســمية فحسب ، أو متوسطات احصائية ، أو روابط اجتماعية ، أو مجمــوعات من القوانين ، أو ضروب متشابكة من السلوك تشكل نماذج وقواعد ومبادىء ، أو جمعيات اختيارية أو أخيرا مجرد تنظيمات •

ومع ذلك فليس الانتهــازيون opportunistes من مختــلف المشارب ، من بيرنشتين الى كاوتسكى وجيجر هم وحــدهم الذين يقعون

كثيرا فى نزعة « اسمية » ، ودون وعى فى بعض الأحيان ، تنزل بالطبقات الى مجرد « فئات اجتماعية » ؛ وانما اللينينيون أنفسهم بما فيهم لينين وبوخارين ، وفى فرنسا المأسوف عليه « موجان » Mougin لا يفلتون من هذه النزعة • (من ذلك أن لينين وبوخارين يميزان فقراء الفلاحين عن المتوسطين منهم ، فى حين أنهم يشكلون شرائح strates لا طبقات؛ ويعتقد موجان أنه وقع على اكتشاف حين قابل بين الطبقة باعتبارها « فئة اجتماعية » وبين المجموعات الخاصة التى يقول انها محدودة دائما) • أما لوكاش فانه لا يقاوم هو الآخر النزعة الاسمية ، لأنه ينكر وجود ضروب من الوعى الجماعى الواقعى •

والمغالاة فى الاهتمام بالدور الذى يؤدى فى الانتاج هى التى تفسر قلة الالتفات الى فكرة أن كل طبقة اجتماعية هى مجموعة نوعية لا تواجه الطبقات الأخرى فحسب ، وانما تتميز عن سائر أنواع المجموعات ذات الوظيفة الواحدة أو المتعددة الوظائف (مجموعات المكان ، أو الأسرة ، مجموعات الرابطة الأخوية ، مجموعات النشاط الذى لا يستهدف الربح الخ) ، والتى تنطوى فى داخل الطبقات الاجتماعية • وتشكل هذه الطبقات الاجتماعية كليات لا تقبل التضيق ، لا بالنسبة الى أفرادها والعلاقات بين الأفراد فحسب ، وانما أيضا بالنسبة الى جميع أشكال الميول الاجتماعية ، وجميع شرائحها ، وكل أنواع المجموعات الأخرى التى يمكن أن تتضمنها الطبقات الاجتماعية • وان نظرية المادية التاريخية أو المادية الجدلية ـ فى معناها الذى يفهم منه أن القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تحدد ، بفضل الدور الذى تؤديه طبقة ما فى الانتاج ، مستوى المعيشة ونوعها ، والوعى الطبقى ، والايديولوجية ، والأعمال الثقافية ، والاتجاهات السياسية ، وأخيرا الوضع الاجتماعى ومكانة الطبقة ـ لتبدو (أى النظرية) أنها تستغنى عن البحث عن ماهية مجموعة معينة ، ونوع المجموعات التى تنتمى اليها طبقة اجتماعية • وقد شجع على هذا الحل

المبسط تلك الحقيقة التى تتمثل فى أن الطبقات الاجتماعية هى بلا جدال أهم أنواع المجموعات قاطبة لأن بناءها قد بدأ بالفعل فى مجتمع كلى •

ثم ان المشكلة لم تزل باقية ، حتى ولو اتضح أن نظرية المادية الجدلية صحيحة لا نزاع فيها ـ الأمر المشكوك فيه ـ أو أمكن قبول تفسيرها الضيق على أنه تحديد من جانب واحد تقوم به قوى الانتاج المادية وعلاقات الانتاج ، وهو تفسير لا يلتزم به أحد • وقد عارضه ماركس الشاب وانجلز المسن فى خطاب الى ستاركنبرج Starkenburg فى عام ١٨٩٤ فى سياق حديثهما عن التبادل الجدلى فى التعريفات ، وتنويههما بأن « الطبقة الثورية ، وأسلوب العمل المشترك ، هما فى ذاتهما من قوى الانتاج » (« الايديولوجية الألمانية » ، الجزء السادس ، صفحة ١٦٧ ؛ و « فقر الفلسفة » ، صفحة ١٣٥) •

ومن ثم فلا مناص من ضرورة توضيح مفهوم الطبقة الاجتماعية باعتبارها « مجموعة » groupement بصفة عامة ، ومجموعة نوعية بصفة خاصة • ولا مناص من ضم مشكلة الطبقة الاجتماعية فى داخل نظرية عامة للمجموعات ، والبحث عن المكان الذى تشغله الطبقات الاجتماعية فى عالم المجموعات الخاصة •

وهكذا فان الطبقة الاجتماعية لم تواجه فى الفقه الماركسى الا بنوعين من المجموعات الخاصة : الدولة ، والحزب السياسى ، وذلك لاثبات أن الدولة هى بالضرورة الهيئة السيادية للطبقة ، وأن كل حزب سياسى هو دائما أداة للصراع الطبقى • وتبدو هذه التأكيدات صحيحة بالنسبة الى نمط المجتمع الكلى الذى يمكن تعريفه بالرأسمالى ، ولكنها مشكوك فى صحتها بالنسبة الى عدد من المجتمعات الأخرى التى عاشت فيها الدولة والأحزاب السياسية دون أن يستطيع أحد أن يقول انها طبقات اجتماعية حقيقية • ولقد أهمل الماركسيون دراسة تلك الحقيقة الواضحة الخاصة بعلاقات التناسب العكسى التى يمكن ملاحظتها بين الصراع الطبقى وبين صراع المجموعات المنطوية فى داخل الطبقة الواحدة (مثال ذلك ،

الصراع بين المنتجين والمستهلكين ، الصراع بين المهن ، الصراع بين المجموعات المتقاربة اقتصاديا ، أو ذات الرابطة الأخوية ، الصراع بين الأسر ، الصراع بين الأحزاب السياسية والنقابات التى تدعى أنها تمثل الطبقة نفسها ، الخ) . والواقع أنه باستثناء بعض الحالات المحدودة (كأحزاب ونقابات تتنافس فيما بينها) نجد أنه كلما ازدادت شدة الصراع بين الطبقات ، ضعف الصراع بين المجموعات الموجودة داخل هذه الطبقات . وعلى العكس من ذلك كلما ضعف صراع الطبقات ، ازدادت شدة الصراع بين المجموعات الأخرى فى داخلها . معنى هذا أنه اذا افترضنا مقدما مع الماركسيين زوال الطبقات الاجتماعية فى مجتمع ما بعد الرأسمالية (الأمر الذى أشك فى صحته) فان النزاع بين المجموعات الأخرى لن يبقى فحسب ، وانما لا بد أيضا أن يشتد .

واذا لم تكن النظرية الماركسية قد حددت مفهوم «المجموعة» الخاصة ولا العلاقة بين الطبقات الاجتماعية والمجموعات الأخرى ، فقد يعتقد الانسان أنها قد حلت على الأقل مشكلة كان لها الفضل فى ايضاحها ، تلك هى مشكلة الوعى الطبقى . ومع هذا فلم يكن الأمر كذلك؛ فان الارتباكات النظرية لدى لوكاش ، عندما قابل بين الوعى السيكولوجى الواقعى وبين الايديولوجية التى يعتبرها الوعى الطبقى الحقيقى ، هى بمثابة سمات متميزة تماثل ضروب التفكك فى أفكار لينين وبوخارين وستالين عندما يقابلون فى خصوص الفلاحين الروس بين طبقة الفلاحين الفقراء وبين طبقة الفلاحين المتوسطين دون أن يبذلوا أقل جهد لاثبات أوجه الاختلاف فى الوعى الطبقى لدى هذه الجماعات أو فى طرق اكتسابها لهذا الوعى .

ولقد تحدث ماركس فى أعمال شبابه عن وعى واقعى ، جماعى وفردى فى وقت واحد ، وعن وعى روحانى أو ايديولوجى يتصور العلاقات الاجتماعية كلها « مقلوبة رأسا على عقب » . وكان الوعى الطبقى لدى الماركسيين يتأرجح على الدوام بين هذين النوعين . واذ أنهم لم يستخدموا بالمرة النظريات الحديثة فى شأن الوعى المفتوح ، والوعى غير

الشامل ، تلك التى تفتح المجال واسعا لدراسة الوعى الطبقى باعتباره وعيا جماعيا ، فان مشكلة الوعى الطبقى ما زالت غير واضحة . ومع ذلك فمن المفيد للغاية ، حتى ندرك قوة النزاع بين الطبقات ، أن نحلل العداء بين ضروب الوعى الجماعى ، ودرجة انغلاق بعضها بالنسبة الى البعض الآخر، وقابليتها أو عدم قابليتها للامتزاج بالوعى الجماعى أو ضروب الوعى الجماعى فى المجتمع الشامل . وقد تكون المنازعات القائمة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة بشأن المعتقدات ، والتقديرات ، بل وحتى المشاعر من ناحية العالم الخارجى ، اهم فى بعض الأحيان من المنازعات فى المصالح الاقتصادية . وعلى هذا فان انعدام السيكولوجية الجماعية للطبقات يمثل ثغرة خطرة للغاية فى النظرية الماركسية ، وحدا من حدودها لا ريب فيه. ألم يتضح بين الحربين العالميتين ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، وجود فرق ظاهر فى اتجاهات واستجابات طبقات العمال فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ؟ لا يمكن تفسير هذا الفرق بالدور الذى يؤدى فى عملية الانتاج . ألم نشهد فى عام ١٩١٧ فى بلد كروسيا بدأ فيه التصنيع بالكاد فى ذاك الحين ، طبقة العمال (التى لم تكن تمثل ٦٪ أو ٧٪ من السكان) تقوم بثورة اجتماعية يستحيل تفسيرها بأسلوب اقتصادى بحت ؟ . بل ان المفهوم الماركسى الحقيقى عن الطبقة الاجتماعية لا يستطيع دون توسيع قاعدته ببعض اعتبارات السيكولوجية الجماعية ، ومستوى المعيشة ونوعها ، والرابطة الأخوية ، أن يبرر تلك الحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى تتمثل فى أن أقارب المشتركين بالفعل فى الانتاج (أسرهم وزوجاتهم وأبناءهم وآباءهم) ، الذين لا يقومون بدور سوى أنهم من المستهلكين ، يعتبرون مع ذلك تابعين للطبقات التى ينتمى اليها أرباب أسرهم . بل انهم فوق ذلك يستبطنون أحيانا نفس الوعى الطبقى الموجود عند أرباب الأسر (وتتجلى هذه الحقيقة على الأقل عند الطبقة البورجوازية، ولكن العكس من ذلك هو الصحيح عند الطبقة البروليتارية) .

وتتمثل الصعوبة الأخرى فى النظرية الماركسية للطبقات فى مشكلة

عدد هذه الطبقـات • والواقع أن ماركس كان يعتقد دائمـا فى وجـود طبقتين بصفة نهـائية ، أو على الأقل كتلتين من الطبقـات ؛ وهو ازدواج يؤدى الى الانفجار الأخير الذى ينجح بعد دكتاتورية البروليتاريا فى خلق مجتمع لا طبقى • ومع ذلك فان كل تحليل واقعى أجراه ماركس، تاريخيا كان أم اقتصاديا ، أدى به الى اثبات مجموعة من الطبقات (ففى المؤلفـات التاريخية ، أثبت سبع أو ثمانى طبقات ، وصف بعضها أحيانا كأجزاء من طبقات ، وأحيانا كطبقـات ؛ وفى المؤلفات الاقتصـادية ، خمس أو ست طبقات ، تظهر من بينها الطبقة المحيرة ، طبقة المشرفين والتكنو بيروقراطيين الذين يعملون فى المشروعات فى الوقت الذى يتحـدد فيه نهائيـا انفجار الطبقة البورجوازية وتجزئتها الى أصحاب رءوس أموال مالية وتجـارية وصناعية) •

وكان الماركسـيون الألمان قلقين من ناحية أرباب الفـكر • وأثبت لينين وجود عدة طبقات ريفية وعدة طبقات حضرية فى آن واحد (بما فيها جماعة التكنو بيروقراطيين) ، وذلك عندما كانت الثورة السوفيتية قد تمت تحت قيادته • ذلك أن واقع الأشياء يقاوم على الدوام أسـطورة الصراع الختامى المحصور بين طبقتين • فالحقيقة أنه تتولد دائما طبقات جديدة فى مجتمعنا المتطور فى الصناعة ، ولا يمكن التكهن بصـورة دقيقة بالعلاقات القائمة بينها والتى تعتمد فى وقت واحد على أبنية المجتمع الكلى وأحداثه، وعلى الحتميات النوعيـة الخاصـة بكل طبقـة • وبهذا نقترب من النقط الثلاث الأخيرة موضوع النزاع فى المفهوم الماركسى عن الطبقات •

وقد تردد ماركس كثيرا فى تسليمه بوجود طبقـات فى كل أنمـاط المجتمع خلاف المجتمعات العتيقة ، ومجتمع المستقبل ، أى الشيوعية حين يتم تحقيقها • وثمة اعتبارات علمية بحتة دفعتـه غالبـا الى الاعتراف بأن الطبقات لم تظهر الا فى القرن السابع عشر ، أى فى الفترة المعاصرة لنشأة المصنع وظهور نزعة التصنيع اللذين وصفهما وصفا دقيقا فى كتاب رأس المال • وقبل هذا التاريخ ، وتحت مختلف المجموعات المتدرجة ، المفروضة

وشبه المقفلة ، كالطوائف ، والرتب ، والمراتب ، والجماعات الحائزة للنصاب اللازم للانتخاب ، ونقابات رؤساء العمل والصناع ، كانت تتوارى مجموعات متقاربة اقتصادياً (أغنياء وفقراء ، ملاك ومعدمون ، أصحاب ثروات كبيرة وصغيرة ، أشخاص لهم مراكز مضمونة وأشخاص لا عمل لهم) • وعندما كانت هذه المجموعات الفعلية تتعارض مع الجماعات المفروضة بدلا من أن تتوافق معها ، ثم تتفوق عليها ، وتتوطد كقوى مستقلة (كما حدث في اليونان في عصر الطغاة ، وفي عهد الاسكندر ، وفي روما الامبراطورية ، وفي المدن المتحررة في نهاية العصر الوسيط) ، كانت الخصومات السافرة في المصالح الاقتصادية تقوم بين بعض أقسام السكان • غير أن ذلك لم يكن يحدث بين طبقات اجتماعية ، لأن هذه المجموعات لم تكن دائمة ، ولم تكن كبيرة الحجم جدا ، ولا متفتحة بدرجة كافية ، ولم يكن عندها وعي نوعي أو ايديولوجية نوعية ؛ وكانت تستجيب للاندماج مع المجتمع الكلي • وعلى ذلك فان ضروب التماثل كانت ظاهرية فحسب ، ذلك لأن التكنيك الصناعي الحديث مقترنا بازالة كل الفواصل القانونية والسياسية بين المجموعات ، وتحرك الأعداد الكبيرة من الناس ، والتطور الهائل في كل وسائل النقل والمواصلات الممكنة ، كل ذلك قد خلق البيئة اللازمة لتكون الطبقات • ومن جهة أخرى فان هذا المفهوم الذي كان ينزع اليه ماركس كلما قام بعمل علمي خالص (والذي لم يفلح لوكاش الميتافيزيقي نفسه في تفاديه) لم يكن في ذاته مناقضا بالمرة لمذهب الماركسية الاجتماعي والسياسي الذي يتوقع زوال الطبقات في المجتمع الشيوعي القادم • فقد يبدو في الواقع لأول وهلة أن اثبات كون الطبقات الاجتماعية الحقيقية لم تظهر الا مع النظام الرأسمالي انما يؤيد نظرية تلاشي الطبقات في نمط آخر من البناء الاجتماعي الكلي بدلا من أن يضعفها •

واذا كان ماركس ، ومن باب أولى الماركسيون ، قد ترددوا في

التسليم صراحة بهذه النتيجة ، فذلك لأن ثمة باعثين على ما نعتقد قد اعترضا هذا التسليم :

١ ـ انه لا يمكن تصور النظام الشيوعى دون تصنيع متزايد • واذا زدنا اصرارا على ربط الطبقات الاجتماعية بالتصنيع ، ثار السؤال فى شأن ما اذا كانت الطبقات الاجتماعية خليقة بأن تختفى فعلا فى نظام آخر أكثر تطورا فى الصناعة من النظام الرأسمالى • وهذا لا يعنى بالطبع القول بأن الطبقتين البورجوازية والبروليتارية سوف يبقيان دواما ، ذلك لأنه يمكن ببساطة توقع تشكيل طبقات أخرى جديدة • ولكن ثمة أسبابا أخرى أقوى من اعتبارات الفقه الاجتماعى والسياسى التى تضع مثلا أعلى هو فى الأكثر ضرب من الخيال البعيد ، قد منعت الماركسيين من استخلاص النتائج التى تترتب على الربط بين الرأسمالية وولادة الطبقات •

٢ ـ لعل الباعث الآتى هو الأرجح : ذلك أن تطبيق المادية التاريخية أو المادية الجدلية كوسيلة للتفسير قد جرى فى الأغلب عن طريق الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقى • فالاقرار بأن الطبقات الاجتماعية لم تظهر الا فى عصر الرأسمالية يعادل فى نظر بعض الماركسيين التسليم ـ ضمنا على الأقل ان لم يكن صراحة أو ما يقرب من الصراحة كما هو الأمر عند لوكاش ـ بأن المادية التاريخية أو الجدلية تصح فقط بالنسبة الى النظام الرأسمالى ، لا بالنسبة الى غيره من النظم ، اذا ما كان لكل نمط من المجتمع الشامل حتميته الاجتماعية الخاصة به• ومن هنا ندرك علة تراجع أغلبية الماركسيين أمام مثل هذه النتيجة ، ونزداد فهما للسبب فى الضراوة التى يدافعون بها عادة عن وجود الطبقات فى كل المجتمعات المعروفة حتى يومنا هذا ، فيما خلا المجتمع الشديد القدم ومجتمع المستقبل •

ومع ذلك يحق لنا أن نتساءل : هل حقيقة أن المادية التاريخية فى حاجة الى وساطة الصراع الطبقى حتى يتسنى تطبيقها ؟ فاذا اتضح صحة المادية التاريخية بالنسبة الى أنماط أخرى من المجتمع خلاف المجتمع

الرأسمالى ، فانا لا نرى أساسا أية عقبة تحول دون استخدامها مثـلا فى تفسير ظاهرة أن الطبقات الاجتماعية لم يكن فى المسـتطاع وجـودها فى المجتمعات غير المتطورة فى الصناعة ، أو لتفسير الأبنية الاجتماعية المقابلة لها وما يعلوها من أبنية ايديولوجية ، وذلك بطريق مباشر بواسطة تطور قوى الانتاج • وان الاستناد الى الطبقـات الاجتمـاعية ليثبت بالأولى أن التفسير الذى تقـدمه المادية الجـدلية موجز واجمـالى ، وتجريدى بل ومذبذب (كما يبدو واضحا فى مثال قوى الانتاج التى تقتصر أحيانا على المظهر المادى ، وأحيانا تضم المعرفة ، والطموح ، وأخيرا العمل المشـترك الذى يؤديه الناس جماعات وأفرادا) •

ويؤدى بنا هذا الى المصاعب الأخيرة فى نظرية ماركس عن الطبقات الاجتماعية • فقد أوضح ماركس بصورة تدعو الى الاعجاب أن للطبقات الاجتماعية حتمية اجتماعية خاصة بها • فالبورجوازية ، والبروليتاريا ، والبورجوازية الصغيرة، والمشرفون التكنو بيروقراطيون، بل والبورجوازية المالية والتجـارية والصـناعية ، كل هؤلاء يظهرون حتميتهم الخاصـة ، ويتحركون فى نطاقهم الزمنى ، ويشكلون من أنفسهم اطارا يصلح مرجعا لأعمالهم الثقافية الخاصة ، من معرفة وقانون وأخلاق وفن ولغة وتربية ، وكذا لايديولوجيتهم الخاصة التى تبرر وجودهم • هذه الحتمية يمكن أن تقع فى نزاع ، ليس فقط مع الحتمية الاجتماعية لدى الطبقات الأخرى ، وانما أيضا مع حتمية الأبنية الكلية التى تدخل الطبقات فى تركيبها ، وذلك قبل أن تصل هذه الطبقات الى السلطة ، أو بعد أن تنزع منها السلطة • وقد بالغ لينين وروزا لوكسمبرج ولوكاش فى الحديث عن هذه الحتمية الاجتماعية الجزئية للطبقات الاجتماعية ، خاصة فيما يتعلق بحتمية طبقة البروليتاريا • وأوضح لينين بجلاء الحتمية النوعية لدى الطبقات الريفية، وكذا لدى التكنو بيروقراطية •

ومع ذلك فقد كان حريا بالماركسـية أن تصف المنازعات والثغرات

المحتملة بين حتمية المجتمع الكلى وبين الحتمية الجزئية للطبقات • فأحيانا تتغلب هذه الأخيرة على الحتمية الكلية ، ومن ثم تصير المبدأ المفسر لها • وعلى العكس من ذلك تخضع حتمية الطبقات الجزئية أحيانا للحتمية الكلية ، أو تجعلها تحيد جزئيا فقط عن اتجاهها • غير أن الماركسية فضلت توحيد هاتين الحتميتين (الجزئية والكلية) بايجاز فى حتمية واحدة ، ومن ثم هدمت النتائج المترتبة على اكتشاف من أهم اكتشافاتها ، وفضلا عن ذلك لم تكف الماركسية الحقة عن الدعوة الى بذل الجهد والارادة والعمل ، وبالاجمال الى حرية الانسان الفردية والجماعية فى مسيرة المجتمع •

وتتمثل الصعوبة الأخيرة فى النظرية الماركسية للطبقات فى ارتباطها بفلسفة « الأخرويات » فيما يتعلق بوظيفة البروليتاريا ؟ اذ جعلت هذه الطبقة « منقذة » للجنس البشرى ، ومنحتها قوى خفية اعجازية قادرة على تحقيق التحويل النهائى للمجتمع • حقا انه لفى الامكان التسليم بأن الانتقال من نمط المجتمع الحاضر الى نمط آخر يرتبط بالعمل الثورى الذى تقوم به البروليتاريا ، بل وحتى قيامها بالتخلص من الرأسمالية • غير أنه لا يترتب على هذا بالمرة أن يكون وضع البروليتاريا استثنائيا ، وأنه لا بد أن يؤدى الى بناء مجتمع لا طبقى وحل جميع المشاكل التى تنوء بها الحياة الاجتماعية والفردية • وللوصول الى نظرية واضحة للطبقات الاجتماعية يتحتم حل المصاعب التى توقف دونها الفكر الماركسى• وسأحاول فى الجزء الثانى من هذا المنهاج أن أرى ما اذا كانت هذه المشكلة قد أمكن حلها بمعرفة النظريين غير الماركسيين فى الطبقات الاجتماعية أمثال شمولر وباريتو وفيبر وشومبتير وسوروكن فى الخارج ، والمدرسة الدوركايمية وخاصة موريس هالفاكس فى فرنسا • وبعد أن أبين أن جهودهم لم تأت بالثمار المطلوبة ، سأحاول فى الجزء الثالث أن أحدد مفهومى الخاص •

الجزء الثاني

مفهوم الطبقات الاجتماعية لدى المنظرين غير الماركسيين

الدرس التاسع

جوستاف شمولر Gustav Schmoller

أخصص هذا الجـزء الثانى من دروسى لتحليـل بعض المفاهيم غير الماركسـية عن الطبقات الاجتمـاعية • وسـأدرس آراء شـمولر وباريتو وماكس فيبر وشـومبتير ومؤلفين أخر متـأثرين بهذا الأخير • والسـمة المشـتركة لدى هؤلاء المؤلفين هى أنهم كانوا جميعا اقتصـاديين ، مع أن وجهة النظر الاقتصادية البحتة لم تكن هى الغالبة لدى باريتو أو فيبر أو شومبتير • وبعد هذا سـأتناول عمل الاجتمـاعيين مثل موريس هالفاكس الذى يعتبر فى هذه المادة أقدر ممثل للمدرسة الدوركايمية التى صاغت نظرية الطبقات الاجتماعية الأكثر تقـدما وحاولت تجميع وجهات النظر الاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية • وفيما بعد ذلك أبرز سوروكن الخاصية الشديدة التعقيد التى تتميز بها الطبقات الاجتمـاعية ، وضرورة تطبيق مجموعة من المعايير لتحديد مفهومها • والمؤلفات الأمريكية الحديثة فى « الشرائح الاجتمـاعية » strates sociales (التى ذكرتها فى بداية دروسى) لم تأت بجـديد أو بشىء جـوهرى بالنسـبة الى هـذه النظريات ، ومن ثم يمكن الاغضاء عنها •

فى التعريفات غير الماركسية للطبقات الاجتماعية تنوع كبير ؛ وقدمت هذه التعريفات طائفة كبيرة من المعـايير ، كالمهنة ، والدخل ، والثروة ،

وارتفاع درجة الكفاءة الشخصية والقيمة الذاتية ، واحتكار المركز والطريق الى المال ، والوظيفة ، ونوع المعيشة ، بل وحتى القدرة على التزاوج أو مجرد تبادل الزيارة بين زوجات أفراد الطبقة الواحدة . غير أن الشيء الذى يميز كل هذه الشروح هو التخلى عن فلسفة تاريخ مرتبطة بالتكهن بزوال الطبقات ، ومحاولة التحرر من التقيد بمذهب اجتماعى وسياسى معين ، والشك من ناحية وحدة طبيعة صراع الطبقات ، ودورها الوحيد فى مختلف الأبنية والأحداث الاجتماعية ؛ وانكار المادية التاريخية كأساس ضرورى لنظرية الطبقات الاجتماعية ، ونبذ الرابطة بين هذه النظرية ونظرية « الدولة السياسية » ؛ وأخيرا اهتمام بسيكولوجية الطبقات الاجتماعية أكبر بكثير من الاهتمام بأعمالها الثقافية التى تخصها الماركسية باصطلاح « الايديولوجية » المائع المتعدد القيم .

وقد يصح اعتبار بعض هذه النقاط مزايا بالأرجح، وخطوات تقدمية خطاها علماء الطبقات الاجتماعية غير الماركسيين . ومع ذلك لا يصدق هذا الا بشروط معينة : فليس ثمة كسب جديد اذا وضعت فلسفة تاريخ فى مقابل فلسفة تاريخ أخرى (كما فى حالة باريتو وشومبتير كما سنرى) ، أو اذا أنكر مذهب اجتماعى لصالح مذهب آخر فحسب (الأمر الذى يمكن ملاحظته لدى شمولر وفيبر وشومبتير) . ولا يجوز فضلا عن ذلك المبالغة فى التركيز على وجهة النظر السيكولوجية — حتى ولو كانت سيكولوجية جماعية (وهى غلطة نجدها عند باريتو ، وهالفاكس، وجوبلو ، وشومبتير). والمأمول حقا النجاح فى صوغ مفهوم ايجابى للطبقة الاجتماعية باعتبارها « ظاهرة اجتماعية كلية » مع الاهتمام بكل ما فيها من تعقيد ، وادماجها دفعة واحدة فى نظرية عامة للمجموعات الخاصة الأمر الذى لم يحاول المؤلفون السالف ذكرهم ولا الكتاب الماركسيون القيام به .

* * *

جوستاف شمولر اقتصادى ألمانى مشهور فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؛ حاول أن يربط مفهوم الطبقة الاجتماعية

بفكرة المهنة . نجد فى مؤلفه الرئيسى « مبادىء الاقتصاد السياسى » المترجم الى الفرنسية عرضا تفصيليا لمفهومه . قام بتحليل مفهـومه ومناقشته فى فرنسا موريس هالفاكس فى رسالته « طبقة العمال ومستويات المعيشة » (١٩١٣) ، وفى دروسه المطبوعة بالرونيو « الطبقات الاجتماعية » (فصل عن « المهن والدخول ») . واليكم ما نطالعه فى الجـزء الثانى من كتاب شـمولر (انظر الباب بعنوان « فكرة تكوين الطبقة وطبيعتها وأسـاسـها السـيكولوجى ») : « نعنى بالطبقـات تقسـيم المجتمع الى عدد معين من جماعات كبيرة (...) تضم الأفراد أو الأسر التى لهـا ظروف واحـدة متشابهة : وهى جمـاعات مغلقة الى حـد ما ، تتكون لا بحسب روابط القرابة أو الاقامة ، وانما بحسب المهنة ، ونوع العمـل ، والحيـازة ، والثقافة ، بل وكثيرا بحسب الحقوق السـياسية . وليس ذلك للاشتراك معا فى مزاولة عمل واحد ، وانما لاكتساب الشـعور بجماعتهم بصـورة جدية ، واقامة علاقات اجتماعية فيما بينهم ، والسعى الى تحقيق مصـالح مشتركة . ولقد خبرت كل الشعوب الكبيرة المستقرة التى تخطت مرحلة التكوين القديم بطريق الأجناس والقرابات نوعا من تقسيم السـكان تبعا لطبيعة المهن والعمل ، وكانت تتكون من طبقات اجتمـاعية منوعة تتعايش معا أو يعلو بعضـها بعضا . « تلك هى جمـاعات الأفراد أو الأسرة التى كان يطلق عليها فيما مضى اصطلاح المراتب stände طالما كان لها وجود قانونى ، وكانت وراثية ، وتعرف الآن باسم الطبقات » .

ويبرز هذا التعـريف الذى يقـدمه شـمولر بكثرة ما يحتويه من الحشو وعبارات النفى : فهو يقدم الى جانب المهنة ، الثقافة ، والمصـالح المشتركة ، والشعور بالجماعة ، و « اقامة علاقات اجتماعية » و « وجود جماعات كبيرة » ، وفكرة امكان وجود الطبقـات اما فى مستوى تدرجى واحد ، أو على العكس من ذلك فى درجات مختلفة . وبقيت بعض هذه المميزات دون تفسير (كالجماعة الثقافية ، والشـعور بالجماعة) ، ولعلها

تشهد بأن شمولر قد أدرك بعض الشيء عدم كفاية معياره الرئيسي وهو المهنة ، ومن ثم لجأ مثلا الى « العلاقات الاجتماعية » .

ولندع شمولر يتحدث قليلا قبل أن ننقده : « يقول انجلز ان تقسيم المجتمع الى طبقات يقوم على قانون تقسيم العمل . فاذا كانت هذه هي عبارة واحد من قادة الديموقراطية الاشتراكية ، فليس ثمة عقل منصف ومعتدل يستطيع أن ينكر أن الثقافة العالية التي تعتمد بالفعل على تقسيم العمل لا بد أن تشتمل على وجود طبقات اجتماعية مختلفة » . « ان الحاجة الى الصلات بين أكبر عدد من الناس تجد سبيلا الى اشباعها بأيسر الوجوه في دائرة الأشخاص الذين يزاولون مهنة واحدة ؟ وهذه المهنة هي أقوى أساس لكل تشكيل طبقي . ويعتمد الفرد فيما يختص بمكانته الشخصية على ما يتمتع به من الاعتبار لدى أفراد مهنته، وبهذا ينمو الشعور بارتباطه بالجماعة الاجتماعية » . وهكذا فالجماعة المهنية اذ تحل محل جماعة القرابة وجماعة المكان ، وتقوم بدور البيئة السيكولوجية والاجتماعية للفرد ، فانها توجه الفرد في المجتمعات الكبيرة الى الانضمام في طبقة اجتماعية .

« ويبدو نمو نظام من الطبقات ، وتدرج الطبقات أمرا ضروريا بقدر ضرورة تشكيل الطبقات (عن طريق المهن) » . حقا ان المهن قد تشغل نفس المرتبة الاجتماعية ، وتتمتع بنفس الاعتبار ، وتؤدي الى توزيع واحد للسلطة والمال والدخل والثروة . على أن هناك في الواقع مهنا تصعد وأخرى تهبط ، من جهة الثروة التي تدرها والتقدير الشخصي الذي تخلقه . « يقدر الرأي العام الجماعات المهنية التي تقوم على تقسيم العمل، وكذا طبقات الشعب تبعا لما كانت عليه هذه الجماعات ، وما هي عليه الآن بالنسبة الى المجتمع بجملته ، ويعين لها مكانها بالتالي . ويجري هذا بطبيعة الحال وفقا لآراء العصر في خصوص ما هو أهم للمجتمع من ناحية الأخلاق والسياسة ، ومن وجهة العمل الاقتصادي » .

« ان الانسان الذى يعرف كم تعتبر الطاهية البارعة نفسها أعلى درجة من الخادمة العادية ، والى أية درجة يعتقد الخادم فى منزل أحد الأمراء أنه أعلى درجة من خادم فى منزل بورجوازى ، وكيف يعتبر البناء ونجار العمارة صاحبا الخبرة أنفسهما أعلى شأنا من العامل البسيط ؟ والانسان الذى يعرف كيف أن هذه الفروق فى المرتبة على الرغم من تعصبنا الحاضر للمساواة ، تترجم بشكل قوى فى آراء ودخول هؤلاء الأشخاص » ، مثل هذا الانسان خليق بأن يفهم أن تدرجا ما فى المهن ، وبالتالى فى الطبقات « ضرورة سيكولوجية فى جميع الأزمان » .

« قصارى القول أن ذلك الذى ينتمى الى طبقة ما ، سواء كان دخله كبيرا أم صغيرا ، يطالب بالمكانة نفسها التى يتمتع بها غيره من أعضاء طبقته . وأفراد كل طبقة تربطهم بعضهم ببعض وشائج اجتماعية ، فيتزوجون بصفة خاصة داخل طبقتهم ، ويلبسون بكيفية واحدة ، أو باسلوب مماثل على وجه التقريب ، ولهم أسلوب واحد فى التغذية ، وفى السلوك ، ويراعون نفس العادات فى اجتماعاتهم وألعابهم وحفلاتهم، ويسافرون فى السكك الحديدية فى عربات من درجة واحدة » .

وباختصار فان شمولر يقدم الى جانب المهنة والاعتبار الشخصى المتدرج ، ودون أن يلحظ ذلك ، معيارا مستقلا يتضمن مستوى المعيشة ونوعها ، وأسلوب الاستهلاك ، والحاجات واشباعها .

ويعارض شمولر نظرية « أمون » Ammon و «لابوج» Lapouge اللذين يعتبران الأجناس سببا فى تكوين الطبقات الاجتماعية . وينقد ماركس الذى يحصر أساسها فى الدور الذى تؤديه فى الانتاج. « المشكلة كلها أخلاقية وسيكولوجية من جهة ، وتتعلق من جهة أخرى بالنظم الاقتصادية والسياسية وتطورها . ومن الخطأ محاولة استخلاص تكوين الطبقات وما يترتب عليه من نتائج من التكنيك ومن توزيع الأموال ، كما أنه من الخطأ محاولة اثبات زوال الطبقات الاجتماعية كلها فى المستقبل

لنفس الأسباب المذكورة » • « كل طبقة ، مثل كل جماعة بشرية أخرى أداة للتنظيم الأخلاقى • ومن شأن آداب الطبقة وكرامتها تربية الأفراد ، وتهذيب أخلاقهم ، وحملهم على التضحية والنظام والطاعة » • « مرتبة الطبقات هى المرتبة المناسبة لمتوسط القدرات المنوعة والخدمات المبذولة • ونصادف هذا فى وقت تكوين الطبقات الحديثة أكثر مما تصادفه حين تكون الطبقات الاجتماعية قد أصبحت قديمة ومتجمدة (•••) وكلما وزعت الطبقة السائدة الحيازة والسلطة والرتب والنفوذ توزيعا سيئا على غير ما يوافق الصفات المتوسطة للأفراد ، ازداد تعرض الحالة الاجتماعية للمخاطر » •

وشمولر ، شأنه شأن الكثير من المؤلفين الذين درسوا مشكلة الطبقات ، يبرز هذه الطبقات فى كل أنماط الأبنية الكلية ، الأمر الذى يتضح فى وصفه لضروب الصراع الطبقى خلال العصور ، وفى مناقشته لمشكلة سيطرة الطبقات • ثم انه ينتهى بالتأكيد الى امكان الربط بين نزوع طبقة العمال الى دعم دكتاتورية شخصية وبين العرف الملكى فى بروسيا• ومن رأى شمولر أن فى مقدور النظام الملكى الألمانى أن يخلق توازنا جديدا بالحث على ايجاد تحالف بين الموظفين والعسكريين والعمال الكادحين ضد البورجوازية • ونال هذا الرأى بعض النجاح لدى نفر من رجال الفكر الألمان مثل شبنجلر **Spengler** الذى تناوله بعد شمولر بربع قرن فى كتابه **Preussentum und Sozialismus** (١٩١٩) ، الذى كان له بعض التأثير على النازية وعلى الفاشية الايطالية •

نرى أن شمولر فى تحليله لمشكلة الطبقات لم يتحرر من كل قصد نظرى وسياسى كما كان يريد أن يحمل الناس على الاعتقاد بذلك • على أن ثمة نقاطا كثيرة تتطلب بعض التحفظات حتى نقوم بنقد مفهومه فى الطبقة الاجتماعية ، ويكفى أن نصرف اهتمامنا الى النقاط الآتية : فأولا ، تصادف النظرية التى تقول بأن المهن هى التى تؤدى الى تكوين الطبقات الاجتماعية

عدة مصاعب ، أشار الى بعضها أحد معاصرى شمولر ، وهو الاقتصـادى « كارل بوخر » Karl Bücher الذى ألح فى كتابه « أصل الاقتصاد القومى » على النقاط الآتية :

(ا) تقسيم العمل الاجتماعى ، وخاصة التقسيم الى مهن ، ليس هو السبب فى تكدس الثروات ، وانما هو الأثر المترتب عليها • ومن ثم فان الطبقات الاجتماعية هى التى تدفع الى اختيار المهنـة ، وليس العكس هو الصحيح •

(ب) الاســـتعداد المهنى ليس وراثيـا ، طالما أنه لا يرتبط بالثروة ولا بوسائل الانتاج •

(ج) يتناول شـمولر المهن أحيـانا بمعنـاها الضيق ، أى باعتبارها جماعة حقيقية ، وأحيانا بمعنى شديد الاتساع باعتبارها فئة مهنية ، وبهذه الكيفية وحدها يستطيع أن ينتقل من المهنة الى الطبقة ؛ ولكنه يجد نفسه عندئذ أمام عناصر شديدة التنافر • اليكم على سبيل المثال مجمـوعة أو فئة من الأشخاص « لا مهنة لهم » ولا انتاج لهم ، ولنقل انهم « العاطلون » أو « المتكاسلون » الذين ذكرهم سان سيمون • قد يكونون من المتشردين أو أصحـاب الايراد الذين لا يعملون ، أو المتقـــاعدين ، أو أصحـاب الملايين ، أو ملاك الأراضى • فهل حقا يشكل هؤلاء معا طبقة اجتماعية ؟ اذا قبلنا مثل هذه الفكرة ، كان من اللازم بالمثل تكوين طبقة خاصة بالمهن الحرة ، تضم المعلمين والمدرسين والقضاة والأطباء والمحامين دون مراعاة لمركزهم الفعلى •

(د) يقول « بوخر » أخيرا انه ليس ثمة تدرج وجوبى فى المهن ، لأن كل المهن ضرورية وعلى قدم المساواة ، بغض النظر عما تدره من ربح وعن المكانة التى تشغلها فى المجتمع • هذا التدرج لا يصدر اذن عن المهن نفسها ، وانما هو أثر لانتمائها الى طبقات مختلفـة ، أى مجموعات مرتبة فى تنظيم متدرج •

وتبدو لى انتقادات بوخر هذه متصلة تماما بالموضوع ، دون حاجة الى قبول معياره الخاص بتكوين الطبقات ، وهو الغنى والثروة . فالواقع أن هذا المعيار يلغى الطبقات باعتبارها جماعات ويحل محلها عددا غير محدود من الشرائح strates . وفوق ذلك لا يهتم بوخر بحقيقة أن الثروة هى عنصر نسبى ومتغير من طبقة لأخرى ، ومفهومه يلغى كل عنصر سيكولوجى وثقافى فى الطبقة ، ويجردها من كل مضمون اجتماعى خاص باعتبارها « ظاهرة اجتماعية كلية » ، أى أن تفكير بوخر لا يقاوم الاغراء بالنزعة الآلية والاسمية .

أما « جوبلو » Goblot (فى كتابه الذى اسلفنا ذكره فى درسنا الأول « الحد والمستوى » ، دراسة اجتماعية فى البورجوازية الفرنسية ، ١٩٢٥) فانه ، دون أن يذكر شمولر ، صاغ من وجهة النظر السيكولوجية اعتراضات أخرى صحيحة ضد استخدام المهن كأساس للطبقات الاجتماعية . واليكم ما يقوله فى الفصل الثالث بعنوان « الطبقات والمهن » : « الطبقات هى التى تؤثر فى اختيار المهن . فالبورجوازى لا يعمل نجارا أو صانع أقفال أو خبازا أو حداداً » . « هناك رجال ذوو مهن مختلفة كل الاختلاف ، ولكنهم متماثلون من حيث أنهم بورجوازيون، ويعاملون بعضهم بعضا على قدم المساواة (...) والطبقات هى التى تجمع المهن وتفرقها » . « يرى البورجوازى أن هناك الكثير (...) من الحرف الحقيرة التى يراها غيره مع ذلك طيبة ومحترمة . فالمهن الكريهة أول كل شىء ، تدنس الأيدى أو الملابس (...) . وهناك مهن شاقة كحمل الأثقال ، وتداول الأدوات الثقيلة ، واتخاذ أوضاع مجهدة ، وتكرار حركة رتيبة بطريقة آلية (...) . وهناك أخيرا الحرف اليدوية عموما حتى ولو كانت تستخدم أدوات خفيفة كالريشة أو الابرة » . ويبدو واضحا أن الحرفة فى هذه الحالات الثلاث قد استبعدتها الطبقة. وبالنسبة الى كل هذه الأنشطة فان : « البورجوازية تهتم اهتماما كبيرا بحفظ المسافة التى تفصلها عنها ، كما تفعل مع خدم المنازل » . « وعلى هذا فان

البورجوازية تحتفظ لنفسها بالمهن التي تتسم بالمبادرة ، والقيادة ، والذكاء ، وتترك للطبقات الشعبية الحرف التي فيها التنفيذ والطاعة والمجهود البدني » • ومع ذلك فيجب الاحتراز من مماثلة البورجوازية بالمهن الحرة : « اذا كانت البورجوازية الحديثة متفوقة في الذكاء والثقافة ، فان أولئك الذين يطلق عليهم منذ زمن قصير اسم « المفكرين » قد يشكلون طبقة أعلى من البورجوازية ، أو طبقة فرعية داخل البورجوازية تشغل مرتبة أعلى • ولكن الأمر ليس كذلك بالمرة (•••) • فالمفكرون (•••) بورجوازيون ، وفي مرتبة اجتماعية قليلة الارتفاع اذا لم يكونوا بورجوازيين الا بفضل كفاءتهم • والتقدير الذي يحمله الناس لأشخاصهم فيه شيء من اللبس : فلا يدري الانسان تماما ما اذا كانت هذه المهن وضيعة أم رفيعة ، مرموقة أم محتقرة • وتختلط الكيفية التي يحكم بها الناس عليهم بشيء من عدم الرضا أو العطف المترفع » • « وبالاجمال فان المهن كالدخول ، تضع الناس في صفوف لا في طبقات » • فالطبقة تتصدر المهن ، وتختارها ، وترتبها اذا لزم الأمر •

وفي عهد قريب أثار عالم الاجتماع الأمريكي ب• سوروكن P. Sorokin في كتابه « المجتمع ، والثقافة ، والشخصية » (١٩٤٧) وفي مقاله « ما هي الطبقة الاجتماعية ؟ » في صحيفة
(Cahiers internationaux de Sociologie, vol. II, 1947)
اعتراضا آخر ضد استخدام المهنة أساسا لتكوين الطبقات الاجتماعية • فالمهنة أو الحرفة كما يقول رابطة « احادية الوظيفة » uni-fonctionnel في حين أن الطبقة تتضمن مجموعة من الوظائف ، فهي متعددة الوظائف multi-fonctionnelle (واعتقد ، كما سنرى فيما بعد ، أن الطبقة هي جماعة « فوق وظيفية » supra-fonctionnel ، تتضمن مجموعة الوظائف) • وعلى كل حال ، فان النزول بالطبقة الى مجرد مهنة أو عدد من المهن ، يعني استبدال صفة الوظيفة الواحدة ، بتعدد الوظائف ، وبالتالي اضعاف الواقع الاجتماعي للطبقة بدرجة كبيرة • ويلاحظ سوروكن أن

هذا هو السبب فى اضطرار شمولر الى تقديم معايير أخرى خلاف المهنة ، الأمر الذى يعنى الاعتراف ضمنا باخفاقه •

وليس عندى ما أضيفه الى هذه الانتقادات المختلفة الموجهة لنظرية شمولر الا الشىء القليل جدا • وانما يتجلى لى فقط أنه يحسن لفت النظر الى أن شمولر قد شعر بالفعل بأن الطبقة ليست حشدا اسميا أو فئة مجردة للتصنيف ، وانما هى كل لا يقتصر على مجموع أفراده ، وجماعة واقعية• واعتقد أنه قد وجد هذه الجماعة الواقعية فى المهنة ، لأنها هى التى تحيط الفرد بأكبر قدر من الألفة وتفرض عليه أنظمة ملموسة (الوعى المهنى)• وفى هذا ضل الطريق • فهو لم ينتبه أولا الى أنه يوجد فى مجتمعنا الحاضر المتطور فى الصناعة حرف أو مهن لا تشكل بالفعل جماعة واحدة • وهو قد استلهم بدرجة كبيرة مثال الطوائف الحرفية فى العهد الوسيط ، التى لم تكن تشكل مجموعات قابلة للبناء فحسب ، وانما مجموعات مبنية بالفعل ، بل ومنظمة تنظيما قويا • بيد أن ثمة عددا كبيرا من المهن والحرف فى مجتمعنا الحاضر لا تشكل بالمرة جماعات قابلة للبناء : فالخراطون والبرادون وغيرهم فى الصناعة الكبرى لا يشكلون جماعات• ويصدق هذا النظر أيضا بالنسبة الى بعض المهن الحرفية فى الوقت الحاضر • وفضلا عن ذلك ففى النطاق الذى تشكل فيه المهن جماعات ، لا تفعل ذلك الا فى داخل اطار الطبقات الاجتماعية ووفقا للتدرج الذى يقوم بينها فى داخل الطبقة الواحدة (مثال ذلك فى طبقة البروليتاريا حيث نجد حرفة العامل المشتغل فى الكتب فى قمة السلم ، وحرفة العامل فى الموانىء فى أسفله • أما بخصوص معايير هذا التدرج ، فقد تتزاحم فى صدده القيم العقلية والخلقية من جهة ، وقائمة الأجور من جهة أخرى)•

وفات شمولر بالمثل أن جماعة (المهنة) مختلفة أساسا عن جماعة (الطبقة الاجتماعية) التى لها مضمون أغنى بكثير من كل المجموعات المهنية منضمة بعضها الى بعض • ويتأكد هذا الأمر فضلا عن ذلك اذا علمنا

أن المهن كانت موجودة فى كثير من أنماط المجتمعات التى كانت خالية من الطبقات الاجتماعية • وقد تميز ظهور هذه الطبقات الاجتماعية بصفة خاصة مع حركة التصنيع بانحلال وزوال الجماعات المهنية • ولم يتأت للحركة النقابية المهنية العمالية التى نمت منذ أواخر القرن العشرين ، أن تسهم فى اقامة بناء للمهن الا حين رسخت أقدامها كممثلة لطبقة البروليتاريا ، أسوة بالأحزاب السياسية الاشتراكية والشيوعية • وعلى ذلك فان نظرية شمولر كلها تزعم من هذه الوجهة أنها تفهم الظاهرة الجديدة نسبيا ، ظاهرة الطبقة الاجتماعية ، وذلك بتجزئتها الى ظواهر اجتماعية ، حلت محلها الطبقة الاجتماعية • وفى هذا النظر ادانة قاسية للغاية لمفاهيم شمولر • واذا كنت قد توقفت طويلا عند هذه المفاهيم ، فذلك لأنها لم تخل من الأثر فى تفسيرات باريتو ، وماكس فيبر ، وشومبتير التى استمرت تتمتع بالثقة والتقدير دون أن تستحقهما هى الأخرى •

فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto

باريتو عالم ايطالى فى الاقتصاد والاجتماع ، زاول التدريس طول حياته فى لوزان ، وكتب بالايطالية والفرنسية . ألف كتبا فى الاقتصاد ، مثل « دروس فى الاقتصاد السياسى » ١٨٩٦ – ١٨٩٧ و « الموجز فى الاقتصاد السياسى » ١٩١٩ و « الأنظمة الاشتراكية » جزءان ١٩٠٢ – ١٩٠٣ . وضع بالمثل مصنفا ضخما « دراسة فى علم الاجتماع العام » فى جزئين ، الأول فى ١٩١٧ والثانى فى ١٩١٩ (يضم فى المجموع ١٧٦١ صفحة) . حاول باريتو أن يماثل بين مشكلة الطبقات الاجتماعية وبين مشكلة « الصفوة القيادية » ، والشرائح couches أو القطاعات المحكومة ، و « تنقلات الصفوة » . وعرض مفهومه – الآلى ، الفردى ، الاسمى ، القائم على سيكولوجية موجزة للغرائز – فى الفصول ١١، ١٢، ١٣ من الجزء الثانى من كتابه « دراسة ... » وكان لمفهومه هذا تأثير قوى فى الولايات المتحدة التى عانت بين ١٩٢٥ ، ١٩٤٠ أزمة « باريتية » حقيقية ، ولم يكن كذلك غريبا عن مفاهيم فيبر وشومبتير بصفة خاصة.

يصف باريتو وجود الطبقات الاجتماعية بأنه ظاهرة « اللاتجانس الاجتماعى » التى تبدو له شائعة فى كل المجتمعات : « الحقيقة ، سواء أرضت العلماء أم لم ترضهم ، أن المجتمع البشرى ليس متجانسا ؛ فالناس

مختلفون جسما وعقلا وخلقا • ونريد هنا أن ندرس الظواهر الواقعية • وعلى ذلك يجب أن نأخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار » • وعلينا أيضا أن ندخل فى تقديرنا حقيقة أخرى ، وهى أن الطبقات الاجتماعية ليست منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال (•••) ، وأنه تجرى فى الأمم المتحضرة الحديثة تحركات قومية بين الطبقات المختلفة • « لنفرض (•••) أنه يعطى لكل فرد ، فى فروع النشاط الانسانى كلها ، رقما يحدد قدراته ، بالكيفية التى تقدر بها الدرجات فى الامتحانات فى المواد المختلفة التى تدرس بالمدارس ، على وجه التقريب• فنعطى مثلا درجة ١٠ للمتفوق فى مهنته ، ودرجة ١ لمن يفشل فى الحصول على عميل واحد ؟ ودرجة الصفر للغبى ، شديد الغباء • ونعطى درجة ١٠ لمن استطاع أن يربح الملايين ، سواء بطريق الخير أو الشر ؟ ودرجة ٦ لمن يربح بضعة آلاف من الفرنكات ، وصفرا للنزيل فى ملجأ للفقراء » • « لنشكل اذن طبقة تضم أولئك الذين يحصلون على أعلى الدرجات فى الفرع الذى يمارسون فيه نشاطهم ، ونطلق على هذه الطبقة اسم « الصفوة » • عندنا اذن شريحتان من السكان •

١ ـ الشريحة السفلى وهى طبقة الناس من غير الصفوة •

٢ ـ الشريحة العليا وهى الصفوة التى تنقسم قسمين :

(ا) الصفوة الحكومية •

ب ـ الصفوة غير الحكومية • قصارى القول أن الطبقات الاجتماعية ليست الا حشودا اسمية أو مجموعات من الأشخاص من بينهم أولئك الذين يشكلون الصفوة ، وهم الحائزون على أعلى الدرجات فى الفرع الذى يزاولون فيه نشاطهم •

ويرتبط هذا المفهوم عند باريتو بنظرية سيكولوجية تصلح لتمييز العلاقات بين الطبقات القيادية والطبقات المنقادة : تلك هى الرواسب

résidus وهى انفعالية émotifs ، والاستنباطات dérivations وهى مسوغات عقلية لهذه الرواسب ، وتختلف فى الطبقات العليا عنها فى الطبقات السفلى • ويرد باريتو الرواسب الانفعالية الى نوعين: رواسب « ثبات الحشود » persistance des agrégats ورواسب التدابير combinaisons (وهى ترجمة غير صحيحة للفظة combinazione الايطالية) • هذه الرواسب ـ التى يصفها باريتو كثيرا بأنها غرائز ـ يعبر عنها بصفة خاصة فى طبائع « السباع » و « الثعالب » • « تلجأ الطبقة الحاكمة الى الخداع والغش والرشوة لكى تمنع العنف أو تقاومه ، وبعبارة واحدة تنقلب حكومة « السبع » ثعلبا ؟ وتنحنى الطبقة الحاكمة أمام التهديد بالعنف ، ولكنها لا تستسلم له الا فى الظاهر ، وتسعى جاهدة أن تتجنب العقبة التى لا تستطيع أن تتغلب عليها جهارا • وينتج مثل هذا السلوك على المدى الطويل أثرا قويا على اختيار الطبقة الحاكمة التى يدعى الثعالب وحدهم للانضمام اليها ، بينما يقصى عنها السباع • « وعلى هذا النحو تتقوى رواسب غريزة التدبير فى الطبقة الحاكمة ، وتضعف رواسب ثبات الحشود ، لأن الأولى فى الحقيقة نافعة فى فن الحيل لاكتشاف التدابير البارعة التى تستخدم بدلا من المقاومة السافرة ، فى حين تنزع رواسب النوع الثانى الى هذه المقاومة السافرة ، ويحول شعور قوى من ثبات الحشود فيها دون مرونتها » •

ويترتب على تفوق غرائز التدابير ، وضعف ثبات الحشود أن تقنع الطبقة الحاكمة أكثر فأكثر بالحالة الحاضرة ، ويقل اهتمامها بالمستقبل • وتزداد أهمية الفرد كثيرا عن الأسرة ، والمواطن عن الجماعة والأمة • « فاذا كان فى الطبقة المحكومة عدد معين من الأفراد المستعدين لاستخدام القوة ، ومعهم زعماء قادرون على قيادتهم ، فانا نلحظ فى الكثير من الأحيان أن الطبقة الحاكمة تفقد سلطتها وتحل محلها طبقة أخرى » • « ويحدث فى الثورات عامة أن أفراد الشرائح السفلى يقودهم أفراد من الشرائح

العليا ، لأن هؤلاء الأخيرين يتمتعون بالصفات العقلية التى تؤهلهم للحرب والنضال ، فى حين أنهم مجـردون من الرواسب التى فى حـوزة أفراد الشرائح السفلى • ويستهدى باريتو نظريته الخاصة بالرواسب ، فيدرس امكانيات السياسات المختلفة التى تستلهمها الطبقات العليا والطبقات السفلى فى صراعاتها ، ومهادناتها وتدابيرها ، « وفضـلا عن ذلك فان الفـرق فى الطبيعة ينمو على المدى الطويل بين الطبقة الحاكمة وبين الطبقة المحكومة• فعند الأولى تميل غرائز التدابير الى السيطرة ، فى حين يتجلى هذا الميل فى غرائز ثبات الحشود عند الثانية • وعندما يصبح الفرق كبيرا بدرجة كافية تندلع الثورات » •

فالرواسب ، والمصالح ، والاستنباطات ، وعدم الاتساق ، وتنقلات الصفوة ، أمور تتفاعل وتؤثر بعضها فى بعض ، وتختلف فى شدتها وفقا للظروف ، وتؤدى بالتبادل دور العلة حينا ، والمعلول أحيـانا • وتجرى هذه الأمور فى دورات كاملة يعطى باريتو عنها أمثلة تاريخية • وفى هذا الجزء من كتابه يركز على عنصر النسبية فى فكره •

ويعود باريتو الى الصراع الطبقى فيؤكد أن الطبقات الرئيسية لدى الشعوب الحديثة المتقدمة فى الاقتصاد والتصنيع ليست طبقات العمال أو البورجوازيين، وانما المضاربين وأصحاب‌الريع **spéculateurs et rentiers** (ويشير اليهم بايجاز بحرفى (R.S)) ، ويستهل بالتصريح بأن الناس خلطوا ولم يزالوا يخلطون تحت اسم « اصحاب رءوس الأموال » ، بين الأشخاص الذين يحصلون على دخل من أراضيهم ومدخراتهم من ناحية، وبين أصحاب الأعمال من ناحية أخرى ، الأمر الذى يضر كثيرا بمعـرفة الظاهرة الاقتصادية ، ويضر أكثر من ذلك بمعرفة الظاهرة الاجتماعية • والواقع أنه كثيرا ما يكون لهاتين الفئتين من الرأســماليين مصالح مختلفة وأحيانا متعارضة ؛ بل انها تتعارض أكثر مما تتعارض مصـالح الطبقـات المسماة بالرأسماليين والبروليتاريين • فمن الوجهة الاقتصادية ، نجد أنه

من مصلحة رجل الأعمال أن يكون عائد الادخار وغيره من رءوس الأموال التى يقترضها من حائزيهـا أقل ما يمـكن • وعلى العكس من ذلك فان مصلحة هؤلاء الحـائزين أن يكون هذا العـائد أكبر ما يمكن (•••) • وفى مقدور صاحب العمل بوجه عام أن يلقى عبء كل مصروف أو خسارة على عاتق المسـتهلك • أما المدخر العـادى فانه لا يسـتطيع ذلك فى كل الأحوال تقريبا » • « وفى هذه الأحوال يكون لأصحاب الأعمال والعمال مصلحة مشتركة تتعارض مع مصلحة أصحاب المدخرات العاديين• والأمر كذلك بالنسبة الى أصحاب الأعمـال والعمـال فى الصـناعات التى تتمتع بالحماية الجمركية » •

« وليست التناقضات أقل من ذلك شـأنا من الناحية الاجتمـاعية • ويدخل فى صفوف أصحاب الأعمال ، أولئك الأشخاص الذين نمت فيهم غريزة التدبير ، وهى غريزة لا غنى عنها للنجـاح فى هذه المهنـة • أما الأشخاص الذين تتغلب عندهم رواسب « ثبات الحشود » فانهم يبقون بين المدخرين العاديين • ومن ثم كان أصحاب الأعمال عامة أشخاصا مغامرين، يبحثون عن كل جديد فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ؛ ولا يتضايقون من الحركات وانما يأملون الاستفادة منها » •

« تمهد لنا الحقائق التى ذكرناها آنفا الطريق الى تصنيف أعم يشمل التصنيف السابق ، يجب أن نستخدمه كثيرا فى تفسير الظواهر الاجتماعية• لنضع فى فئة نسميها S (المضاربين) الأشخاص أصحاب الدخل المتغير أساسا الذى يعتمد على قدرتهم فى العثور على مصادر للربح• فاذا تدبرنا المسألة بصورة عامة وأهملنا الاستثناءات ، وجدنا فى هذه الفئـة أصحاب الأعمال بصفة خاصة ، وهم الذين تحدثنا عنهم منذ هنيهة ، ووجدنا معهم بصفة جزئية على الأقل، حائزى اسهم الشركات الصناعية والتجارية (•••)؛ وكذلك ملاك المبانى فى المدن التى تزاول فيها المضاربات العقارية ، وكذا ملاك الأراضى بشرط مماثل ، أى وجود مضـاربات على هذه الأراضى ؛

ثم المضاربين فى البورصة ، والمصرفيين الذين يربحون من قروض الدولة ، والسلف التى تمنح للصناعات والتجارة • ونضيف الى هؤلاء كل الأشخاص التابعين لهم : كموثقى العقود والمحامين والمهندسين والسياسيين والعمال والمستخدمين الذين يستفيدون من العمليات السالف ذكرها • وبالاجمال فانا نجمع معا كل الأشخاص الذين يحصلون على ربح من المضاربة ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، والذين يسهمون بمختلف الوسائل فى انماء دخولهم باستغلال الفرص بمهارة » •

« ولنصف فى فئة أخرى نسميها R (أصحاب الدخول) الأشخاص ذوى الدخل الثابت أو شبه الثابت الذى لا يعتمد كثيرا على التدابير البارعة التى يمكن تصورها • ويظهر فى تلك الفئة بوجه الاجمال أصحاب المدخرات العاديون الذين يودعون مدخراتهم فى صناديق التوفير والمصارف أو الذين يستغلونها فى الحصول على رواتب مدى الحياة أو معاشات ، وأولئك الذين تتكون دخولهم أساسا من سندات الدين العام ، أو سندات الشركات ، أو غير ذلك من السندات المماثلة ذات الدخل الثابت : كأصحاب العمارات البعيدة عن المضاربة ، والزراع ، والعمال ، والمستخدمين التابعين لهؤلاء الأشخاص أو الذين لا يعتمدون على المضاربين بصورة ما • وأخيرا فانا نجمع على هذا النحو الأشخاص الذين لا يحصلون على أية فائدة من المضاربة ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، والذين لهم دخول ثابتة أو شبه ثابتة أو قليلة التغير » •

« تؤدى الفئتان فى المجتمع وظائف متنوعة المنافع • فالفئة S هى بوجه عام مصدر التغيرات والتقدم الاقتصادى والاجتماعى • أما الفئة R فانها على العكس من ذلك عنصر قوى من عناصر الاستقرار الذى يتجنب فى عدد كبير من الحالات أخطار الحركات المغامرة التى تقوم بها الفئة S • والمجتمع الذى يسوده أفراد الفئة R وحدهم تقريبا يبقى جامدا وكأنه قد تبلور • أما المجتمع الذى يغلب فيه الأفراد من الفئة S

فيعوزه الاستقرار : فهو فى حالة توازن غير مستقر قد يهدمه حادث خفيف فى الداخل أو فى الخـارج » • « لا يجوز الخلط بين الأفراد R وبين المحافظين ، ولا بين الأفراد S وبين التقدميين والمجددين والثوريين، وقد يكون بينهم نقاط مشتركة ، ولكن ليس بينهم أى تماثل » •

« تتوقف النسب المختلفة التى توجد فيها الفئـات R. S فى الطبقة الحاكمة على أنواع المدنيـة المختلفـة • وتعتبر هذه النسب من السـمات الرئيسية التى يعتد بها فى التدرج الاجتماعى • فاذا أولينا انتباهنا مثلا الى الدورة التى ذكرناها آنفا ، قلنا ان الانتاج الصناعى فى البلاد الديموقراطية الحديثة يرفع من نسبة الأفراد S (المضاربين) فى الطبقة الحاكمة • ويترتب على هذا النمو زيادة جديدة فى الانتاج ، ويستمر الأمر على هذا المنوال الى ما لا نهاية اذا لم تتولد قوى تتصدى لهذه الحركة » • « لكى تحتفظ الطبقة الحاكمة بالسلطة فانها تستخدم أفرادا من الطبقة المحكومة؛ ويمكن تقسيم هؤلاء الأفراد الى فئتين ترادفان الوسيلتين الرئيسيتين التى يمكن بهما ضـمان الحصـــول على هـذه السلطة • فثمـة فئـة تستخدم القوة (•••) ، والفئة الأخـرى تستخدم الحيلة • وعلى هذا النحو ننتقل من موالى السياسيين الرومان الى أشياع سياسيينا فى الوقت الحاضر » •

ولا يمكن العثور على أى أثر للأخلاق بمعناها الصحيح فى نشـاط الطبقات ولا فى العلاقات بين الطبقات • وباريتو رجل لا أخلاقى ، يردد كلمات رجل لا أخلاقى آخر من أهل وطنه ، هو «ماكيافيلى» **Machiavel** المفكر السياسى لعصر النهضة الذى كتب يقول : « كبار اللصوص يقودون صغار اللصوص الى السجن » • ومع ذلك يميز باريتو فى داخل الطبقة الحاكمة ثلاثة أقسام يتميز بعضها عن بعض بسـلوكها : « رجال (•••) يتبعون بدقة شديدة بعض قواعد السـلوك (•••) ورجال يقنعون بالتمتع بالسلطة والمراكز السامية ويتركون لأتباعهم المزايا المادية؛ ورجال يبحثون لأنفسهم ولأتباعهم عن مزايا مادية ، تتمثل فىالغالب فى النقود »• ورجال

الفئة الثانية هم الذين تتجلى قدرتهم على الحكم لأنهم يستخدمون الفئة الأولى ستارا لهم ، ويغطون فى الوقت نفسه ، بنزاهتهم الظاهرية على الأقل ، الدسائس المقلقة التى يحيكها أفراد الفئة الثالثة .

وكتب باريتو فيما بعد : « فى أوائل القرن التاسع عشر ، لم تكن الطبقة الحاكمة تعتبر أن الاستنباطات (التى ابتدعها بعض المفكرين وارتضاها المضاربون رغم علمهم بلغوها) لا تؤذى ، كما أنها لم تكن تعتقد بنفعها ، وذلك اما لأنها (أى الطبقة الحاكمة) كانت تملك رواسب « ثبات الحشود » بكميات أكبر مما بقى لها فى الوقت الحاضر ، واما لأنها لم تكن قد استفادت علما من التجربة التى ساعدتها بعد ذلك . ومن ثم فانها جعلت تلاحقها بالردع عن طريق القانون . ولكنها أدركت بعد ذلك وبالتدريج أن هذه الاستنباطات لم تكن بالمرة عقبة فى سبيل مكاسبها ، وأنها على العكس من ذلك كانت أحيانا بل وكثيرا فى صالحها ؛ ومن ثم أصبحت الطبقة الحاكمة اليوم متساهلة ، ولم يعد القانون يردع هذه الاستنباطات . وفى حين كان الماليون الأثرياء كلهم تقريبا من المحافظين ، أصبحوا اليوم يؤيدون المفكرين الثوريين والاشتراكيين بل وحتى الفوضويين . وان أشنع ألوان القدح فى « الرأسمالية » لتسجل بمعونة « الرأسماليين » . وثمة رأسماليون ليست لديهم الشجاعة الكافية للمضى بعيدا فى هذا السبيل ، ولذلك يندسون على الأقل فى صفوف الراديكاليين »

وفى عهد الرأسمالية المتطورة ، يؤدى كل هذا بصفة خاصة فىالطبقة الحاكمة الى تمتع الأشخاص الحائزين على رواسب « التدبير » ولهم طبيعة «الثعلب» بالتفوق والتسلط . على أن هذه الظاهرة قد تنتهى بمرور الزمن الى انحلال هذا النظام والى تحرك الصفوة من جديد .

ثم ان باريتو لم يهتم بصفة خاصة بتحليل وضع الطبقات ، والصراع الطبقى واحتمالاته فى المستقبل فى نمط معين من المجتمع ، وكذا فىالبناء الاجمالى الحاضر . ويختم « دراسته فى علم الاجتماع » بفصل خاص فى

« التوازن الاجتماعى فى التاريخ » ويعرض صياغة مبادىء عامة أو قوانين عامة للتوازن الاجتماعى ، معتمدا على أمثلة من أنمـاط المجتمع شـديدة الاختلاف . ويرتبط هذا التوازن الاجتمـاعى القـائم بين الطبقة القيادية والطبقة المنقادة بالنسبة الملحوظة فى الطبقتين بين الأفراد الذين يستلهمون رواسب المحافظة على الحشـود ، وبين الأفراد الذين يسـتهدون رواسب « التدابير » ، الأسود والثعالب ، أصحاب الدخول والمضاربين . « الفائدة الرئيسية لمشاعر الثبات فى الحشود هى التصـدى بصـورة فعالة للميول الضارة بمصلحة الفرد ولجموح العواطف . أما عيبها الرئيسى فهو أنهـا تدفع الى أعمال تترتب منطقيا على هذه المشاعر ولكنها تضر بالمجتمع » . والفائدة الكبرى لشعور « التدبيرات » هى جعل الطبقات القيادية متحركة ومفتوحة أمام تصـاعد الشرائح السـفلى ؛ ذلك لأن الصفوة من الأفراد تنحل دواما ؛ والمضاربة بكل معانيهـا ، بما فيها ثراء أكفأ الأفراد ، تتيح لهؤلاء الأفراد النفاذ الى داخل الطبقـات القيـادية . غير أن أكبر عيوب راسب «التدابير» يتمثل فى تجـريد هذه الطبقات القيـادية ان عاجلا أو آجـلا من قدرتها على المقـاومة مع اتاحتهـا فى الوقت ذاته امكانية سـوء استعمال السلطة لصالح الأفراد . ومن ثم يكون المد والجـزر بين هذين النوعين من الرواسب اللذين يميزان فى وقت واحـد السـعى الى اقامة التوازن ، وتنقلات الصفوة .

ولا يجوز الظن بأن باريتو فى سعيه لاكتشاف التوازنات الاجتماعية، كان يجهل احتمالات التمرد والثورة ، ولكنه يرى فقط أن آثارها تدخل ضمن الملاحظات التى شـكلهـا . وكتب خاصـة : « فيمـا يتعلق بنتائج محاولات التمرد ، يصرح الكثير من الناس دون أى تفصيل آخر بأن كل تمرد فشل وقمع كان فيه خسارة على الطبقة المحكومة ، أو كان على الأقل عديم النفع لها (...) . ولكن الحقيقة أن محاولات التمرد الفاشلة هذه يجب أن تعتبر مظاهر لقوة تقل فى بدايتها عن القوة التى قهرتها ، ولكنها

تنتهى بالانتصار عندما تقع الكارثة الختامية • وقد تضعف هذه المحاولات من تلك القوة ، أو أنها لا تعمل بالقدر الكافى ، بيد أنها قد تزيد من شدتها ، وهذا أمر يتوقف على الظروف • وأخيرا فقد يحدث فى الكثير من الأحايين ، أن محاولات التمرد هذه تكون من نتائج القوة الكبيرة التى تجهر بها » • والأمر فى هذه الصورة كما فى الصورة السابقة انما يتعلق بمراحل فى ثورة من شأنها التعجيل بتنقلات الصفوة ، واعادة توزيع الطبقة القيادية والطبقة المنقادة بأسلوب جديد ، ولكن دون أن تغير شيئا فى التوازن القائم على تقسيم المجتمع الى هاتين الطبقتين •

حاولت ها هنا أن أبسط مفاهيم باريتو مع بقائى قريبا بقدر الامكان من نصوصه ، والاستشهاد بفقرات من كتابه « دراسة فى علم الاجتماع »• وأبدأ الآن فى نقد هذه المفاهيم •

يلوح لى أنه من العبث الالحاح كثيرا على تلك الحقيقة الواضحة ، وهى أن نظرية باريتو فى الطبقات ، شأنها شأن نظرية ماركس ، تقوم على فلسفة تاريخ ، وعقيدة سياسية واجتماعية خاصة • ولكن مبادىء باريتو هى على النقيض تماما من الافتراضات الماركسية : فالصفوة التى تشكل الطبقات القيادية سوف تحتفظ دواما بالسلطة ، وهى التى صنعت التاريخ وسوف تصنعه على الدوام ، والتاريخ ليس الا ميدانا لتنقل الصفوة • والمذهب السياسى الذى يستند اليه باريتو مذهب أرستقراطى لا تكافئى **inégalitaire** : ذلك أن كل فكرة تكافئية **égalitaire** سياسية كانت أم اقتصادية ليست الا فكرة استنباطية انسانية لا أثر لها الا أن تكون ستارا يحجب رواسب « التدابير » والمضاربة • ويمضى باريتو الى أبعد من ذلك ، فيطلق صيحة تحذير الى الطبقات القيادية فىالمجتمع الرأسمالى الحاضر قائلا : « كفوا عن اللعب بالاستنباطات الانسانية التى قد تصبح خطرة فى الظروف الحالية ، وعودوا الى شعور المحافظة لدى الحشود ، والى طبيعة « الأسد » واستخدام القوة البحتة بدلا من الحيلة • وقد وعت

الفاشية الايطالية تمـاما هذا النداء ••• ثم انه يكفى قراءة بعض كتابات موسولينى وأعوانه وخطبهم لمعـرفة المدى الذى استقت فيه الايديولوجية الفاشية أعمال باريتو • ولعل باريتو يعتبر من ناحية فلسـفته فى التاريخ ومذهبه السياسى مبشرا من أهم مبشرى الفاشية •

ولكننى فى نقدى لنظرية باريتو فى الطبقات الاجتماعية سـوف أدع جانبا هذا المظهر ، وأركز كل اهتمامى فى المصاعب الداخليـة والتعارض فى التحليل النظرى لأعمال هذا المؤلف • فهو أول كل شىء لم يوفق فى فهم الطبقة على أنها كل لا يتجزأ ، وجماعة حقيقية ، ووحدة جماعية لهـا أعمال مشتركة تؤديها ، ووحدة فى الاتجاهات ، وفى الأعمـال والسلوك تشكل اطارا اجتمـاعيا قابلا للبنـاء ، بل ومتكاملا فى أغلب الأحـوال • والطبقة الاجتماعية فى مفهوم باريتو ليست الا حشـدا ، فئة مجـردة ، مجموعة من الأفراد لهم علامات متماثلة • نحن اذن بصـدد نزعة اسمية مفرطة لا تبـدو قادرة على ادراك حقيقـة المجتمع الاجمـالى الذى يضم الطبقات ، ولا حقيقة الطبقات نفسـها • وتتأكد هذه الملاحظة عند باريتو حين يتحدث ، فى موضوع الدفاع الذاتى للطبقات وخاصة الطبقة العليا ، عن الغريزة ، أو الشعور ، أو « راسب المحافظة عند الحشد » • فهو لم يستطع بالذات أن يرى الجماعة الا أنها حشد ! وفى المقاومة التى يبديها هذا الحشد ، ولأن الأمر يتعلق « بغريزة الحشد » ، لم ينجح فى تمييز شىء خلاف نزعة محافظة نسبها مع ذلك الى الأفراد الذين يكونون الحشد•

يؤدى بنا هذا الى الملاحظة الثانية • ففى تفسير باريتو لما هو طبقة ، ولمـا هـو جمـاعة groupe (ولا تمييز عنـده بين مختلف أنمـاط المجموعات (groupements) وما هو جمـاعى collectivité تمتزج نزعته الاسمية ونزعته الفردية المضطربتين بنزعة صورية formalisme [1]

(١) الصورية formalisme : اتجاه يرمى الى انكار قيمة الناحية المادية والموضوعية ، ولا يعتد الا بالناحية الصورية فى المعرفة والاخلاق والجمـال (مجمع اللغة العربية)

كلية فيما يختص بالمعيار الذى يحكم عملية الاختيار فى تكوين الطبقات .
هذا المعيـــار هو « التفـوق » supériorité فى ذاته ، التفـوق الذى لا نعرف من أى نوع هو ، وكيف يتكون . بل انا لا نعرف ان كان تفوقا فى الثروة أو الدخل أو الكفاءة المهنيــة ، أو تفوقا عقليـا أو سـياسيا أو عسكريا أو دينيا أو غير ذلك . وفضلا عن ذلك فان باريتو اذ يعتبر كل جماعة collectivité مجرد جموع من الأفراد ، فانه لا يسـتطيع ، عندما يريد أن يحدد رتبتهم ، أن يلجأ الى التقديرات والآراء والمعتقدات الجماعية . ومن ثم يجد نفسه فى دائرة مفرغة .

وثالثا ، فهو حين يستبدل بالطبقات الاجتمـاعية ، الطبقـات القيادية والطبقات المنقادة ، التى تقابل على التوالى الصفوة والشرائح السفلى ، فانه انما يقر بالفـراغ الذى انحصر فيــه . فهذا التقسيم من وجهـة البنـاء النظرى ، ليس الا نتيجة تطبيق المعيار الشكلى البحت الخاص بالتفوق فى ذاته ، والمستخدم لتكوين مجموعات من الأفراد يسميهم بصورة تعسفية « طبقات » . هذه الصـورة تؤدى الى وضع غير منطقى من جهـة ، والى عدم القدرة على فهم وتفسير تعارض الطبقات وصراعها من جهة أخرى .

أقول ان فى ذلك وضعا غير منطقى : فالواقع أنه اذا كان للطبقـات الاجتماعية وجود بالفعل ، فان مشكلة الصفوة عندما تثور يجب أن تدخل فى كل طبقة . فمن المقبول مثلا أن نبحث عن صفوة الطبقة البورجوازية أو طبقة الفلاحين أو الطبقة التكنو بيروقراطية ، وهكذا دواليك. ولم يكن عبثا أن تحدثت النقابية الثورية قبل الحرب العـالمية الأولى عن « الأقليات الفعالة » minorités agissantes فى طبقــة العمــال ، وهى صيغة استخدمها لينين بصفة جزئية . وعند هذا يجب البحث عن عدم التجانس الاجتماعى وتنقلات الصفوة بالمعنى الذى قصده باريتو ، وذلك فى داخل الطبقات الاجتماعية ، بدلا من اعتبارها أسسا لوجود هذه الطبقـات . ثم ما هو البرهان الذى يقدمه باريتو على أن التقسيم الى طبقات يطابق التميز

بين ما هو صفوة وبين ما هو ليس كذلك ؟ لا بد أنه أدرك أن هذا التطابق المفروض بين الصفوة وبين الطبقة القيادية أو السائدة يضعف بالتدريج ، ولذلك فهو يقدم فكرة تنقلات الصفوة، الا يعنى ذلك الاقرار، ولو بصورة غير مباشرة أو واعية بأن المماثلة بين مشكلة الطبقة ومشكلة الصفوة نسبية للغاية ـ فهى تتوقف على وجهة النظر المعروضة ـ وأن الصفوة تتغير لا مع نمط المجتمع ، والبنـــاء ، والأحـداث ، والعصر التـاريخى ، والطبقـة الاجتماعية ، وانما تتغير أيضا بالنسـبة الى القيم السحرية ، والدينيـة ، والسياسية ، والعقلية ، والجمـالية الخ • التى تعرض على بسـاط البحث (فصفوة السحرة والمؤمنين والثوريين والمحافظين والعلماء والكتاب ورجال السـياسـة والخبراء الفنيين فى فرع معين ، وغير هؤلاء ، ليست صـفوة واحدة !) • بالنسبة الى كل هذه النظرات ، فانا نتبنى الصيغة التى وضعها «جوبلو» Goblot فى عبارته « من المستحيل أن تكون طبقة ما صفوة الطبقات ، ومن المستحيل كذلك أن تكون الصفوة نفسـها طبقة » (الحد والمستوى ، ١٩٢٥) •

ليست تلك فحسب هى أوجه الضعف فى مفهـوم باريتو • وحتى بصرف النظر عن مشكلة الصفوة ، فان استبدال الطبقة القيـادية والطبقة المنقادة بالطبقة الاجتماعية يتضمن نتيجة خادعة تمنع من فهم عمل الجهاز الاجتماعى الحقيقى الذى يؤدى الى سيطرة طبقة على سواها من الطبقات• فالنتيجـة اعتبرت سـببا • ذلك أنه طالما كان الأمر يختص بأنمـاط من المجتمعات تتواجد فيها الطبقـات الاجتمـاعية ، فان العـلاقة النوعية بين هذه الطبقات ـ وتتكون من صراعات ومهـادنات أو توازنات ـ هى التى تيسر نوعا من توزيع السلطة السياسية والاقتصـادية ، ان لم يكن تقسيم هذه السلطة • وقد تتصارع طبقات اجتماعية مختلفة فيما بينها فى حين أنها قائمة فى جانب واحـد من الحاجز ، أى أنهـا اما أن تكون من القـادة (كملاك الأراضى والبورجوازيين والتكنو بيروقراطيين) أو من المنقادين

(البروليتاريا والطبقات المتوسطة والفلاحين ، وأشباه ذلك) • وفى المجتمعات غير المتطورة صناعيا ، حيث لا أعتقد أنه يمكن أن تتحدث فيها عن طبقات بالمعنى الصحيح ، توجد جماعات (طوائف ، مراتب ، أنظمة ، مهن ، الخ) ذات امتيازات ، أو قريبة من السلطة ، أو حائزة على السلطة• وليس من شأن الأسلوب الذى يتبعه باريتو بمفهومه عن الصفوة المطابقة للطبقة القيادية الا تشويش كل تمييز ممكن بين الأنواع المختلفة للمجموعات القائمة فى ذروة نظام مدرج • فاذا طبق مصطلح الطبقة القيادية بهذا المعنى أصبح ينصرف حتى الى حكومة الشيوخ gérontocratie القديمة والقبلية • وهذا تخلف صريح بالنسبة الى ماركس •

يلجأ باريتو الى سيكولوجية فردية النزعة بدائية وتافهة قائمة على فعل الغرائز المبنية بطريقة عشوائية : غريزة الحفاظ على الحشد ، وغريزة « التدابير » combinazione اللتان يعبر عنهما فى راسبين انفعاليين يقابلانهما ، الشىء الذى يهدد نظريته عن الطبقات بدلا من أن يقويها • وفكرته عن طبائع الأسود والثعالب لها سمة الصحافة الرديئة ، فلا تقوم على تحليل سيكولوجى واجتماعى يمكن الاعتماد عليه• والشىء الذى يميز تفكير باريتو هو الوهم الذائع بأن ما هو اجتماعى انما هو شىء انفعالى بحت • والاستنباطات العقلية المنسوجة على الرواسب الانفعالية تكون أكثر تحررا وتسمح بالابتعاد عن الحياة الاجتماعية وتخطى التقسيم الى طبقة قيادية وطبقة منقادة • ومن ثم لا يوجد سوى راسبين انفعاليين فى سيكولوجية باريتو ، فى حين أن هذه السيكولوجية تتيح عددا غير محدود من الاستنباطات العقلية •

ويجهل باريتو كل الجهل سيكولوجية وسوسيولوجية عصره؟ يجهل ان السلوكية behaviorisme [1] قد اسهمت فى محو نظرية الغرائز ،

---

(1) السلوكية (مدرسة) behaviorisme مذهب انشاه العالم الأمريكى « وطسون » J.B. Watson يرفض الشعور موضوعا والاستبطان منهجا ، كما يرفض الأخذ بعناصر الشعور ، ويستعيض عنها بالمنبه والاستجابة ، وتكون العادة ، =

ويجهل ما أسهم به التحليل النفسى ، ويجهل أن علم الاجتماع ، وخاصة الفرنسى قد أبان أن التلون الروحى للعنصر العقلى انما ينتمى الى المجال الاجتماعى بصفة خاصة • وهو لا يبحث أى احتمال لتدخل الوعى الطبقى ـ وهى مشكلة طرحتها الماركسية دون أن تجد حلا لها ؟ ويهمل مشكلة العلاقة بين الأعمال الثقافية والطبقات الاجتماعية • بل انه لا يمس مسألة العقلية الجماعية ، والوعى الجمـاعى ، والذاكرة الجمـاعية ، والمعتقدات الجماعية فى مثل عليـا • ونتيجـة لذلك ، تجلى عجز باريتو ، رغم نزعته السيكولوجية ، عن أن يوضح بأية صورة كانت سـيكولوجية الطبقات ، وسيكولوجية المجتمعات الاجمالية التى تتصارع فى داخلها الطبقات ـ وهى مجتمعات ، اذا نجح فيها الرأى العام ، أو بعبارة أفضل الرأى الجماعى فى تأكيـد ذاته ، فانه خليق بأن يقـودها الى تقـدير الطبقات ، ومن ثم الى تنظيمها •

يتضح بجلاء فشل التحليل السيكولوجى الذى أجراه باريتو ، لأن « رواسب الحفظ لدى الحشد » ، ورواسب « التدابير » ، حتى اذا طابقت الحقيقة الواقعة فى نمط معين من المجتمع ، فانها قد لا تقابل شيئا فى أنماط أخرى (مثال ذلك ، فى المجتمع الأبوى القديم société patriarcale أو المجتمع المتعدد الشرائح polysegmentaire ، أو المجتمع الشيوعى، وغيرها) أو أنها فى المجتمع الواحـد قد تتأكد فى بعض الطبقـات دون طبقات أخرى (ففى الامكان العثور عليها فى الطبقـة البورجوازية ، فى حين لا يمكن ذلك فى الطبقة البروليتارية ، الخ) • وفضلا عن ذلك فانه لو فرض أن مشـاعر « الحفظ لدى الحشـد » و « التـدابير » قد تكون مرعية أحيـانا فى بعض أنمـاط المجتمعـات ، وبعض الطبقـات ، وبعض المجموعات ، فان هذه « الرواسب » خليقة بأن تتخـذ معنى مختلفـا كل الاختـلاف حسب الأطر (الكوادر) الاجتمـاعية • فهل كان لغـريزة

= وتكامل العادة ، ويقرر ان الفعل المنعكس الشرطى أسـاس الاكتسـاب والتعليم • (المعجم الفلسفى) •

الحفظ لدى الحشد مثلا نفس المضمون والاتجاه عند الاقطاعيين ، والحاشية في العهد القديم ، والبورجوازيين والتكنو بيروقراطيين ؟ كلا بالطبع • هذه الاعتبارات تحملنا على أن نثبت نقصا آخر خطيرا في كل هذا البناء • فباريتو لا يقيم أى وزن فى تحاليله للفرق بين الأنظمة أو الأنماط الاجتماعية أو لتنوع الأبنية الكلية والجزئية • وهو ضحية لنزعته الاسمية الفردية ، ونزعته الرياضية الآلية التى يحاول تطبيقها فى تحليل الحياة الاجتماعية بكيفية متناقضة للغاية : وذلك عن طريق سيكولوجية مبسطة للغرائز• ويسوقه هذا الى البحث عنقوانين عامة للتوازن الاجتماعى وتنقل الصفوة • ولكنه لا يصل الا الى مواضع مشتركة ، ترددت مرارا لدى أنصار الارستقراطية وخصوم مذهب المساواة • وعلى هذا تتوارى تماما مشكلة الطبقات الاجتماعية وموقفها فى المجتمع الحالى • وفى الامكان التحقق من صحة هذه النتيجة السلبية تماما باثبات أن باريتو قد انتهى الى استبدال الخلاف بين المضاربين وأصحاب الريع ، بالخصومة بين البورجوازية والبروليتارية• وهو يؤكد بجدية أن الكادحين يتبعون أحيانا المضاربين وأحيانا أصحاب الريع الذين يعتقد أن مصالحهم أقل عرضة للنقصان من مصالح البروليتاريين والبورجوازيين ! ولم يأخذ انسان مثل هذه النتيجة مأخذ الجد فيما عدا رجال الدعاية الفاشيين والنازيين الذين اختاروا الانحياز الى أصحاب الريع ضد المضاربين حتى يصالحوا بين جميع الطبقات الاجتماعية ، مع اعطاء التعارضات السالفة مضمونا اقتصاديا ، فى حين استند باريتو بصفة خاصة الى مظهرها السيكولوجى • وهنا يبرز بجلاء على أية حال العنصر الايديولوجى المستتر وراء نظرية باريتو فى الطبقات • فهذه النظرية تسعى الى هدف صريح ، هو تمويه الخصومة بين الطبقات الاجتماعية الحقيقية حينما كانت هذه الخصومة شديدة الجلاء ، فيستبدل بها تعارضات خيالية •

وأخيرا ، فانه يبدو لى أن مثل هذا المفهوم لا يمثل الا فائدة علمية وحيدة ، ذلك أنه يشــكل مثالا للشىء الذى يجب تحاشيه : وهو الكيفيــة التى لا يجوز بها عرض المشكلة اذا أريد فهم نشاط الطبقات الاجتماعيــة فهما علميا ، واذا كان الانسان لا يريد أن يتخلف فى هذا الصدد عن كل من ماركس ودوركايم •

الدرس الحادى عشر

ماكس فيبر Max Weber

من واجبى ، لمتابعة هذه الدراسة فى المفاهيم المختلفة للطبقات الاجتماعية ، أن ألخص فى هذه المحاضرة آراء ماكس فيبر (الاجتماعى والاقتصادى الألمانى المعروف الذى توفى عام ١٩٢٠) • فماكس فيبر ، فى مؤلفه الذى نشر بعد وفاته «الاقتصاد والمجتمع» ، ١٩٢٥ ، لم يخصص للطبقات الاجتماعية سوى بضع صفحات ولكنها تتضمن تعريفات مفيدة فى تحليلها • ثم هو يمس فى هذا الكتاب مسألة العلاقات بين الطبقة والدين مستندا خاصة على التفصيلات التى أعطاها فى كتابه « رسائل فى علم الاجتماع الدينى » (الأجزاء ١ ــ ٣ ، عام ١٩٢٠) فى شأن العلاقة بين « الكلفنية » (١) والرأسمالية • فمن رأى فيبر أن طبقة الرأسمالية لم تكن فى استطاعتها أن تتكون دون تدخل اللاهوت الكلفينى • وليس من شك فى أنه يتخذ فى هذا الصدد موقفا مضادا مباشرة لموقف كارل ماركس الذ ى كان هدفا لجدله ، والذى يعتبر ايديولوجية كل دين وكل عقيدة دينية ، بالاضافة الى كل عمل ثقافى آخر • ولو افترضنا أن ماركس ناقش هذه المشكلة فانه كان قمينا أن يعتبر الكلفنية من الايديولوجيات المحتملة فى الطبقة الرأسمالية الناشئة ، ولكنها ليست أساس وجودها نفسه •

---

(١) calvinisme (مذهب دينى مسيحى) نسبة الى جون كلفن (١٥٠٩ ــ ١٥٦٤) لاهوتى فرنسى بروتستانتى من رجالات الاصلاح ــ المترجم •

وفيبر اسمى النزعة مثل باريتو . وهو لا يسلم الا بالفرص ، و « الاحتمالات الراجحة » في تصرفات الأفراد التى لها معان اجتماعية ، أى الموجهة تبعا لسلوك غيرهم من الأشخاص والمعنى الذى يسنده اليها هؤلاء الأشخاص . ويقترح التميز بين « وضع الطبقة » و « الطبقة » . « فوضع الطبقة هو الفرصة النموذجية للحصول على احتكار ايجابى أو سلبى بالنسبة الى توزيع الأموال فى صفوف الأشخاص المعنيين وتبعا لأقدارهم بصفة عامة » . « والطبقة كل جماعة من الأشخاص الموجودين فى نفس الموقف الطبقى » . وليس من الضرورى لتشكيل الطبقة أن تنتظم فى جمعية أو أن تمثل بناء أو وحدة ما . هذا شىء ممكن ولكنه ليس ضروريا . ويكفى أن يكون بعض الأشخاص المتفرقين أو مجموعة معينة من الأفراد لا يعرف بوجه التحديد الجهات التى ينتمون اليها فى « موقف طبقى واحد » . وكتب فيبر « الوضع الطبقى والطبقة ليسا الا دلالات لمصالح نمطية متماثلة أو متشابهة ، تختص بافراد أو بمجموعة من الأفراد » .

ويحدد فكرته فى نص آخر بالعبارات الآتية : « الطبقات ليست مجتمعات محلية communautés (...) ولكنها تمثل قواعد ممكنة لأنواع السلوك المشترك » . « وقد تصبح أية طبقة بيئة لسلوك طبقى متعدد الأشكال ، ولكن هذا ليس ضروريا ، ويخطىء الانسان اذا اعتبر هذه الأشكال « مجتمعات محلية » وعلى هذا النحو أيضا يصل الانسان الى نتيجة خاطئة تماما فحواها أنه فى حين يخطىء الأفراد كثيرا فيما يختص بمصالحهم ، فان الطبقات على العكس من ذلك لا تخطىء أبدا .

والمراتب états القديمة ، على العكس من الطبقات ، هى التى كونت عادة « مجتمعات محلية » حقيقية ، لأن العنصر الأساسى الخاص بالنصيب sort وبالكرامة honneur كان شديد التركيز فى هذه الحالة ، فى حين أن المصالح الاقتصادية هى المتغلبة فى طبقات المجتمع الحاضر . ولا يدرك الناس دائما التناقض بين « المراتب القديمة » états

والطبقات الحالية ، لأنهم لا يلاحظون أن المراتب كان من نتيجتها ـ لا أساسها ـ احتكار الأنصبة فى توزيع الأموال المادية فى حين أن هذه الأنصبة تشكل بالذات أساس الطبقات الحديثة .

ولتجنب أى خلط بين الطبقة و « المجتمع المحلى » communauté (بالمعنى الذى يسنده الى هذا المصطلح) يذكر فيبر أن الطبقة يمكن أن تسهم فى المجتمع المحلى ، فى حين أن الأخيرة ليست تابعة بالمرة للطبقات؛ وانما هى تمثل على العكس من ذلك الميدان المشترك الذى يتلاقى فيه أفراد الطبقات المختلفة . ومع ذلك فان فيبر لم يكن فى هذا الصدد يأخذ فى اعتباره المجتمع الكلى ، الأمة مثلا ، ولا المجتمع الاقتصادى فى مجموعه ، وانما فقط بيئات أو مجالات أو ظواهر تتقابل عندها المصالح المختلفة : من ذلك السوق الرأسمالى ، والمشروع الرأسمالى ، وهما ميدانان تتعارض فيهما مصالح العمال والرأسماليين الذين لا يتصارعون بعضهم مع بعض الا اذا كان يضمهم من قبل شكل من أشكال «المجتمعات المحلية» الاقتصادية.

ويقترح فيبر فضلا عن ذلك التمييز بين ثلاثة أنواع من الطبقات :

(ا) « الطبقات المعرفة بحيازة الثروة والتى يتحدد وضعها الطبقى أول كل شىء بالفرق فى الملكية .

(ب) « الطبقات المعرفة بأساليب الحيازة ، والتى يتحدد وضعها الطبقى أول كل شىء بفرص استخدام الأموال أو العمليات المتاحة فى السوق » .

(ج) الطبقات الاجتماعية القائمة على مجموعة الأوضاع الطبقية التى تيسر المبادلات فيما بينها ، وتجرى هذه المبادلات بالفعل من ناحية الأشخاص وتعاقب الأجيال » . هذا التعريف الأخير ، التخمينى بعض الشىء ، يتوضح الى حد ما بفضل تبين فيبر الآتى : ان كل ضرب من التكييف ، والاعداد الفنى ، والتحقيق يمثل بالفعل « وضعا طبقيا » . ولهذا فهو يرى أن « الانتقالات من وضع طبقى الى وضع آخر كثيرة جدا ،

وسهلة ، ومنوعة ، والوحدة الطبقية عنصر نسبى للغاية » • وبالاجمال فان مفهوم الطبقات الاجتماعية يغطى الطبقات المتميزة تبعا لنمط الحيازة ، وكذا الطبقات المتميزة بطريقتها فى التكسب مضافا اليها الطبقات التى تتميز تبعا للنصيب العـام (الاجتماعى ، العقلى ، والثقافى ، الخ) عند أفرادهـا ، والذى لا يفسره فيبر بأكثر من هذا • ولكن هذا المفهوم شـديد الاتساع لدرجة أنه يجعل الطبقات الاجتماعية مائعة وفضفاضة •

ولعل الأهم من ذلك آراء فيبر فى شـأن عنصر « الاحتكار الفعلى » monopole de fait الذى يدخل فى تعريفه للطبقة الاجتماعية • فهذا الاحتكار الفعلى موجب وسالب : فهو يشكل فى الحالة الأولى امتيازا فعليا ، ويتشكل فى الحالة الثانية من حرمان بالاقصاء الفعلى • مثال ذلك فى الطبقات المخصصة بالحيازة ، نجد أن الطبقة المتميزة : « تتمتع باحتكار شراء أغلى السلع الاستهلاكية ، واحتكار البيع وتنظيمـه ، واحتكار فرصـة تكوين احتياطيـات ، والاثراء ، وتكديس رؤوس الأموال ـ سـواء بالادخار أو بالائتمان أو بالانتاج ـ الأمر الذى يمهد السبيل لشـغل المراكز القيادية فى الصناعة » • ويواجـه هذه الطبقـة ، مع بعض الفروق الطفيفة ، كل ما عداها من السكان الذين يوجدون خارج هذه الاحتكارات الفعلية ، فهم لذلك فى حالة حرمان •

ومن بين الطبقات المعرفة تبعا لطرق الاكتساب ، تشمل الطبقة العليا الأفراد المتميزين الحائزين لاحتكار الادارة والانتاج ، والاحتكار الذى يضمن فرصة توزيع الأموال ، من ذلك رجال الصناعة والتجار وأصحاب المصارف وممثلو المهن الحرة الذين يشـغلون مراتب عالية (المحـامون والأطباء والفنانون) • ونجد فى مواجهة هذه الطبقة العمال (ولا بد أن يميز من بينهم أقسـام ثلاثة حسب حصـولهم على تأهيل فنى دقيق ، أو متوسط ، أو عدم تأهيلهم) ، وطبقة متوسطة تتكون من الفلاحين والصناع

والمستخدمين ، موظفين كانوا أم غير موظفين • وأخيرا فان الطبقات الاجتماعية المميزة تبعا لحظ أفرادها هي :

١ ــ الكادحون (البروليتاريا) •

٢ ــ صغار البورجوازيين •

٣ ــ أهل الفكر والخبراء الفنيون الذين لا يملكون شيئا •

٤ ــ طبقة الملاك المتميزة بالتعليم •

ويجرى تنظيم الطبقات والصراع فيما بينها :

(ا) عندما تكون خصوما بالفعل تتضارب مصالحهم المباشرة (مثال ذلك : العمال الذين يناضلون ضد أصحاب الأعمال « المقاولين » لا ضد حملة الأسهم ، والفلاحون الذين يكافحون ضد ملاك الأراضي) •

(ب) في حالة الأوضاع الطبقية النموذجية التي تحرك جموعا كبيرة من الأشخاص (ويسميها فيبر خطأ تدخل « الجماهير » masses

(ج) عندما تتطور الوسائل الفنية للانتاج والتوزيع والتعبير عن السخط تطورا كافيا ، بفضل تجمع العمال في المصانع الكبيرة مثلا •

(د) عندما يوجه العمل المشترك صوب أهداف محددة ، يكشف عنها أو يفسرها في العادة مفكرون لا ينتمون الى الطبقة المعنية •

ولقد التزمت في عرضي لآراء فيبر ، مثلما فعلت مع باريتو ، بتعبيراته الخاصة حتى لا أتهم بتشويه فكرته • ولنشرع الآن في النقد •

ان آراء فيبر تبدو لي أشد قصورا في صدد الطبقات الاجتماعية منها في أية مشكلة أخرى • فمفهوم الطبقة الاجتماعية حسبما شكله فيبر هو تركيب انتخابي من آراء شمولر ، وبوخر ، وباريتو مع بعض التحيز لماركس ، تلحمها كلها نزعة فيبر الرجحانية الرمزية [1] probabilisme typologique

(١) الرجحانية probabilisme : مذهب من يرى الا سبيل الى بلوغ اليقين ، وكل ما نعلمه آراء راجحة ــ (مجمع اللغة العربية) •

التى تكملها بعض ايحاءات « تونيز » Tönnies . وانتهى مجموع ذلك الى نتائج خادعة جدا .

وفيبر « اسمى » النزعة مثل باريتو . وهو لم يدرك أن الطبقة جماعة واقعية ، و « كل » لا يقتصر على أعضائه فقط . فهو لم يلحظ من باب أولى أنها تمثل ظاهرة اجتماعية كلية، والطبقة عنده «حشد» agregat أو مجموعة ، أو تجمع ، لم يتشكل بوساطة الأفراد أنفسهم ، وانما بواسطة الفرص التى لديهم بالنسبة الى نصيبهم الاقتصادى وعقليتهم ومكانتهم الشخصية فى الحياة الاجتماعية . ويصادف فيبر الكثير من المصاعب للاجابة عن الأسئلة التى يثيرها تفسيره . فكيف يتأتى للفرص أن تتصل وتتعلق بعضها ببعض ، وتتحد فيما بينها . وبصورة أعم من أين يأتى المعنى الاجتماعى لضروب السلوك ، بل واحتمال الاتصال بين الذات والغير ؟ وليس فيبر بقادر أيضا على تفسير مصدر الهيبة الشخصية التى لا يمكن أن تترتب الا على تقدير جماعى لا قبل له بالتعرف عليه . بل انه ليرتبك بنزعته الذاتية الفردية التى تتربص به ، والتى لا تستطيع أن تنقذه ـ فى صدد المسألة التى يناقشها ـ بمعانيها وقيمها الأفلاطونية . من هذا أنه يلجأ الى معيار يلوح له موضوعيا : معيار « الوضع الطبقى » فى مقابل الطبقة نفسها . غير أنه من الواضح أن هذه المقابلة انما هى مقابلة بالألفاظ . فالواقع من جهة ، أنه بالنسبة الى عدد فرص الاحتكارات الموجبة أو السالبة ، تتضاعف الأوضاع الطبقية الى ما لا نهاية بحيث لا نفهم كيف يتأتى لها أن تستقر . ومن جهة أخرى فان الطبقة عنده ليست جماعة واقعية ، أو كلية ، وانما مجموعة من الفرص الشخصية المتفرقة. ومن ثم يشعر الانسان أنه بصدد دائرة مفرغة .

ولكى يحدد فيبر موقفه ، يستعير من الاجتماعى الألمانى «تونيز» Tönnies المقابلة بين «الجماعة» Gemeinschaft و «المجتمع» Gessellschaft فيسند اليهما معنى أوسع :

« انتظـام المجتمـع » .Vergemeinschaftung (التجمـع)
Vergesellschaftung أى ارتقاء التبعية •• عن طريق مشاعر ذاتية حية ، وارتقاء العلاقات المتبادلة ذات الطبيعة العقلية الى حيث تنتهى بالتنظيم• وليس من السهل أن نفهم كيف أن هذه الفئات (وهى قابلة للنقد فى ذاتها، الأمر الذى حاولت ايضاحه فى كتابى « الاتجاهات الحالية فى علم الاجتماع ، ١٩٥٠ ، صفحة ٢١٢ وما بعدها) يمكن أن تنطبق على مجموعات من الفرص والأشخاص المتفرقين ، خاضعة فقط لفئات مجردة لا تضمها أطر اجتماعية حقيقيـة • وفضـلا عن ذلك فان فيبر يسـتعين بهذه المصطلحات لغرض واحد هو اثبات أن فى امكان الطبقة الاجتماعية أن تنتظم فى ظروف معينة (وهو ما يشير اليه بظاهرة Vergesellschaftung) ، ولكنها لا تستطيع الوصول الى الشعور بالمساهمة المشتركة فى مجموع حى حياة ذاتية ، أى الى الانفعال الجماعى• وقد رأينا قبلا أنه يستخدم بالمثل تعبير communauté بمعنى شديد التباين ، فيعتبره ميـدانا عاما تتقـابل فيه مصـالح الطبقـات المتعارضة (كالسوق المشتركة ، أو المشروع المشترك) •

ويرفض فيبر كل امكانيـة لتحليل ما يجـرى فى داخـل الطبقـة الاجتماعية فى مختلف لحظات وجودها وتشييدها • ولا يلوح عنده أى أثر للسيكولوجيا الجماعية للطبقات، ولا الميكروسوسيولوجيا (السوسيولوجيا الدقيقة) micro-sociologie لحياة الطبقات الداخلية ؟ واستبعد بالمثل كل دراسة للذات « نحن » nous التى تنتمى الى الطبقـة الواحدة وتتصارع فى داخلها ، وتخلى بالمثل عن دراسة كافة درجات كثافة وقوة هذه الـ « نحن » (الجمهور masse ، والمجتمع المحلى communauté والطائفة communion) التى يتوقف نشـاطها فى معظمه على شـدة الصراع الطبقى •

ويلزم التنويه بعـدة مظاهر فى التمييز الذى قدمه فيبر بين أنواع ثلاثة من التقسيم الى طبقات (تبعا للحيازة ، وأسلوب الاكتساب ، ومجموع

الوضع الاجتماعى الخاص بافراد الطبقة) • والمسألة من الوجهة الشكلية، محاولة للتوفيق بينه وبين شمولر الذى حاول أن يقيم فكرة الطبقة على المهنة ، وبوخر الذى أراد اقامتها على الملكية ، وماركس الذى رفض هذين المعيارين كل على حدة ، لأنه لم يعتبرهما الا نتائج تترتب على الوضع الاجمالى للطبقة التى يراها دائما بوضوح طبقة اجتماعية ، وليست فقط طبقة اقتصادية • ومع ذلك فقد ربط ماركس وجود الطبقات الاجتماعية بوظيفتها فى الانتاج ، فى حين ربطها فيبر بالفرصة النموذجية من وجهة النصيب الشخصى لأفراد الطبقة ، دون أن يبذل أى جهد فى تفسير ما كان يفهمه بالضبط من التعبير الذى يغلب عليه الغموض : innerer Lebenschicksal • ثم ان ماركس قد أكد واقعية الطبقة بصورة كاملة غير منقوصة ، باعتبارها مجموعة ، وكلا محسوسا ، له ديناميته الخاصة ؛ فى حين أنكر فيبر هذه الواقعية • ومن العسير فى هذه الظروف أن نفهم كيف تستطيع الطبقات الاجتماعية المختلفة أن تكون مستقرا للطبقات المتميزة « تبعا لأسلوب الاكتساب » و « تبعا للثروات » •

وفى الموضوع ـ وهذا هو المظهر الثانى للتمييزات بعد تحليلها ـ يهدم فيبر كل احتمال لتوحيد التجميعات الاسمية المختلفة للفرص والأشخاص فى جماعات حقيقية ؛ ومن باب أولى ضمها فى طبقات اجتماعية يقول انها يجب أن تمثل مجموعة الأوضاع الطبقية • وهو اذ يضاعف عدد الأوضاع الطبقية بدرجة مفرطة فانه لا ينتهى بالتالى الى توحيدها • وعلى هذا النحو يهدم فيبر مفهوم الطبقة الاجتماعية دون أن يعترف بذلك • ولكنه فى الوقت نفسه ـ وهذا هو المظهر الثالث لهذه التمييزات ـ يبدأ من فكرة خاطئة ، فكرة أنواع التصنيف المختلفة التى تشكل الطبقات ، فيستخدمها للدفاع عن نظرية ليست فى ذاتها خاطئة : وهى أنه يوجد فى داخل كل طبقة اجتماعية عدد وفير من المجموعات التى تميل الى تكوين هرم متحرك • ومع ذلك ففى الامكان تبين هذا الأمر دون الوقوع فى أى من الأخطاء التى ارتكبها فيبر •

ولست فى حاجة الى التأكيد بأن مؤلفنا (أى فيبر) لم ينجح فى توثيق أى رباط بين الطبقات الاجتماعية وبين الأعمال الثقافية ، لأنه يرى أن المعانى الذاتية مرتبطة بالمدارك الفردية ، فى حين أن المعانى الموضوعية خيالية ومستقلة عن الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية ليست لها أطر معينة ، وانما هى مجموعة من فرص السلوك الفردى . وعلى هذا لا تصلح الطبقات الاجتماعية لأن تكون مرجعا يستهدى به فى شأن العلاقات الوظيفية، أو أن تكون قوى منتجة للأعمال الثقافية ، أو حتى نقطا وهمية تنسب اليها الايديولوجيات (كما أراد لوكاش) . وانما يستطيع كل فرد موجود على حدة فى وضع طبقى ، أن يتبع فى سلوكه قاعدة دينية (كما يستهدى الرأسمالى اللاهوت الكلفينى) أو منهاجا من المعرفة ، أو تنظيما قانونيا . ونعيد القول انه من المتيقن أن نظرية فيبر تجعل مفهوم الطبقة عديم الفائدة .

وأخيرا فانه اذا كانت فكرة أن الاحتكار الفعلى يميز الطبقات فى حين أن المراتب والطوائف تقوم على الاحتكار القانونى ، فكرة بارعة فى ذاتها، فانها تصطدم مع ذلك فى عرض فيبر بعقبتين . فهذه الاحتكارات الواقعية لا تنطبق فى الحقيقة الا على الطبقات العليا ، لأن الاحتكار السلبى ، أو الامتياز السلبى ليس الا تلاعبا بالألفاظ يشير الى الحرمان . ومن جهة أخرى (ولعل ذلك يعزى الى أن كتاب فيبر لم ينشر الا بعد وفاته) فان مفهوم الاحتكار عند فيبر ، حتى ولو كان ايجابيا ، لا ينطبق على الطبقات الاجتماعية ، وانما ينطبق فقط على الطبقات المتميزة تبعا لأسلوب الاكتساب أو الثروة . بل انه لا يذكر هنا مم يتكون الاحتكار . لقد استشعر فيبر شيئا ما عندما استخدم مصطلح الاحتكار ، ولكنه لم يستطع أو لم يعرف تحديده ، فضلا عن أن نزعته الاسمية المتأصلة لم تمكنه من ذلك. وليس لهذا المصطلح معنى الا اذا كان ينصرف الى نتيجة التنافر الجذرى بين الطبقات باعتبارها واقعية . وسأحاول عندما أصل الى عرض فكرتى عن الطبقات الاجتماعية ، أن أوضح أن من خصائصها تعارضها ، واستحالة

الانتماء الى طبقتين أو أكثر فى وقت واحد ، فى حين أن معظم المجموعات الأخرى متوافقة فيما بينها بصفة جزئية أو كلية • فهذا التعارض بين الطبقات باعتبارها مجموعات يترتب عليه ما لها من احتكار واقعى بالنسبة الى أفرادها • وهذا هو المعنى الوحيد الذى يمكن فيه استخدام هذا المصطلح فى صدد الطبقات الاجتماعية •

وليس فى وسعى أخيرا أن أقر لنظرية فيبر بأكثر من فضلين :

(ا) الادراك الخالص الذى لم يعبر عنه مع ذلك بوضوح كاف ، بأن الطبقات الاجتماعية لا تظهر الا مع نمط المجتمع الرأسمالى ، لأنها تفترض مشروعات ضخمة وسوقا حرة وأعدادا كبيرة وأساليب فنية متطورة •

(ب) ملاحظة أن قاعدة الطبقة الاجتماعية غير قابلة للاقتصار على مظهرها الاقتصادى (سواء فى الانتاج أو الاكتساب أو الثروة) ، وانما تتضمن عنصر التقدير والمكانة والطموح والنصيب الداخلى والخارجى innerer Lebenschicksal حسب التعبير الردىء والغامض الذى استخدمه فيبر • واذ استيقن فيبر من ثراء المضمون فى مفهوم الطبقة الاجتماعية ، فانه وجد نفسه مجردا من كل وسيلة للتعبير عن هذا المفهوم •

ج٠ ا٠ شومبتير J. A. Schumpeter

لننظر الآن ما اذا كان جوزيف ا٠ شـومبتير (١٨٨٣ ـ ١٩٥٠ ، المولود فى النمسا ، ودرس مع ذلك عشرين سـنة فى الولايات المتحدة) قد حل المشكلة بأفضل مما حلها فيبر ٠ وشومبتير عالم اقتصادى ذو شهرة عريضة ؛ أثارت وفاته كتابات أدبية وفيرة ، منها بصفة خاصة فى فرنسـا جزءان من مجلة Revue d'Economie Appliquée (العدد الثالث يولية ـ ديسمبر ١٩٥٠ ، الجزء الرابع يناير ـ مارس ١٩٥١) ٠ ويحتوى العدد الأول منهما على مقال باسم « جول فيمان » Jules Vuillemin بعنوان « الطبقات الاجتماعية عند شومبتير ، وفى الحقيقة الواقعة » يبالغ كثيرا فى العنصر «الوجودى» فى تفكير شومبتير ، ويضل فى تفاصيل فلسفية تلتصق بكيفية مصطنعة بتحاليل هذا المؤلف أو تنسب بالأحرى اليه ٠ وفى مقال ممتع بصحيفة Cahiers Internationaux de sociologie (الجزء الحادى عشر عام ١٩٥١) بعنوان «الاقتصاد الاجتماعى عند شومبتير» ، اعتقد جان فيلر Jean Weiller أنه يمكنه تعريف شومبتير بأنه ممثل « الاقتصاد الاجتمـاعى » فى صراعـه مع الاقتصـاد الكلاسى ، والكلاسى الجديد ، واتصاله بتفكير ماركس ؛ ويقول ان شومبتير قد ألان هذا التفكير باثبـات أهمية ظروف تبلور الطبقـات الاجتمـاعية وتفككها ، وهى ظواهر تلزم

دراستها عن طريق السيكولوجية الجماعية والسيكولوجية الاجتماعية • وسوف نبحث فى أمر هذه الخصائص •

لا يشق على أن أعرض بايجاز نظرية شومبتير فى الطبقات الاجتماعية ـ ثم أقدر قيمتها بالتالى ـ ذلك لأنه قد لخص بنفسه آراءه فى هذا الصدد فى دراسة أجراها عام ١٩٢٧ بعنوان « الطبقات الاجتماعية فى بيئة سلالية متجانسة » ، رددها فى كتابه الأمريكى « الأمبريالية والطبقات الاجتماعية » ١٩٥١ • وسأنقل اليكم أقواله من هذا الكتاب • وفى مقدمة لهذه الدراسة ، يعتبر شومبتير نفسه بالأحرى استمرارا لشمولر ، ولكنه يذكر بالمثل المفكر النمساوى الكاثوليكى « سبان » Spann ، ودوركايم ، صاحب نظرية تقسيم العمل •

يتميز شومبتير عن باريتو وعن فيبر فى أنه يتناول الطبقات الاجتماعية باعتبارها جماعات واقعية وليست مجموعات من الأفراد • كتب يقول : « الطبقة الاجتماعية هى هيئة اجتماعية خاصة ، حية ، تعمل وتعانى بصفتها هذه ، ولا بد من تصورها كوحدة » • وكتب أيضا : « الطبقة شىء أكبر من مجموعة أعضائها المتفرقين • الطبقة تشعر بكيانها باعتبار أنها تشكل كلا ، وتتسامى بهذا الوصف ، وتمتلك حياتها الخاصة ، وروحها المتميزة » •

يجب عند مناقشة مشكلة الطبقات ، تمييز أربعة مظاهر : الأول خاص بطبيعة الطبقة المرتبطة بالوظيفة التى تزاولها فى « مجموعة العمليات الحيوية التى يقوم بها المجتمع » ؛ والمظهر الثانى « تماسك » الطبقة الاجتماعية الذى يجعل منها هيئة اجتماعية خاصة ، ويمنع تفككها الى مجموعة من الأفراد ؛ والثالث خاص بتشكيل الطبقات الاجتماعية ، ويتضمن اجابة على السؤال عن السبب فى عدم وجود مجتمع متجانس ، وأن كل مجتمع كان على الدوام منقسما الى شرائح ؛ وأخيرا الرابع الخاص بالأسباب والظروف المادية المحسوسة للبناء الاجتماعى لطبقة معينة ومحددة

تاريخيا • وينبه شومبتير فى دراسته الى أنه سوف يركز بالأولى على دراسة المظهر الثالث الخاص بتكوين الطبقات الاجتماعية • بيد أنه لا يستطيع فى الواقع أن يعالج هذا المظهر منفصلا عن دراسة طبيعة الطبقات وتماسكها •

يقول شومبتير انه يجب فى البداية التنويه بأن المسألة ليست «أفرادا» ينتمون الى طبقة معينة ، اما باختيارهم ، واما بفعلهم أو بصفاتهم الفطرية• فأعضاء الطبقة ليسوا أفراد بالمرة ، وانما عائلات ، لأن الوحدة الاجتماعية الحقيقية التى تشكل الطبقات وحدة عائلية » • « اذا ارتضينا لحظة واحدة التأكيد بأن كل طبقة كان لها وجود قد تكونت من عدد معين من الوحدات العائلية التى سنحت لها الفرصة لسبب ما أن تنفذ فى طبقة ما وتستقر فيها وتمنع غيرها من الجماعات العائلية من دخولها باقامة الحدود ، كان لا بد أن نقرر دون مناقشة أن بعض الأسر ترتفع الى الدرجة العليا لطبقتهم وأن أسرا أخرى على العكس منها تهبط ، وتنزل ، وأن هناك اذن حركة رأسية للأسر فى داخل الطبقة » • ومن رأى شومبتير أنه يمكن ملاحظة ذلك بالنسبة الى الأسر الارستقراطية الألمانية فى عهد هوهنستوفن ، وكذا بالنسبة الى الأسر الرأسمالية البورجوازية فى فرنسا وانجلترا فى العصر النابليونى اللاحق • والمهم فى هذا الصدد هو العلة فى صعود الأسر ونزولها فى داخل طبقتها • وليس من الأمور الحاسمة فى هذا الشأن • « آلية التكدس » التى تكلم عنها ماركس ، ولا ميول وقدرات أفراد الأسر ، وانما بالأحرى فاعليتهم المتغيرة بسبب ظروف المجموعة المختلفة التى تفرض وظائف منوعة • مثال ذلك أن الصفات المطلوبة فى رأسمالى من رجال الصناعة فى عصر التنافس ، ليست هى نفسها التى يجب أن تكون فى « مدير » أو رئيس شركة مساهمة فى عهد الرأسمالية المنظمة•

وتستمر حركة الأسر خلال الطبقات تبعا للوظائف التى يؤديها رؤساؤها وأفرادها • « يتغير تكوين الطبقات على الدوام ، الأمر الذى

يؤدى الى اعـادة اختيـار الأسر • ويتوقف تناسق الحـركة فى الطبقـات الاجتماعية على الفترات التاريخية والأحداث الاجتماعية ؟ ويختلف أيضا بالنسبة الى كل طبقة وكل أسرة • وثمة حالات يكون فيها انتماء أسرة ما الى طبقة أقصر من حيـاة أفراد الأسرة • وفى بعض الأحيـان يمتد هذا الانتماء الى الطبقة عدة قرون » • وعلى أية حال يرى شومبتير أن الحدود بين الطبقات لا تكاد تكون ذات أثر الا بالنسبة الى الأفراد ، لا بالنسبة الى الأسر التى تعلو على هذه الحدود فى حركات بطيئة أو متزايدة السرعة• « الظروف التى تفسر تغير أوضاع الأسر فى داخل الطبقـة ، هى نفسها التى تفسر أيضا كيف أن هذه الأسر تتخطى فى صعودها ونزولها الحدود الطبقية » •

وهذا ما يسوق شومبتير الى اعتبارات تتعلق بصعود ونزول الطبقات الاجتماعية باعتبارها تمثل مجموعات أو كليات • وهو يتبنى فكرة باريتو فى التمييز بين الطبقات القيادية والطبقات المنقـادة • ولكنه يرى أن هذا التقسيم ، وكذا حركة الصعود والنزول ، يقوم على « الرابطة بين الدرجة الاجتماعية للطبقة وبين وظائفها • فكل طبقة تقوم دائما على وظيفة تختص بها • ذلك هو الجانب من الحقيقة الذى تتضمنه جميع نظريات تقسيم العمل والمهنة ، مع أن هذه النظريات لا تفسر هذه الظاهرة تفسيرا صحيحا » • والخطأ فى هذه النظريات أنهـا تقلل من مضـمون الطبقـات الاجتمـاعية وتختصر بناءها الى حـد كبير • ومن رأى شـومبتير أنه يمكن تجنب هذا الخطر باقامة الطبقات الاجتمـاعية على وظائفها • « لكل طبقـة اجتمـاعية وظيفة محددة يجب أن تضطلع بها فى مجموعة من العلاقات والتوجيه ، وظيفة تحقق بها مهمتها ، بأن تفرض على أعضائها سلوكا من طبيعة الطبقة• ووفق ذلك فان مركز كل طبقة فى داخل البناء القومى الكلى يتوقف من جهة على المعنى المسند الى هذه الوظيفة ، ومن جهـة أخـرى على مقـدار النجاح الذى تحقق به الطبقة وظيفتها • ويمكن دائما تفسير التغيرات فى موقف الطبقات ازاء بعضها بعضا وفقا لخطى التحديد هذين دون غيرهما »

« كل الوظائف التى يمكن تمييزها فى أمة معينـة وظرف تاريخى معين ضرورية من الوجهة الاجتماعية • من الضرورى اذن ايجـاد معايير التقدير لكل وظيفة • هذا التقدير لا يتوافق دائما مع تقدير الطبقة (•••) ذلك أن جمود وضع طبقة متينة البنيان قد يخلق اختلافا بين تقدير الوظيفة وتقدير الطبقة » • « ولا يجوز أن يغرب عن بالنا فوق ذلك أن الوظائف الاجتماعية لا تقتصر على التخصصات والكفاءات المتسـقة ، وانما تستهدف دورها فى مجموعه » • « تحصـل الطبقـات على مراكزها وتفقدها بنفس الطريقة التى تتكون بها هذه الطبقـات وتزول • ومن ثم تظهر المشـكلة العامة للطبقات الاجتماعية بسبب وجود حركة دائمة فى هذا الصدد » •

والنتيجة المستخلصة من هذه الاعتبارات هى تبرير وجود الطبقات وتدرجها ، أى عدم المساواة الاجتماعية وفقا لنظرية باريتو : فبعد أن سلم شومبتير خلال تحليلاته بواقعية المجموعات ، انتهى الى استخلاص نتائج تجذب الأنظار بسمتها الفردية الارستقراطية • وفى هذا كتب يقـول : « الأساس الأخير لظاهرة الطبقة هو الفروق فى الكفاءات الفردية ؛ وهى ليست فروقا فى الكفاءات عامة ، وانما فى الكفـاءات لمزاولة الوظيفـة أو الوظائف التى تجعلها البيئة فى لحظة ما ضرورية من الوجهة الاجتماعية ، وللقيادة حسب الشـكل والطريقة المناسبة لهذه الوظيفـة أو الوظائف • وليست هذه الفروق فروقا فى كفـاءات أفراد بأشخاصهم ، وانمـا أفراد بصفتهم العائلية الوراثية » • « قد تكون الكفـاءة طبيعيـة أو مكتسبة » • وعامل الكفاءة هذا هو الذى يكفل القدرة على مزاولة القيـادة الاجتماعية « القيادة الاجتماعية تشمل التقرير ، والأمر ، والابدال ، والتوقع ، وهى بهذه الصفة وظيفة خاصة يمكن تمييزها على الدوام (•••) وهى لا تظهر الا فى مواجهة مواقف جديدة ، ولا وجود لها اذا جـرت حيـاة الأفراد والشـعوب دواما على وتيرة واحـدة ، وسلكت طريق نظام رتيب متماثل دائما » •

وقد تتغير وظيفة الطبقة ، ومع ذلك تظل الطبقة قيادية : وتفسير هذه الظاهرة أن الكفاءات المتنقلة بالوراثة فى داخل الطبقة تتيح لها أحيانا أن تضطلع بصورة أفضل من غيرها بالوظيفة الجديدة التى تبقى مرتبطة بوظائف القيادة • وفى مقدور الطبقات التى ينقصها الأفراد من ذوى المواهب أن تستعير مثل هؤلاء الأفراد من سائر الطبقات ، حتى ولو أدى ذلك الى ارتداد هؤلاء الأفراد أو عزلهم من طبقتهم ؛ ولكنهم يعتمدون ، ولهم بعض الحق ، على تصاعد الطبقة التى يكونون روادها الأوائل • وانا لنلمس فى هذا الصدد تأثر شومبتير بباريتو وايديولوجيته الرجعية الأرستقراطية • وروح المبادءة الفردية هى التى تكون فى النهاية حافزا على صعود الطبقات الاجتماعية ، ويتجلى هذا الصعود فى حركة ارتقاء الأسر التى يشكل اتحادها طبقة اجتماعية تحمى وتؤكد فى النهاية مكانة أعضائها • ويرى شومبتير من هذه الوجهة ، أنه يمكن الجزم بأنه لم يزل هناك فى الطبقات القيادية الى اليوم اتجاها نحو الربط بين الوضع الاجتماعى والكفاءة ، رغم كل احتمالات الانحلال ، وكل أحوال عدم التوافق مع الأوضاع الجديدة • ويتوقف الفصل فى التفرقة بين الطبقات الاجتماعية فى نهاية المطاف على الاستعداد الروتينى أو الاستعداد للتجديد •

ونلاحظ بسهولة أنه على الرغم من نسبية وتاريخية الفكر الاقتصادى ، يبحث شومبتير عن « جوهر » الطبقات الاجتماعية فى فراغ، خارج المجتمع الواقعى ، وخارج ابنيته النمطية وأحداثه الخاصة ، أى خارج التاريخ • ومما يدعو فوق ذلك الى الأسف أننا نتبين أنه قد ظفر بتأييد بعض رجال الاقتصاد وبعض علماء الاجتماع المشتغلين بالتاريخ ، وأعنى بصفة خاصة الاقتصادى الفرنسى المبرز «جان لوم» Jean Lhomme ففى كتابه « مشكلة الطبقات ، مذاهب وحقائق » سنة ١٩٣٨ ، يعرض فكرة الطبقة ، فيستشهد بشومبتير قائلا : « أعتقد أنه فى امكاننا القول بأن عنصرين يتدخلان فى تكوين الطبقة :

١ ـ عنصر مادى له طبيعة اقتصادية واجتماعية فى وقت واحد : هو الوظيفة ؛

٢ ـ وعنصر غير مادى : هو الوعى الطبقى » . وكتب بعد ذلك فى موضع آخر : « نطلق تعبير « الطبقة » على جماعة من البشر لها وظيفة تؤديها بصفة مشتركة ، وتشعر بهذه الوظيفة ، فتعمل كل ما فى وسعها للاضطلاع بها كما يجب » (وذكر اسم شومبتير صراحة فى صفحة ٦٨). أما عالم التاريخ والاجتماع البريطانى ت.ه. مارشال T.H. Marshall الأستاذ بمدرسة الاقتصاد بلندن ، فقد نشر بدوره كتابا بعنوان « حقوق المواطنة ، والطبقة الاجتماعية » سنة ١٩٥٠ (ونشر الفصل الذى أورده هنا لأول مرة فى عام ١٩٣٤) يمتزج فيه تأثير «تاونى» Tawney بتأثير فيبر وشومبتير . ويمكن تلخيص فكرته بالقول بأن الطبقة الاجتماعية فى رأيه مجموعة من الأسر تملك فرصا اجتماعية متماثلة للحصول على اقرار اجتماعى لوظيفتها ومركزها ومكانتها .

وتلوح لى « مراكز » شومبتير رغم براعة صيغتها عديمة الفائدة تماما، ومن ثم اعتبر من واجبى نقدها بشدة ، لأنها تبدى نزوعا الى الانتشار . أليس الأمر بشأنها فى النهاية « جلبة كثيرة من أجل شىء قليل » ؟ فشومبتير ، كما أوضحت من قبل ، على العكس من ماكس فيبر ، واقعى حين يعتبر الطبقة الاجتماعية جماعة حقيقية أو مجموعة غير قاصرة على مجموع أعضائها . غير أن هذه النظرة الصحيحة التى هى بالمثل نظرة ماركس وشمولر وهالفاكس الدوركايمى ، يعدلها بنوع ما عند شومبتير عدة خطوات الى الوراء . فشومبتير ، أول كل شىء ، يستلهم بصفة خاصة نقابية القرن الوسيط (التى اتصل بها من آراء المفكر الكاثوليكى النمساوى « أوثمار سبان » Othmar Spann) فلا يميز بين الأنظمة الاقتصادية ، والعصور التاريخية ، وأنماط الأبنية الاجتماعية عندما يناقش مشكلة الطبقات الاجتماعية . ولكى يتفهم الخصومة بين البروليتاريا

والبورجوازية فى المجتمع الرأسمالى الحديث ، يبدأ بالتحول نحو مثـال الارستقراطية الألمانية فى عهد ستوفن Staufer الميروفنجين Mérovingien. ويتحدث عن تقسيم هذه الأرستقراطية الى طبقتين : الأمراء ، والفرسان ، دون أن يهتم بمعرفة ما اذا كانت الأرسـتقراطية عامة مرتبة أو طائفة أو مهنة أو طبقة . وينتقل بالتالى الى توريث الوظائف لايضاح رأيه فى أن أساس كل طبقة هو الوظيفة . وعلى ذلك يرى شومبتير أن الطبقات كانت موجودة فى كل مجتمع يتضمن أقل قدر من التفـرقة ، تماما مثلمـا كان يعتقد باريتو . وعلى هذا النحو ينسى شـومبتير ما كان يستشعره ماركس من جهة وفيبر من جهة أخرى ، من أن الطبقات الاجتمـاعية لا تظهر الا فى عصر التصنيع . أليس هذا هو السبب الأول فى الصعوبة التى يذكرها « جول فيمان » Jules Vuillemin والتى يعزوها بالأحـرى الى فـكرة شومبتير الوظيفية مقترنة بالحاحه على عنصر التعاطف الذى يربط أعضاء الطبقة الواحدة بعضهم ببعض ؟ وفى هذا كتب يقـول : « ما الفـرق من وجهة نظر شومبتير ، بين الطبقة والمرتبة والجماعة المهنية (...) طالما أن هذه التشكيلات تتضمن كلها معا المقابلة بين المواطن والأجنبى ؟ » وأضيف الى هذا أن لها كلها وظائف اجتمـاعية محـددة ، « وغير ذلك اذا اعتبرنا الزواج الداخلى والزواج الخـارجى أعراضـا ، فكيف نميز بذلك بين العشيرة ، والجمعية الأخوية الدينية ، والطبقة ؟ » ، وهكذا فان ج. فيمان الذى يعجب من ناحية بشومبتير ، يضطر لأن يختم استنتاجاته قائلا : « ألا يجدر القول (...) بأن الكفاءات فى الطبقة لا تنبثق الا اذا كانت قائمـة على مصلحة للطبقة ، وأن هذه المصلحة الطبقية نفسها لا بد أن تتغذى من ديناميكية رأس المال ؟ » . « تلك هى بعض المشاكل . وانا نكون قد أدينا ما فيه الكفاية اذا استطعنا أن نثبت أن شومبتير لم يحلها ، ولم يبسطها ؛ انما هو يموهها . ومع أنى أعتقد أن الطبقـات يمكن أن تبقى حيـة دون وجود رأس المال الخاص ، ودون النظام الرأسمالى ، فانى أؤيد وجهة نظر

ج• فيمان من حيث تقدير النتيجة النهائية لتحليل شومبتير لمشكلة الطبقات •

ويلوح لى أن السمة البارزة والمغرية لأول وهلة فى نظرية شومبتير الذى لا يشرك الأفراد فى الطبقات الاجتماعية ، وانما الأسر بأكملها ، تصدر بالمثل عن اتجاهه صوب أنماط المجتمعات السالفة التى كان فيها مراتب ومهن ، لا طبقات • ومن الواضح مثلا أن النبالة والمرتبة الثالثة فى النظام القديم ، كانتا تتكونان من أسر مثلما كان الاشراف الاقطاعيون ، والطوائف الحرفية ، وعبيد الأرض فى العصر الوسيط • ولم يكن الأمر فى كل هذه الأحوال يتعلق بوضع اجتماعى فحسب ، وانما بنظام قانونى لجميع أعضاء الأسرة • فهل الوضع هو نفسه بالنسبة الى الطبقات الاجتماعية بمعناها الصحيح ؟ كلا بالطبع ؟ فأفراد الأسرة الواحدة قد يفقدون مركزهم فى الطبقة بسهولة ، أو يرتفع مركزهم فيها • وفى فرنسا بصفة خاصة ، حيث كان الفلاحون يشكلون حتى نصف قرن مضى طبقة موحدة ، أصبح الأبناء الكثيرون فى الأسرة الواحدة أعضاء فىالطبقتين الاجتماعيتين المتضادتين : البروليتاريا والبورجوازية • وفضلا عن ذلك لا يجوز أن يغرب عن البال أن نوع الأسرة فى الطبقات الحالية هو البيت الصغير الذى يضم أسرة محدودة للغاية ، تكون الروابط واهية بينها وبين الأسلاف من جهة ، وبينها وبين من تقدموا فى السن من الذرية • وعلى العكس من ذلك فان الأسر المقابلة للمراتب états فى العهد الماضى ، كالنبالة مثلا ، والتى يستلهمها شومبتير ، كانت أسر الأزواج الشرعيين ، وخدمهم ، وكانت تمثل مجموعات تهيمن على أعضائها •

القول اذن بأن الطبقات الاجتماعية تتكون من أسر فقط ، بغض النظر عن الأفراد والجماعات الأخرى ، فيه قصور فى الدلالة التاريخية والاجتماعية • ومع ذلك فاليكم ما قد يبدو مغريا فى مثل هذا التصريح • فنظرية الطبقات الماركسية ، بالحاحها المفرط على الدور الذى يلعبه أفراد

الطبقة فى الانتاج ، وقعت فى مأزق حرج من ناحية أقارب الأفراد المساهمين بالفعل فى الانتاج (كالزوجات والأولاد والأسلاف وغيرهم) حتى ليتساءل الانسان عن العلة فى أن بعض الأشخاص الذين لا يؤدون دورا (فى الانتاج) سوى أنهم مستهلكون ، يعتبرون مع ذلك ، بسبب رابطة الأخوة أو نوع الحياة ، أو المركز الاجتماعى أو غير هذا ، أعضاء بالفعل فى الطبقات الاجتماعية المناظرة لهم • وقد يبدو هنا أن فى الحل الذى أتى به شومبتير تخفيفا للمشكل ، لأنه يفسر على ما يبدو كيف أن أشخاصا لا يسهمون لا فى الانتاج ولا فى التداول الاقتصادى ينتمون مع ذلك الى طبقة من الطبقات • ومع ذلك ففى المستطاع حل المشكلة بغاية السهولة : وذلك فقط بملاحظة أن معيار الانتاج والتوزيع لا يكفى فى هذا الصدد ، ويجب تكملته بمجموعة من الظواهر الأخرى ؛ ويجب أيضا ادراك أن الطبقات باعتبارها مجموعات شاسعة وغنية بمضمونها ، لا تضم فى باطنها الأفراد فحسب ، وانما أيضا تشكيلة كبيرة من الجماعات • وفى هذه المجموعات الشاسعة التى تمثلها الطبقات الاجتماعية تنطوى الأسر والبيوت التى كثيرا ما يكون دورها فى هذا المجال ثانويا للغاية •

ونصل الآن الى نظرية شومبتير التى تقول بأن الطبقات الاجتماعية توصف وتنقسم ويعاد توزيعها وفقا لوظائفها فى المجتمع • ويلاحظ أولا أن معنى مصطلح «الوظيفة» حسبما يستخدمه شومبتير ومن بعده «م• لوم» ليس واضحا بالمرة • ويتضمن على الأقل أربعة معان متميزة :

(أ) قد تدل الوظيفة على « المهمة » charge التى تلتزم الطبقة بأدائها فى داخل المجتمع الكلى الذى لا يمكن أن يكون له وجود الا بمزيج من مختلف الوظائف التى يعهد بها الى الجماعات المختلفة• وفى هذا المعنى تحدث أفلاطون ، فى كتابه «الجمهورية» عن وظيفة الفلاسفة ، والحرس المحاربين ، والصناع المزارعين ، وذلك بالقياس على هيئة من الهيئات• والوظيفة بهذا المفهوم تفترض خاصة عدم وجود طبقات اجتماعية وانما واجبات موزعة من أعلى (بمعرفة الدولة ــ عند أفلاطون) • وفضلا

عن ذلك ، ففى فرنسا يقصد الناس ما يقارب هذا المعنى حين يتحدثون عن «الموظفين» الذين يضطلعون بوظائف معينـة ، أى واجبات تعهد بها اليهم الدولة • ولما كان شومبتير يستند الى فكرة المجتمع المماثل للهيئة مع توزيع لوظائف متسق أو شبه متسق ، فانى لا أشـك فى أنه يستخدم مصطلح « الوظيفة » بالأحـرى فى هذا المعنى • ويتـأكد هذا النظر بالأمثلة التى يسوقها عن المراتب المتميزة التى كانت فى نمط المجتمع الاقطاعى مكلفة بوظيفة أو عدة وظائف مفروضة عليها • غير أن الطبقات الاجتماعية تتصف خاصة بأن ليس لهـا وظائف بالمعنى الذى يقصـده شومبتير ، فهى خارج التقسيمات « الرسمية » و « الواجبات » المفروضة ، وتتجلى باضطراب فى سلم المجموعات الوظيفية فى المجتمع الكلى ، وتقاوم هذا المجتمع الكلى ، وتصده عنها بدرجة جزئية ، ووجودها نفسـه دليل على وجـود تدرجات متنافسة فيما بينها فى داخل المجتمع ، لا على وجود تناسق أو نظام قائم من قبل ؛ وهى فى أحسن الأحـوال توازن غير مستقر بين جمـاعات فعليـة تصطرع فيما بينها •

(ب) لعل المعنى الثانى لمصطلح الوظيفة هو العلاقة بين طبقة اجتماعية وبين غيرها من الطبقات الاجتمـاعية ، وكذا بينها وبين المجتمع بأكمله • والطبقة ، فى هذا المفهوم موجودة بصورة ما « من أجل الطبقات الأخرى » ومعرضة لضروب النزاع والصراع والتصالح معها • غير أن عبارة الوظيفة تعنى عندئذ فقط « وضع فى المجموع » أو « مركز فى المجموع » ولا تعبر الا عن حقيقة واحدة ، هى أن مشكلة الطبقة ذات طبيعة سوسيولوجية ، أى أنه لا يمكن دراستها بمعزل عن العلاقات بين الطبقات فى مجتمع كلى له بناء خاص •

(جـ) والمعنى الثالث لمصطلح الوظيفة اقتصادى بحت ؛ فبدلا من أن نقـول كما قال ماركس : « دور فى الانتاج » ، يمكن أن نستخدم صيغة أوسـع فنقول : « وظيفة فى الحيـاة الاقتصـادية » • وتتضمن مثل هذه

الصيغة ، بالاضافة الى الدور فى الانتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك ، القوة الاقتصادية والمكانة والمنفعة والدخل والثروة والمهنة ، الخ. ويتيح هذا المعنى التحدث عن تقلب الوظيفة الاقتصادية لطبقة اجتماعية ما ، ولكنه لا يلقى أى ضوء على طبيعة هذه الطبقة . مثال ذلك أن وظيفة طبقة البروليتاريا ، كما قال أحد أنصار نظرية شومبتير ، هى بيع عملها ، والنضال من أجل الحصول على أجور أعلى ، فى حين أن وظيفة الطبقة البورجوازية أولا « تأكيد تفوقها » فى المجال الاقتصادى والسياسى ، واستخلاص دخلها من المكاسب والأرباح . ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا النوع من التمييز غامض بأكمله ، لأنه يؤدى الى وضع كل العاملين الأجراء فى طبقة واحدة، هى طبقة البروليتاريا (بما فيهم التكنوبيروقراطيين) وتحويل الطبقة البورجوازية الى مجموعات شديدة التباين .

(د) والمعنى الرابع لمصطلح الوظيفة ، وهو الذى لم يتناوله شومبتير، والذى يبدو له أنه المعنى الرئيسى والأدق من وجهة النظر السوسيولوجية، والوحيد الضرورى لتعريف مفهوم الطبقة الاجتماعية ، ذلك هو «الوظيفة» باعتبارها « عملا جوهريا تلتزم الجماعة بأدائه » ومن وجهة النظر هذه ، يدخل فى تعريف كل جماعة قيامها بأداء وظيفتها بصورة فعالة . فلا يمكن أن يكون للجماعة وجود دون أن تتغلب السمة الاجتماعية الايجابية الموجهة نحو تحقيق الأعمال على السمة الاجتماعية السلبية . ويمكن من هذه الزاوية تمييز المجموعات أحادية الوظيفة والمجموعات متعددة الوظائف والمجموعات فوق الوظيفية .

والمجموعات أحادية الوظيفة ، هى التى ليس لها سوى عمل واحد تؤديه ؛ من ذلك على سبيل المثال : الفرقة الموسيقية ، الفريق الرياضى ، النادى ، الشركة التجارية ، المصنع ، المشروع ، الجمعية التعاونية ، بورصة الأعمال ، صندوق التأمينات الاجتماعية ، المنتجون ، المستهلكون ؛ وفى بعض الأحوال بالمثل ، المهن ، والحرف ، والنقابات المهنية وغير ذلك.

والمجموعات المتعددة الوظائف ، أى التى تؤدى عدة أعمال مشتركة، هى المجموعات المحلية ، ومجموعات الأقارب ، والسن ، والأحزاب السياسية ، والصناعات ، والتنظيمات الاقتصادية فى اقتصاد مستقل مخطط يعطى للمنتجين والمستهلكين أنصبة متساوية فى الادارة الخ • ويمكن فى هذه الأحوال كلها ذكر عدة أعمال محددة بالدقة تلتزم هذه الجماعات بأدائها (كالشرطة التى تتكفل بحفظ الأمن والسكينة فى الأحياء ، والدفاع الداخلى والخارجى ، والاكراه غير المشروط ، وذلك بالنسبة الى المجموعات المحلية ؛ ووظائف الانجاب ، والتربية ، ونقل التقاليد فى حالة مجموعات الأقارب ؛ ووظائف تنظيم وموازنة الانتاج ، والتوزيع ، والمبادلات ، والاستهلاك فى حالة المجموعات الاقتصادية ، وعلى الأخص فى نظام تخطيطى ، الخ) •

والمجموعات فوق الوظيفية هى أولا المجتمعات الكلية ، كالقبيلة فيما مضى ، والأمة ، ومختلف المجتمعات الدولية فى الوقت الحاضر • بيد أن هناك مجموعات خاصة نوعية تعتبر أيضا فوق وظيفية ، ومن ثم كان تنازعها مع المجتمعات الكلية ، وخاصة مع الأمم ؛ تلك هى بالتحديد الطبقات الاجتماعية • والواقع أنه من المستحيل أن نذكر بالتفصيل كل الأعمال التى يجب على الطبقة الاجتماعية انجازها ، لأنه بصرف النظر عن أنها تتأهب للاستيلاء على السلطة ، أو أن بيدها السلطة ، أو أنها فقدت هذه السلطة ، فانها تفسر بأسلوبها كل الوظائف التى تضطلع بها المجموعات الأخرى ، وبذلك تتداخل معها • هذه السمة فوق الوظيفية للطبقة الاجتماعية هى بالتحديد المعيار الرئيسى فى تعريفها • ولم يلحظ شومبتير أن الطبقة الاجتماعية ليست أحادية الوظيفة ولا متعددة الوظائف ، وانما هى فوق وظيفية ، ولها مجموعة من الأعمال المشتركة التى يجب أن تؤديها (ومن بينها نجد الانتاج ــ وبصورة أوسع المساهمة فى الحياة الاقتصادية ــ مركزا بطبيعة الحال بدرجة كبيرة) • فمن وجهة النظر هذه تكون نظرية شومبتير عن وظيفة الطبقات الاجتماعية على النقيض تماما مما يميز

فى الواقع هذه الطبقات ؟ ولذلك فان التعريف الذى يصوغه لها لا يوفق فى تمييزها عن أية مجموعة خاصة أخرى • وهذا ما يشهد بفشل نظريته فشلا تاما •

ولا أظننى فى حاجة الى الاسهاب فى الحديث عن جهود شومبتير فى سبيل تبرير وجود الطبقات بالقدرات والكفاءات الفردية ، فقد سبق لى أن انتقدت هذا المفهوم عند بوريتو الذى يبدو أن شومبتير قد استعاره منه بمزجه بالقدرة على الاضطلاع بوظائف غير قابلة للتغيير • وجدير بالملاحظة مع ذلك أن مبررات هذا الأسلوب فى عرض المشكلة عند شومبتير أضعف منها عند باريتو ، ذلك لأن الأول ليس ذا نزعة اسمية ولا فردية • هل ثمة نزاع فى أن كل طبقة تضم رجالا موهوبين ورجالا مجردين من المواهب ؟ ان الرأى القائل بأن كل حركة اجتماعية مصدرها المبادأة الفردية(وهى فكرة لها فى فرنسا رواد مرموقون مثل « تارد » و « برجسون ») مشكوك فيه للغاية ، لأن الجماعات كالأفراد قادرة أيضا على التجديد والاختراع والخلق ؟ ثم ان الأفراد كثيرا ما تتلاقى أمانيهم مع أمانى الجماعات • وان الفكرة التى تؤكد بأن أكفأ الأفراد يتمتعون الى اليوم بكل الامكانيات التى تتيح لهم الصعود الى الطبقات العليا لتبدو ضربا من السخرية ، فى أوروبا على الأقل • ولعلها كانت منذ نصف قرن أقرب الى الحقيقة فى الولايات المتحدة • ولكنها اليوم لا تمثل شيئا فى الحقيقة الواقعة • وعلى الرغم من خلو فكرة شومبتير فى الطبقات الاجتماعية من أى مضمون ايجابى ، فانها ظفرت بنجاح يكشف عن الفوضى الشديدة الضاربة فى الفكر الاجتماعى والاقتصادى الحاضر بصدد مشكلة الطبقات الاجتماعية : فالبراعة فى تقديم الآراء المتناقضة تقوم فى هذا الصدد مقام أى اسهام فعال فى حل المشكلة •

أما نظريات موريس هالفاكس ، وبتريم سوروكن فى الطبقات الاجتماعية فانها أفيد فى هذا المجال رغم أنها أقل حظا من النجاح• وسوف نخصص لعرضها الدروس الثلاثة التالية •

موريس هالفاكس Maurice Halbwachs

استعرضت فى دروسى الخمسة السابقة نظريات الطبقات الاجتماعية لدى الاقتصاديين غير الماركسيين الذين اهتم بعضهم بعلم الاقتصاد : شمولر الذى أبرز معيار المهنة ، وبوخر الذى أبرز معيار الثروة ، وباريتو الذى أبرز معيار الصفوة ، وفيبر الذى أبرز معيار احتكار بعض الفرص ، وأخيرا شومبتير الذى أبرز معيار الوظيفة الاجتماعية التى لم يوضحها • وكان لا بد لى أن أثبت أن أيا من هذه المفاهيم لم ينجح فى تحديد المعنى المقصود من عبارة الطبقة الاجتماعية ، أو فى التحرر من اتخاذ موقف فقهى أو فى فلسفة التاريخ • ولم ألحظ من هذه الناحية أى تقدم ملموس بالنسبة الى المفاهيم الماركسية فى الطبقات الاجتماعية • بل ان الأمر بالأحرى على العكس من ذلك • وفى ختام هذا الجزء الثانى من دروسى، المخصص لعرض النظريات غير الماريسية فى الطبقات الاجتماعية ، وقبل أن استهل الجزء الثالث والأخير الذى سأحاول أن أتناول فيه بنفسى المشكلة من جديد ، يبدو لى من المرغوب فيه أن نتوقف عند المفهومين الاجتماعيين الحقيقيين : مفهوم موريس هالفاكس الذى يستحق عرضا مفصلا ، ومفهوم بتريم سوروكن ، وفيه نقطتان جديرتان باهتمامنا •

كان موريس هالفاكس (المتوفى فى فبراير ١٩٤٥) من أشهر

الذين استمروا فى اتباع تعاليم دوركايم وأشدهم استقلالا برأيه• كرس العديد من الكتب للمشكلة التى تدرسها ؛ وكانت رسالته بعنوان « طبقة العمال ومستويات المعيشة ، أبحاث فى تدرج الحاجات فى المجتمعات الصناعية المعاصرة » (١٩١٣) • وعاد الى هذه المشكلة فى كتابه « تطور الحاجات فى طبقات العمال » (١٩٣٣) ، وفى محاضراته المطبوعة بالرونيو «الطبقات الاجتماعية» (١٩٣٨) • وفى مؤلفه «الأطر الاجتماعية للذاكرة» Les Cadres sociaux de la Mémoire (١٩٢٥) ، فصل سابع بعنوان « الطبقات الاجتماعية وتقاليدها » • وأخيرا فانه حرر فى الجزء الثالث من كتاب «القوائم» Les Inventaires الذى نشره « بوجليه » C. Bouglé دراسة بعنوان « خصائص الطبقات المتوسطة » • وسأحاول أولا أن أعيد تشكيل نظرية هالفاكس فى الطبقات الاجتماعية ، مستندا الى هذه النصوص (دون التقيد بترتيبها الزمنى) ، ثم أتناولها بعد ذلك بالنقد • وأعتقد أن لهذه النظرية مصادر ثلاثة : دوركايم ، وماركس ، ونظريات الاقتصاديين النمساويين (كارل منجر Karl Menger وأتباعه) فى الأسلوب السيكولوجى للقيم الاقتصادية المرتبطة بالحاجات •

يبدأ هالفاكس ، كما فعل ماركس ، بالتنويه بأن الطبقة لا يمكن أن تعيش دون وعى طبقى • « يبدو لنا من المتناقضات أن نفترض أن الطبقة يمكن أن تعيش دون أن تعى نفسها (•••) • ان اطلاق اسم الطبقة على مجموعة من الناس لم يظهر أو يتطور عندهم وعى طبقى ، لا يقوم دلالة على أى موضوع اجتماعى ، أو قد يدل على طبقة لم تزل فى مرحلة التكوين وليس لها وجود بعد (•••) ، أى طبقة سوف تتكون حول صورة جماعية يجب تقديم فكرة عنها على الأقل » • (طبقة العمال) • ويتجلى هنا هذا التأثير الدوركايمى من ناحية الأولوية التى يمنحها للتصورات الجماعية • ويتحدث هالفاكس فى دروسه ، فضلا عن ذلك ، حديثا مباشرا عن « التصورات الجماعية التى يمكن أن نسميها اذا شئنا ضروبا من الوعى الطبقى » • ومنذ ١٩٢٥ أدخل فى وعى بعض الطبقات فكرة

الذاكرة الجماعية التى سوف نعود اليها • وأذكر هنا فقط ملحوظة وردت فى دروسه المطبوعة بالرونيو : تنزع الطبقات الى البقاء دون اعتبار لأى سبب ، بفضل الذاكرة الجماعية التى تتمتع بها • ولا بد مع ذلك من التنويه بمظهر آخر للوعى الطبقى يلح عليه هالفاكس أكثر من غيره ، دون أن يدمجه فى هذا الوعى : ذلك هو سيكولوجية حاجات الطبقة •

والنقطة الرئيسية الثانية لدى هالفاكس هى أن الطبقات الاجتماعية تكون فيما بينها سلما مدرجا : « لا وجود للطبقات ، حسب تعريفها ، الا فى مجتمع مدرج » • « وعى طبقة ما لذاتها هو تعرفها على المستوى الاجتماعى الموجودة فيه ، وبالتالى تصور العلاقة والمزايا والحقوق والمنافع التى تقاس بها هذه المستويات ويتحدد معها هذا التدرج » • ويقابل هالفاكس فى دروسه بين « الطبقات السياسية » و « الطبقات القانونية » • و « الطبقات الاقتصادية » وغيرها ، وبين « الطبقات الاجتماعية » ، فيذكر أن هذه الأخيرة تنتظم فى سلم مدرج مستقل عن كل معيار موضوعى • « فى امكاننا أن نقول ان الطبقات الاجتماعية تشكل جماعات متدرجة ، وأنها الجماعات الوحيدة بهذا الوصف » •

ومن رأى هالفاكس أن هذا السلم يقوم على تصورات جماعية وأحكام تقويمية جماعية تنبع من المجتمع كله كما تنبع من الجماعة المعنية نفسها • « يتضمن كل تصور للطبقة حكمين قيمين : تقدير أهم مال أو أموال وأثمنها فى المجتمع المعنى ، وتقدير الدرجة القصوى التى يسمح لأعضاء الطبقة ببلوغها فى اشباع الحاجات المتصلة بها • قصارى القول أن هالفاكس يرى أن تدرج الطبقات يصدر فى المقام الأول عن الفكرة الجماعية التى يكونها المجتمع عن هذه الطبقات ، وعن فكرة الطبقات نفسها عن مركزها بالاجمال • وينحصر هذا التدرج الذى يعزى الى حركات الفكر الخاصة فى مجالين : درجة اسهام الطبقات « فى أوجه النشاط الاجتماعى الحقيقى » مقترنة بالمثل الأعلى فى المجتمع الكلى من جهة ،

و « مستوى الحاجات » الذى تتميز به كل طبقة من جهة أخرى. وسوف أدرس كلا من هذه النقاط بالتفصيل .

صرح هالفاكس : « فى كل مجتمع وجه غالب من وجوه النشاط (من حيث القيمة) ؟ ويمكن القول بأن التقسيم الى طبقات يتم وفقا للدرجة التى يسهم عندها أعضاء هذه الطبقات فى هذا النشاط السائد » (الطبقات الاجتماعية) « وبعبارة أخرى ، يوجد فى كل مجتمع مركز تتجمع فيه كل عناصر الحياة الاجتماعية ، وتستقر عنده العناصر التى تضاء مباشرة أكثر من غيرها بنور المجتمع » (المرجع السابق) « وكلما اقتربت طبقة ما من هذا المركز « مركز النشاط الاجتماعى الحقيقى » ارتفعت فى سلم الطبقات ، وكلما ابتعدت عن هذا المركز ، مركز الحرارة والجاذبية الجماعية ، ازداد انخفاض المكانة التى تشغلها فى هذا السلم . ذلك لأن الطبقات تعرف دائما بالنسبة الى الأموال التى تعتبر الأهم فى كل نوع من المجتمعات . ومهما كان نمط المجتمع الذى تنظر فى أمره ، فان المثل الأعلى ، أى المال الأسمى ، هو بلا شك شكل معين من أشكال الحياة الاجتماعية ، ولكنه فى الوقت نفسه أشد ما يمكن تصوره من ألوان الحياة الاجتماعية كثافة وحيوية » (طبقة العمال) . « عندما تنظر من هذهالوجهة الى سلم الطبقات ، نجد أنه كلما ارتفعنا من طبقة الى أخرى ، أن الجماعات تزداد تكتلا ، بمعنى أن الأعضاء ينضمون أكثر فأكثر فى داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية » . « عندما يرتفع الناس بجهودهم ، أو يكونون بعامل الصدفة فى أقرب موضع من المركز ، أى ذلك الجزء من المجتمع الذى تكون فيه الحياة الجماعية على أشد ما تكون حيوية ، يصير من العسير عليهم للغاية أن يبتعدوا عن هذا المركز ، وتبقى فيهم دائما الرغبة فى دخوله . ونتيجة لذلك فان الطبقة تشغل مكانة تزداد علوا بقدر ازدياد مساهمة أعضائها فى الحياة الجماعية بالصورة المنظمة فى مجتمعها » .

وعلى هذا يكون العمال فى رأى هالفاكس فى موقف يلزمهم « بالخروج من آن لآخر من المجتمع » أى الابتعاد بقدر الامكان من المثل

الأعلى الذى يسوده وهو «الحرية والمساواة والأخاء» . « ذلك لأن وصفهم يبدو قاسيا وغير طبيعى بالنسبة الىالحياة الاجتماعية التى انغمسوا فيها بحكم العادة . وفى هذا المعنى لا يمكن البحث عن المبدأ الحقيقى للفصل بين الطبقات فى نطاق العمل » . وانما يكون ذلك فى العلاقة مع أقرب المراكز من المثل الأعلى للمجتمع كله . ولذلك فقد « قلنا ان طبقة العمال تتميز من الطبقات الأخرى لأن أعضاءها مضطرون وهم يؤدون (عملهم) الى الانعزال عن العلاقات الاجتماعية والبنيان الاجتماعى ؛ ولكنا ندرك أن هذه العزلة وهذا الاقصاء أمران مؤلمان وشاذان ، ومن ثم فان الوقت الذى يقضونه فيهما محدود ومعروف بالدقة على قدر الامكان ، فما أن ينتهوا من أداء وظيفتهم خارج الحياة الاجتماعية حتى يجهدوا فى نسيانها ؛ وبتعبير آخر ينقطع الخط الفاصل بين العمل والحياة بمعناها الحقيقى » . ويعتقد هالفاكس أن نظرته هذه تتأيد بالملاحظة الآتية : « وكما أن الطبقات تميل الى الانعزال بعضها عن بعض منحيث المكان ، فانا نجد بالمثل أنها لا تكون فى نفس اللحظات من اليوم ولا فى نفس أيام الأسبوع فى أماكن واحدة. وعلى أية حال يبدو أن العمال حين يكونون فى الشارع يبقون فيه برضاهم أكثر مما يبقى فيه أفراد الطبقات الأخرى . ولعلهم يخبرون فيه الاحساس بالحرية والحياة الاجتماعية المكتسبة بقدر أوفر مما يخبرونه فى بيوتهم الضيقة والمغلقة كالورش ، ولأن ميولهم الاجتماعية المكبوتة بقسوة ولأمد طويل تجد متنفسا لها ، ولأنهم يحبون أن يلقوا بأنفسهم وسط الجماعة المتحركة من أفراد طبقتهم ، بل ومن أفراد الطبقات كلها » .

ويولى هالفاكس أهمية كبرى لفكرته الخاصة بتدرج الطبقات حسب درجة قربها أو بعدها من مركز المثل الأعلى المشترك فى المجتمع الذى تنتمى هذه الطبقات اليه ، حتى انه يعتقد أن فى هذه الفكرة أساسا لتوافق أو تفاوت النظريات التى تعرف الطبقات بالمهنة (شمولر) أو الثروة (بوخر) ، أو نوع العمل أو الدخل أو المشغولية أو طريقة الانفاق. « اذا كان تعريفنا صحيحا ، وكان الصحيح أن الطبقة يجب أن تشغل مرتبة

أعلى كلما ازداد اسهام أعضائها فى الحياة الاجتماعية ، بالحالة التى هى عليها فى المجتمع ، فانا نرى حلا لهذه المشكلة ، ولا نرى لها الا حلا واحدا » • « اذا كان ثمة طبقات في المجتمع ، فلا بد أن نتوقع أن الحاجات المنوعة فى كل منها لا تكون مشبعة بالكامل ولا مدرجة على وتيرة واحدة : وان تحديد مستويات المعيشة مصنفة وفقا لاشباع الحاجات الاجتماعية وغير الاجتماعية وتطورها المتباين ، ليشكل جزءا رئيسيا في دراسة هذه الجماعات » • ذلك هو الانتقال الى مجال الحاجات التى يرى فيها هالفاكس العامل الأساسى الحاسم فى تحديد الطبقات الاجتماعية ، والأيسر تناولا على أية حال لدراستها التجريبية • والواقع أن اشباع الحاجات المادية يقاس تبعا لميزانية أسر العمال ، و « تنعكس الحاجات الاجتماعية (أى غير المادية) على الحاجات المادية بمعناها الأصلى • وتدرج هذه الأخيرة هو الذى يشكل بالذات محور أبحاث هالفاكس • ويحاول هالفاكس مع ذلك بالاستناد الى فكرة الحاجات ـ السيكولوجية أساسا ـ وبالتركيز على « الميول الاستهلاكية » بدلا من التركيز الماركسى على الدور فى الانتاج ، أن يبقى على مستوى علم الاجتماع ، اذ يرى أنه فى الامكان صياغة « نظرية سوسيولوجية فى الحاجات » • ويجب أن أتوقف مع الكثير من التفاصيل عند هذا المظهر الرابع للطبقات الاجتماعية •

كتب هالفاكس : « ان دراسة الكيفية التى توزع بها نفقات العمال ، وعاداتهم الاستهلاكية ، ومستوى المعيشة الذى يمكنهم بلوغه أو الذى يميلون الى بلوغه ، لا يعنى فصل حاجاتهم عن دورهم فى الانتاج وعلاقتهم بسائر الطبقات ، تلك العلاقة التى تعتمد على التقديرات الجماعية ، لأن هذه العناصر تتدخل فى تكوين الحاجات نفسها وتقلبها • غير أن الاستناد الى الحاجات وتدرجها المتميز فى طبقة ما هو أيسر السبل ، بالنظر الى امكانية قياس النفقات ، ولأن الانسان يلمس ها هنا أبسط العناصر فى حياة الطبقة • وفى النطاق الذى كان فيه الفلاحون والعمال يشكلون طبقتين مختلفتين (الأمر الذى يشك فيه هالفاكس فى الوقت الحاضر على أية

حال) كان الفرق القائم بينهم يتركز على الفرق الموجود فى حاجاتهم ، وتدرج هذه الحاجات ، ونوع المعيشة . « والفوارق الاجتماعية مصدرها (...) المجتمع لا من حيث أنه ينتج ، بل من حيث أنه يستهلك » . « ليس فى مقدورنا أن نفهم باستنادنا الى مصطلح « العمل » كيف يتولد الوعى الطبقى ؟ ذلك لأن أولئك الذين يعملون قد استهلكوا أو سوف يستهلكون (...) ومن ثم تتجلى لهم بالمقابلة طبيعة وضعهم الشاذ لأنهم عمال » . « وهذا ما يسوقنا الى دراسة نوع الحاجات المحسوسة والمشبعة وشدتها فى طبقة العمال » . « للمعيشة مستويات حيثما يقوى نفوذ المجتمع: وتتفاوت هذه المستويات فى ارتفاعها ، غير أن كلا منها يمثل حالة من التوازن ، ونظاما من الحاجات الموضوعية ، وتكهنا بالدرجة القصوى التى يمكن اشباعها عندها » . وقد يرتبط تنوع الحاجات والعادات الاستهلاكية لدى العمال بظروف العمل (فثمة عمل يتطلب القوة أو الصبر ، وعمل يؤدى فى الهواء الطلق ، أو جلوسا ، وثمة انتاج للسلع الغذائية أو الكتب) أو يعتمد عليها .

غير أن هذا النظر لا يكون حاسما الا اذا أمكن الموافقة دون تحفظ أو اختلاف على المقابلة بين الحاجات المادية وبين الحاجات الاجتماعية . ولكن هالفاكس يحاول أن يثبت (فى الجزء الثالث من كتابه « طبقة العمال ») أن الحاجات الاجتماعية التى تتوقف على التقديرات والتقلبات الفكرية تعدل وترتب الحاجات المادية بصور منوعة . « ليست الحاجات تجريدات أو أشياء أو كميات ، انها حالات من الوعى » مرتبطة بالمجتمع ومستقلة عن الرغبات الفردية . « وهكذا فان الحاجات التى موضوعها الغذاء تميل الى أن تكون على نسق واحد ، ويميل تدرجها الى الاستقرار ، وذلك على الرغم من اختلاف الأذواق والأمزجة ، وتحت ضغط الأسعار التى هى فى الواقع حقائق اجتماعية » . والغذاء والملبس والمسكن وأوجه الانفاق الأخرى « لها معنى ومضمون اجتماعى . ومثل هذا التصنيف

للحاجات هو من صنع المجتمع ؛ ويمكن تفسيره بالضرورة التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس بأن يحسبوا مقدما مدى نفقاتهم لاشباع كل حاجاتهم فى النطاق الذى يشبع فيه أعضاء جماعاتهم هذه الحاجات » . ويصدق هذا النظر بالأكثر على « مادة الحاجات » أى الأشياء الخاصة التى تبدو أنها تشبع الحاجات بدرجة أفضل من غيرها .

كل هذا يعتمد على تقدير جماعى ثلاثى (له طبيعة شخصية) يقوم به المجتمع الكلى ، والطبقات المختلفة ، والأفراد الذين ينتمون اليها . ويمكن حفز الحاجات واشباعها من هذه الجهة بميول عقلية لا علاقة مباشرة لها بالنشاط الاقتصادى . وكان الاقتصادى الأمريكى ت. فبلن T. Veblen قد أكد منذ زمن بعيد النظرية القائلة بأن أفراد الطبقات العليا « يريدون قبل كل شىء أن يثبتوا بالطريقة التى يأكلون بها ، ويلبسون ويسكنون ، أنهم عاطلون يتمتعون بأوقات الفراغ » (ثورشتين فبلن ، نظرية الطبقة العاطلة ، ١٨٩٩ ؛ وقد أشار اليها هالفاكس فى كتابه « طبقة العمال ») . واذا كانت المسافة التى تفصل بين الحاجات الجسمية والحاجات النفسية الاجتماعية فى طبقة العمال أقل منها فى الطبقة البورجوازية ، فانها ما زالت مع ذلك باقية . « وفضلا عن ذلك فالحياة الاجتماعية تثرى (...) الحياة العضوية فى حين تبدو أنها تفقرها ، فهى تخلق بالكامل ألوانا من الشهية والاشباعات الجسمية الجديدة » . مثال ذلك : « اشتهاء الكثير من الأطعمة المعقدة النادرة » ، « راحة البدن عند شعوره بكساء نظيف » ، « السرور الذى يوفره مسكن معتنى به » وهكذا دواليك . « الحياة الاجتماعية تزيد حساسيتنا الجسمية بشكل غريب لأنها تمزج وتقرن أحاسيس مختلفة النوع والطبيعة والشدة بدرجة كبيرة فى مجموعات متماثلة للغاية (...) وانا لنزداد ميلنا الى البحث لا عن متعة واحدة ، وانما عن مجموعة من المتع المتسقة فيما بينها ، وتتساوى رغباتنا فى كل الأشياء اللاصقة بالمجموعة » .

وتتحدد حاجات العامل وأسرته بمرتبة طبقته التى تدفعه الى مشاركة غيره من أفراد طبقته بقدر واحد وصورة واحدة . ويتجلى هذا خاصة فى اختلاف التقديرات للعلاقة بين السلع الاستهلاكية وأثمانها تبعا لفئة الحاجات المطلوب اشباعها . « فى حين يبدو سعر الأغذية طبيعيا (من المعروف منذ أمد طويل أن معدل الانفاق على الغذاء مرتفع بصفة خاصة فى ميزانية العمال) ، فان المفروض أن العلاقة بين الملابس وأسعارها أقل ما يكون توثقا ، وأكثر ما يكون تعسفا . أما أسعار المساكن فليس ثمة أية قاعدة لتقديرها عند العمال » لأن « الحاجة الى المسكن هى أقل الحاجات نماء » . فالعمال ينفقون الفائض من النقود التى فى حوزتهم ، كلما استطاعوا ، فى أشياء خارج الأسرة ، أى فى المجتمع بالمعنى الواسع — فى كل ما يوثق صلتهم بجماعات الشارع ، أو جماعات طبقتهم — وذلك بدلا من أن يبحثوا عن مسكن أفضل ، ويصلحوا ما بداخل بيوتهم وأثاثهم » . « وهذا يفسر (...) أننا لا نجد فى داخل طبقة العمال تقسيمات ثانوية ذات طبيعة اجتماعية ، وأن وحدة هذه الطبقة ما زالت تامة » . ويرى هالفاكس أن « مستويات المعيشة » فى مختلف الشرائح الاجتماعية المتميزة فى الطبقات قد تكشف عن تفاوتات جسيمة . فالتدرج « فى شرائح اجتماعية متميزة ومانعة » كان من وجهة الحاجات واشباعها حقيقة واقعة فى الطبقات العليا ؛ ولكنه كان ضعيفا لا يعتد به فى طبقة البروليتاريا . « ولكن الوعى فى طبقة العمال قد اكتسب فى الاتساع ما فقده فى العمق. ويزداد تضامن العمال بسبب حرمانهم من أهم خيرات المجتمع (...) » . وباحتكاك العمال بالمادة احتكاكا دائما على وجه التقريب ، ومكافحتهم لمصاعبها ، ومحاولة التغلب عليها ، حتى ليعانون فى ذلك عزلة قاسية قد تكون أحيانا مفعمة بالمهالك ، يزداد تضامنهم . أما ارتباطهم واتصالهم بالحياة الاجتماعية فانما يتم بنوع خاص بفضل وعيهم الطبقى .

ويصل هالفاكس فى كتابه الثانى « تطور الحاجات فى الطبقات

العمالية » (١٩٣٣) الى النتيجة نفسها ، حين يتناول المسألة لثانى مرة بعد انقضاء عشرين سنة ، من ناحية تغيرات الأجور والأسعار ، لا من ناحيـة تأثير ظروف العمل . يقول « يحدد الفكر مستوى النفقات لكل طبقة تبعا لمعايير تختلف من بلد لآخـر » . مثـال ذلك أنه اذا لم يصبح العمـــال الأوروبيون المهاجرون الى أمريكا حـال وصـولهم كثيرى الالحاح على مطالبهم بدرجة الحاح العمال المولودين فى الولايات المتحـدة ، فما ذلك الا لأنهم لا يستشعرون حاجات جـديدة ، ولا يطالبون باشـباعها الا اذا رسخت أقدامهم فى الأوسـاط الأمريكيـة وازدادوا قربا وتمـاثلا بهذه الأوسـاط » . ويمـكن أن تزداد حاجات الطبقـة اتسـاعا ببيع السـلع الترفيهية بالأجل كما هو الحال فى الولايات المتحـدة . ويمكن أن تؤثر المراحل المتعاقبة لارتفاع الأسعار والأجور وانخفاضها (المرتبطة بالتقلبات الطويلة والقصيرة المدى التى ألقى سيماند Simand الأضواء عليها) تأثيرا مباشرا على امتداد الحاجات وانكماشها وبالاجمال فالحاجات « اتجاهات تتولد من الحياة الاجتماعية وتتطور معها » .

وعلى الرغم من كل هـذا الجهـد الكبير الذى بذله هالفاكس لضم الحاجات الى الأبنية والأحداث الاجتمـاعية وابراز مظهرها الاجتماعى ، فانه لم يستطع أن ينكر أن الحاجات تنبع قبل كل شىء من الحياة العقليـة وأنها تظل شخصية . ومع أن الحاجات يمكن قياسها بالنفقات ، فان تبرير ادخالها فى تعريف الطبقات الاجتماعية ، كما قال هالفاكس (فى دروسه فى « الطبقات الاجتماعية » وكذا فى رسالته) هو أنها تصدر عن التصورات الجماعية والآراء ، والتقييمات الجماعية . وفى هذا يرى هالفاكس بنفســه الفرق الرئيسى بين وجهة نظره هو ووجهة نظر ماركس . وهو لا يفترق أساسا عن ماركس حين يؤكد فى ختام دروســه أن الطبقات الاجتمـاعية لاتتماثل مع الطبقات الاقتصادية، وأن الطبقات مجموعات حقيقية ذات أهمية غير عادية ، وكليات ، ومراكز « تكاد تتماثل مع ما كانت عليه المدينة فى

المجتمعات القديمة ، وبالاجمال ـ ولو أنه لا يذكر ذلك صراحة ـ هى « ظواهر اجتماعية كلية ، لا يكون فيها الدور الذى يؤدى فى الانتاج الا مظهرا فقط ، مثله مثل سائر المظاهر الاقتصادية بما فيها مستوى المعيشة والاستهلاك .

غير أن الموقف يتغير حالما يؤكد بأن مستوى الحاجات هو الشيء المهم بصفة خاصة لمعرفة مدى اسهام الطبقة فى الحياة الاقتصادية وكذا مرتبتها فى سلم الطبقات . هذا بالاضافة الى أن هالفاكس يبرر بنفسه الرابطة بين الحاجات وبين التصورات الجماعية ، وكذلك بين الآراء وبين التقديرات الجماعية التى صارت مستقلة ولها رأيها الخاص على الرغم من عدم تمتعها بالثبات . وهكذا يدرك هالفاكس أنه ينساق الى مقابلة وجهة نظر ماركس الموضوعية النزعة بوجهة نظر شخصية النزعة . كتب يقول: « ومع ذلك فهناك فرق بين النظرية التىنقدمها ونظرية ماركس » . « دنيا التصورات الاجتماعية ، وهى تصورات مستقلة عن التكنيك ، هى دنيا نشأت فى أوساط تحررت من كل اعتبار ، من كل عنصر واقعى ينتمى الى التكنيك أو المادة . لقد نشأت دنيا التصورات الاجتماعية فى أوساط تحول اهتمامها كله لا نحو الأشياء أو المادة ، وانما نحو الناس والأشخاص والقيم الانسانية » . وغير ذلك فان « الطبقات تشعر بما ينقصها أساسا » وفى هذا أساس حاجاتها ووعيها الطبقى. ويرى هالفاكس أنالنظرية السوسيولوجية الحقيقية للطبقات تستقر فى السوسيولوجية الجماعية الخاصة بالمشاركة المختلفة القوة فى المثل الأعلى المشترك فى المجتمع . ومع ذلك فانه لا يشعر بتمام الرضاء ، ويواصل البحث عن معايير أخرى ، ويهتم خاصة بمعيارين سوف أتحدث عنهما فى درسى القادم .

موريس هالفاكس ـ (تابع ما قبله)

حاولت فى درسى الأخير أن أعيد تصوير مجموعة أفكار موريس هالفاكس المتعلقة بمشكلة الطبقة الاجتماعية • ورأينا أنه عالج هذه المسألة من ناحية بنظرة سوسيولوجية صادرة عن المدرسة الدوركايمية ؛ ومن ثم يتجلى الدور الغالب الخاص بدرجة المساهمة فى المثل الأعلى المشترك فى المجتمع الكلى ، وهى درجة تصلح معيارا لاقامة التدرج بين الطبقات • وهو من ناحية أخرى قد تناول المسألة تناول الاقتصادى والسيكولوجى ؛ ومن ثم كان الاهتمام الفائق الذى أولاه لسوسيولوجية وسيكولوجية الحاجات وطريقة اشباعها ، تلك الحاجات التى يقاس مستواها « بميزانيات العمال » • وعند عرضى لمفاهيم هالفاكس ، بسطت أربعة معايير أبرزها :

١ ـ الوعى الطبقى •

٢ ـ سلم الجماعات القائم على الرأى الجماعى •

٣ ـ درجة المساهمة فى المثل الأعلى المشترك •

٤ ـ مستوى الحاجات • ولكى يتغلب هالفاكس على النزعة الشخصية والسيكولوجية التى يتضمنها مفهومه عن الحاجات ، قدم المعيار الخامس الذى يستند اليه فى التعريف بالطبقة الاجتماعية واقامة قاعدة للتفرقة بين الطبقات • هذا المعيار هو « المادة » التى يوجه اليها نشاط

الطبقة ــ وهى بالأحرى مادة اقتصادية (العمل ، فى معظم الأحوال) .
ويتناول هالفاكس هذا التعبير بمعنيين . فكثيرا ما يستخدمه بصورة بدائية للدلالة على المادة الخام الطبيعية التى تلتزم الطبقات الدنيا بالاشتغال بها .
ولكنه يتناوله أيضا بمعنى أوسع للدلالة على مجال النشاط الذى قد لا يكون المادة الطبيعية أو الأشياء ، وانما الأشخاص وعلاقاتهم وتعاونهم أو مشاركتهم ، من حيث يستطيع غيرهم من الأشخاص أن يؤثروا عليهم، بتوجيههم فى الكثير من الأحايين أو قيادتهم .

ويرى هالفاكس ، حين يتناول أولا تعبير المادة بمعناه الضيق ، أن طبقة الفلاحين وطبقة العمال تتميزان عن غيرهما من الطبقات (وان كانت التفرقة بينهما أقل) لأنهم يستخدمون المادة استخداما مباشرا ، الأمر الذى يجعل عملهم شاقا ويضعف من شأنهم . وعادت هذه الفكرة التى ألح عليها هالفاكس فى رسالته ، فظهرت فى دروسه : « يتميز العمال بأنهم مضطرون بسبب ظروف عملهم الى مواصلة الاحتكاك بالمادة شطرا طويلا من النهار ، فهم يفقدون فيها الاستعداد والقدرة على التكيف مع أكثر أشكال الحياة الاجتماعية عامة تعقدا » . أما بالنسبة الى الفلاحين ، فانه تقل أهمية عنصر استعباد المادة للانسان للسبب الآتى ، وهو أن « سيطرة الانسان على الواقع العضوى ضعيف ومحدود للغاية » وأن الغالبية من الفلاحين يمتلكون أراضيهم . ويتناول هالفاكس فى مقاله عن « مميزات الطبقات المتوسطة » فى صحيفة Inventaire العدد الثالث ، هذه الفكرة نفسها ، ولكن بطريقة أخرى ، فيقول : « هناك أسباب لوجود طبقة متوسطة ، ذلك لأنه يوجد فى خارج المادة البحتة ، المادة الجامدة ، والناس باعتبار شخصيتهم وانسانيتهم ، منطقة وسط ، وسلطان وسط يتجلى فيه الناس والجماعات خاصة فى أشكال لها جانب آلى وجانب مادى . فمن الطبيعى ، فى النطاق الذى توجد فيه ضروب من النشاط تنطبق على هذا المظهر المادى للكائن البشرى ، أن تشغل هذه الأنشطة مرتبة متوسطة بين الطبقة البورجوازية وطبقة العمال » (الصناع ،

المستخدمون ، الموظفون ، الفنيون ، رؤساء العمال ، المديرون المساعدون، الخ) • وهكذا يتجلى هالفاكس ، بعد نزعة ذاتية الحاجات ، مدفوعا نحو موضوعية المادة التى يقوم عليها النشاط الاقتصادى ، حتى يعرف مفهوم الطبقات الاجتماعية •

وليس هذا أيضا كل شيء ؟ بالاضافة الى النقاط الخمس التى ذكرتها حتى الآن ، يظهر معيار سادس وثيق الصلة فوق ذلك بالوعى الطبقى ، ذلك هو قوة الذاكرة الجماعية التى ذكرتها من قبل • ففى اللحظة التى عالج فيها هالفاكس هذه المشكلة ، اعتبر الذاكرة مرتبطة لا باستحضار الذكريات (طالما أنه أنكر حفظها) وانما باعادة تصويرها بفضل معايير مستعارة من الأطر الاجتماعية • وبالاجمال فانه أخطأ فماثل بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الجماعية ، وكانت نتيجة ذلك أنه ألح بصفة خاصة على أطر اجتماعية للذاكرة خلاف أطر الطبقات الاجتماعية الحقيقية • ولذلك فانه لا يبنى رأيه فى هذا الصدد على الوعى الطبقى ، وانما على العرف لدى الجماعات المفروضة • ويذكر أن الذاكرة والعرف يضعفان بانتقالهما من طبقة النبلاء أو (طبقة ملاك الأراضى) الى الطبقة البورجوازية ، ومن هذه الى البروليتاريا « عندما نمت البورجوازية بمختلف الأشياء المستوردة اليها ، فقدت القدرة على أن تثبت فى داخلها سلما مدرجا ، وتحدد الأطر التى يجب أن تستقر فيها الأجيال المتعاقبة• لقد خسرت الذاكرة الجماعية عند الطبقة البورجوازية من حيث العمق (يعنى بذلك قدم الذكريات) ما كسبته من حيث السعة » (الأطر التاريخية للذاكرة) • وحل محل العرف المتجسد فى الذاكرة ، بالنسبة الى الطبقة البورجوازية « الأخلاقيات النفعية المولودة على المضمار التجارى التقليدى ، والتى ليس لها موضوع سوى التبرير الأخلاقى للنشاط التجارى ، طالما أنها تطبق على السلوك فى الحياة قواعد المحاسبة التجارية » • والذاكرة الجماعية عند الطبقة البورجوازية محسوسة بدرجة أكبر فى بعض المجموعات المهنية البورجوازية (كالتجار ، ورجال الصناعة

المتخصصين ، الخ) منها فى الطبقة بأجمعها • « فى حين أن الطبقة البورجوازية القديمة تسعى جاهدة للابقاء على حدود وفواصل منيعة بينها وبين غيرها من الجماعات التى لا تملك تقاليد متصلة راسخة كتقاليدها ، فانها لا تتردد فى التعرض لكل ألوان الاحتكاك بالخارج • فهى تجلب أفكارا وعادات تستعيرها من أوساط لا تشيع فيها المفاهيم البورجوازية ، ويعيش فيها جنبا الى جنب أناس أتوا من كل حدب وصوب » • أما بالنسبة الى طبقة العمال ، فانها لم تعد تملك ذاكرة جماعية فعالة فى صورة عرف لسرعة تغير أطرها ، وعدم أهمية ماضيها •

لقد التزمت بعرض أفكار هالفاكس مستخدما بقدر الامكان تعبيراته الخاصة ولغته الخاصة ، مثلما فعلت بصدد المؤلفين السابقين عليه • وقبل أن أضع مفاهيمه موضع التقييم والنقد ، أود أن أحاول تلخيص تعريفه للطبقة الاجتماعية فى صيغة واحدة : فالطبقات الاجتماعية مجموعات متدرجة الى أقصى حد ، لها وعى جماعى نوعى ، وتتجلى فيها درجات متميزة من حيث اسهامها فى المثل الأعلى المشترك للمجتمع الذى يضمها ، وفى الأنشطة المتصلة بها • وتفترق من حيث مستوى حاجاتها ، وبالتالى بالنسبة لنوع المعيشة الخاصة بها ، وكذلك من حيث المادة التى ينصب عليها عملها ونشاطها الاقتصادى ، وقوة ذاكرتها التاريخية التلقيدية •

* * *

واذ أصل الآن الى نقد نظرية هالفاكس فى الطبقات ، فانى أود أولا أن أستخلص صفاتها • ان أكبر فضل لهذه النظرية هو أنها كانت على ادراك تام بأن ظاهرة الطبقات الاجتماعية شديدة التعقيد وأنه من الضرورى استخدام عدة معايير مجتمعة لحصر هذه المجموعة الغنية بالمظاهر والألوان المتفاوتة ، الا وهى الطبقة الاجتماعية • ورأى هالفاكس أيضا بوضوح أن اللجوء الى دور الانتاج وحده لا يكفى فى هذا الصدد لسببين : أولهما أن عنصر الحاجة والاستهلاك قد لا يتوافق مع هذا الدور ، وثانيهما أن العنصر السيكولوجى والتقديرى المتضمن فى الظاهرة الكلية للطبقة قد

يؤيد هذه الوظائف الاقتصادية وقد يتناقض معها، ويلوح لى أن لهالفاكس فضلا آخر لا نزاع فيه : اذ قد نجح بدرجة أكبر من سائر علماء الجماهير الاجتماعية النظريين الذين استعرضت آراءهم حتى الآن ، فى انتزاع أفكاره من كل فلسفة فى التاريخ وكل موقف سياسى ؛ فهو بتعبير آخر أقل علماء الطبقات الاجتماعية نزوعا الى الايديولوجية .

ومع ذلك لا بد لى من الاعتراف بانى لا أرى أيا من المعايير التى يتضمنها التعريف الذى صاغه مرضيا . فالالتجاء الى الوعى الطبقى باعتباره وعيا جماعيا لجماعة من الناس دون أى تبيين آخر (حتى بغض النظر عن الفكرة الدوركايمية التى تقتصر على التصورات الجماعية المتسامية بالأولى) لا يلوح لى أنه يشكل معيارا : فالواقع من جهة أنه يوجد فى كل جماعة من الناس وعى جماعى ، طالما كانت جماعة كاملة التكوين ، والطبقة الاجتماعية الناشئة ، مثلها مثل غيرها من الجماعات دون استثناء قد توجد فى حالة ناقصة التكوين (فلها عندئذ وعى مشتت) أو فى حالة كاملة التكوين (وفى هذه الحالة يثبت لها وعى) . ومن جهة أخرى فان الوعى الطبقى ليس وعيا جماعيا فحسب ، ولكنه وعى جماعى له قوة وثروة خاصة ، قادر على انتاج أعماله الثقافية الخاصة ومقابلتها بالأعمال الثقافية الخاصة بالطبقات الأخرى ، بل وبالمجتمع كله . ولكن هالفاكس لا يعطى لهذا الموضوع ما يكفى من التبيين ، أو انه يرى بالأحرى فيما يقدمه من البيان ، أن الوعى الجماعى السائد فى المجتمع الكلى يسيطر على الوعى الطبقى ويشيع فيه .

أما المعيار الثانى الذى قدمه هالفاكس ــ وهو معيار « الجماعات المتدرجة » بهذا الوصف ودون أية علة للتدرج خلاف الرأى والتقدير الجماعى ــ فانى لا أراه مرضيا هو أيضا . فالواقع أنه فى كل نمط من أنماط المجتمع الكلى ، مهما كان شأنه ، تنتظم المجموعات الخاصة المختلفة الأنواع فى سلم نوعى من المجموعات الوظيفية ؛ مثال ذلك أن الجماعات

السائدة في هذا السلم قد تكون أحيانا الأسرة وأحيانا الكنيسة ، أو الدولة ، أو المجموعات الاقتصادية ، دون أن تصير أية مجموعة من هذه المجموعات الوظيفية من أجل ذلك طبقة اجتماعية • وقد تشكل المجموعات التى من نوع واحد فى الوقت نفسه تدرجات فيما بينها : من ذلك ، المهن والحرف ومجموعات السن والجنس ، وجمعيات الأخوة المشتغلة بالسحر أو غير المشتغلة به ، والمجموعات السلالية ، والأقليات التى قد تتدرج فى العلو أو تتجاور ، حسب التقديرات الجماعية الصادرة عن الوضع الاجتماعى فى مجموعه• وعلى هذا النحو لا يمكن أن تصبح هذه المجموعات طبقات اجتماعية ، مثلها مثل البلدة أو المجلس البلدى الخاضعين للدولة ، أو المنظمات أو الأقسام الدينية الخاضعة للكنيسة (التى يصف هالفاكس تدرجاتها بأنها قائمة على معايير موضوعية) • من الصحيح تماما أن تشكل الطبقات فى العادة سلما مدرجا ، ومع ذلك فانها قد توجد أيضا فى وضع توازن • ولما كان فى كل مجتمع عدد من المجموعات المتدرجة فيما بينها لأسباب مختلفة ، دون أن تتحول مع ذلك الى طبقات اجتماعية ، فانه لا يمكن استخدام التدرج معيارا لتمييز الطبقات الاجتماعية من المجموعات الأخرى •

وثالث المعالم المميزة التى يقترحها هالفاكس هو درجة مساهمة جماعة ما فى المثل الأعلى المشترك للمجتمع ، وفى الأنشطة المتصلة به • ويستند هذا المعيار على صحة فرض ثنائى لا يمكن أن ننكر أنه «روحى» السمة • فمن المفترض أول كل شىء أن فى «الظاهرة الاجتماعية الكلية» وهى الطبقة الاجتماعية ، كما فى « الظاهرة الاجتماعية الكلية » الأخرى وهى المجتمع الاجمالى ، تكون التقديرات الجماعية للقيم ، والمثل العليا ، والأفكار ، والأعمال العقلية ، والتصورات الجماعية ، هى دائما المسيطرة رأسيا على جميع القواعد الأخرى (قاعدة شكلية ، تنظيم ، نماذج فنية واقتصادية ، سلوك سوى ، أدوار ، اتجاهات ، رموز ، الخ) • ثم يفرض بعد ذلك أن فى كل نمط من أنماط المجتمع الاجمالى يسود دائما

مركز واحد يتجسد فيه مثل أعلى مشترك ، أى ثبت بالقيم التى يسلم بها الجميع بما فيها الطبقات التى تتصل بها بدرجة من الشدة غير متساوية • غير أنه يمكن التأكيد بأن مشكلة الطبقات الاجتماعية انما تنبثق بالذات فى المجتمعات الاجمالية التى فقدت مركزها الوحيد الخاص بالمثل الأعلى المشترك ، فى حين أن كل طبقة تتميز خاصة ، بأن لها ، بالفعل أو بالتقدير ، مركزها الخاص بالمثل الأعلى النوعى • فاذا أردنا أن نصنف الطبقات تبعا لدرجة اسهامها فى المثل الأعلى المشترك ، فاننا بذلك نبرز فى مجتمع منقسم على نفسه من جراء الصراع الطبقى موقفا ليس له وجود الا فى بناء اجتماعى اجمالى لم تتكون فيه الطبقات بعد • ثم ان هذا الأمر يفسر حقيقة عجيبة : ذلك أن هالفاكس الذى درس على الأخص طبقة العمال فى نظام الرأسمالية التنافسية المتطورة ، وبحث عن معايير من أجل اجراء تحقيقات تجريبية على الطبقات فى المجتمعات الحاضرة ، يعتبر من المؤلفين الذين يؤمنون بوجود الطبقات فى جميع أنماط المجتمعات • وعلى هذا النحو يصادف مصاعب فى تمييز الطبقات من المراتب والهيئات والمجموعات ذات الصلات الاقتصادية ، الخ •

أما المعيار الرابع الذى ذكره هالفاكس لتعريف الطبقة الاجتماعية ، وهو « مستوى الحاجات » فانه ينقلنا من « الروحية » الاجتماعية الى السيكولوجية الاقتصادية • فالحاجة تصدر عن الظاهرة النفسية الكلية التى لها مظهر فردى ومظهر جماعى • ولكن الحاجة هى دائما فى الوقت نفسه شخصية ومتغيرة على الأقل ؛ والخاصية المميزة لكل ما هو نفسى أنه درجة نامية أو درجة متناقصة فى التوتر ازاء الميل الغريزى • والذاتية subjectivisme (١) الجماعية ، والذاتية الفردية ، يتداخلان ، ويتشابكان ، ويجتمعان فى تطلعات مشتركة ؛ فاذا لم ينضما فى أبنية اجتماعية ، ولم يجدا فى هذه الأبنية مكانهما الصحيح (وهو أمر عسير

(١) الذاتية subjectivisme — منحى فلسفى يرى أن المعرفة والأحكام القيمية انما ترجع الى الذات المدركة . (مجمع اللغة العربية)

التحقيق) فانهما يفشلان فى انشاء « سوسيولوجية الحاجات » التى يعدها هالفاكس أساسا لنظريته فى الطبقات الاجتماعية • ويبدو على أية حال أنه يسلم بأن الحاجات تتبع حتميتها النوعية ، وأن التدرج فى اشباعها ، وفى مستوى حياة الأفراد المعنيين بها ، يعطى أصدق المراجع التى يستند اليها لتحديد الطبقات الاجتماعية •

على انى وان كنت لا أنكر أن مظهر الحاجات واشـباعها يجب أن يكون موضع الاعتبار ، الى جانب الانتاج والدور الذى يؤدى فيه ، ولكنى لا أستطيع أن أوافق على فصل الحاجة ، وبصورة أوسع « الظاهرة النفسية الكلية » ، من « الظاهرة الاجتمـاعية الكليـة » عند الكلام عن الطبقـات الاجتماعية واسهامها فى الحياة الاقتصادية • وليست الحاجات ، واشباعها ، والانتاج ، والاستهلاك ، وكل مظاهر الحياة الاقتصـادية هذه الا مظاهر لوضع اجمالى • وهذا الوضع الاجمـالى هو ما لا بد من ادراكه أولا ؟ ولا يمكن الوصول الى ذلك الا بالتيقن من أن الطبقـات الاجتمـاعية هى مجمـوعات « فوق وظيفية » لا ينفذ فيها المجتمع الاجمالى ، وتزاحم هذا المجتمع الاجمالى ، وهى متعارضة فيما بينها • وتتولد الحاجات المنوعة لدى الطبقات الاجتماعية من هذا الوضـع ، ويمكن أن تتكون من الحاجة الى تنوع الحاجات (اذا سمحت لنفسى بمثل هذا التلاعب بالألفاظ) • ويمكن فهم سوسيولوجية الحاجات بتبين أن تنوع الحاجات عند مختلف الطبقات يصدر أخيرا عن أوضاعها المتقابلة ، والعلاقات بينها ، واختلاف ادراكهـا للعالم الخارجى ، ومعرفتها لذواتها ولغيرها ، وكذا المنافسـة بين جداول قيمها ، وبين مثلها العليا النوعية •

ويخشى عند تقدير اشباع الحاجات بالقياس على الأسعار والأجور من تشتيت الطبقات الاجتماعية ــ بما فيها طبقة العمـال ــ فى ذرات من المسـتويات أو الشرائح • ويتخلص هالفـاكس من هذه الخطورة بذكر ظاهرة واقعية لا أظن أنه يستطيع الاحتفـاظ بهـا فيما يختص بالظروف

الحاضرة : ذلك أن مستوى المعيشة عند مختلف شرائح الطبقة العمالية يميل الى البقاء على ارتفاع واحد (الأمر الذى لا ينطبق بالمرة على الحقائق الملحوظة فى الآونة الحالية) .

وأما المعيار الخامس الذى يطبقه هالفاكس لتميز طبقة العمال وطبقة الفلاحين من سائر الطبقات ، فانى أشك فى صحته . الواقع أنه من الصحيح بوجه عام القول بأن طبقة العمال وطبقة الفلاحين يتعاملون على الأخص « بالمادة التى تتداولها الأيدى » . غير أنه كلما تطورت الصناعة الآلية ، قل هذا الاحتكاك المباشر بالمادة . فادارة الآلة أو الاشراف عليها لا يعتبر ، الا بدرجة نسبية للغاية ، استعمالا مباشرا للمادة . ثم ان الجزم بأن العمل اليدوى « يعزل » العامل عن المجتمع ، أمر لم تثبت صحته فى الكثير من الأحوال . وقد يصح هذا النظر بالنسبة الى العمال الذين يشتغلون فى المناجم ، وبعض الأعمال الخطرة التى تزاول بصفة فردية ، ولكنه لا يصح بالنسبة الى الجهود التى تبذلها فرق العمال ، والعمل «المسلسل» (١) وما شابه ذلك . ولا ريب فى أن فرق العمال المختلفة أو المصنع بأجمعه يمكن أن تتصدى للمجتمع الاجمالى باعتبارها جماعات خاصة . غير أن هذا التصدى الشديد انما يميز كل طبقة اجتماعية وليس طبقة البروليتاريا وحدها. ولا تنتج العزلة التى يسببها العمل والتى ذكرها هالفاكس من الصفة اليدوية للعمل ، وانما لأنه يسود فى داخل المصنع سلطة مهيمنة ، هى على النقيض من النظام الديموقراطى الذى يمارس عادة فى المجتمع الاجمالى .

والعمال لا يؤدون كلهم جهودا يدوية ؟ فالقسم الكبير منهم لا يؤدى هذه الأعمال لأنه يتولى المراجعة والتوزيع ، وتداول المنتجات المصنوعة . وكثير من العمال لا يقومون الا بجهود عقلية أو انتباهية ، فلا يتحولون من

---

(١) le travail à la chaîne اصطلاح فنى فى علم ادارة الاعمال بمعنى تقسيم العملية الصناعية وتكامل وتدرج وحداتها فى انتاج السلعة (المراجع) .

أجل ذلك الى طبقة متوسطة (كعمال الكتب والطباعة) • وفضلا على ذلك فان الانسان قد يشتغل بالمادة ولكنه لا يصبح من أجل ذلك بروليتارياء مثال ذلك حالة الخبراء والباحثين فى الطاقة الذرية ، وبصورة أوسع حالة عدد كبير من الفيزيائيين والكيمائيين والمهندسين ومساعديهم الفنيين الذين قد ينتمون الى طبقات مختلفة • وثمة نقاشون بل وفنانون مشتغلون بالمجوهرات ، وكبار الخياطين والحائكين وصانعى القبعات المشهورين ، يشتغلون بالمادة ولكنهم قد ينتمون الى الطبقة البورجوازية ، شأنهم شأن النحاتين والمهندسين المعماريين والمصورين وغيرهم • فالعمل الذى يتخذ المادة موضوعا له بصورة مباشرة أو غير مباشرة لا يمكن أن يتخذ معيارا لتمييز البروليتاريا والطبقة المتوسطة والبورجوازية • ولعل هذا الدليل يكون أكثر فائدة للتفرقة بين بعض المهن التى تستعمل مواد معينة • ولكن هالفاكس يعرف تماما أن الطبقات الاجتماعية لا تتماثل مع المهن •

أما فيما يختص بمعيار قوة الذاكرة الجماعية ، فيجدر أولا تفهم معنى هذا التعبير • فاذا كانت هذه هى الذاكرة الجماعية الحقيقية ـ التى يميزها هالفاكس فى كتابه الذى نشر بعد وفاته « الذاكرة الجماعية » تمييزا تاما عن الذاكرة التاريخية باعتبارها « اعادة ترتيب » (وليس اعادة بناء) ما قد عاشه الأفراد بالفعل • و « اعادة الترتيب » هذه لا يمكن أن تتجاوز فى مداها الفترة الزمنية التى شهدها الفرد بنفسه ، اذ الأمر هنا يتعلق بالعودة الى هـذه الفترة ـ اذا كان الأمر كذلك ، كان هالفاكس على حق ، ولو بعض الحق • معنى هذا أنه يمكن التسليم بأنه لما كانت طبقة العمال أضعف استقرارا من حيث العمالة من الطبقة البورجوازية ، وأقل غلقا من طبقة ملاك الأراضى (الذين خلفوا النبلاء) ـ فان لها ذاكرة جماعية أكثر تغيرا مما عند سائر الطبقات • ومع ذلك فانى اعتقد من هذه الوجهة أن المقابلة تكون أوضح بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين الذين يكونون أثناء حياتهم بصفة خاصة تحت سيطرة قوة الذاكرة الجماعية التى تتداولها

الأجيال المتعاقبة بدرجة متفاوتة من الشدة ، فتتوحد بذلك الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية •

أما بخصوص طبقة العمال ، فقد قل التغير فى تشغيل أفرادها وفى تكوينها باطراد منذ نصف قرن • وتدعم الاستقرار فيها بسبب أن الخروج منها والصعود الى طبقة عليا أو « العودة الى أراضيها » قد أصبح أمراً عسيرا وغير محتمل ، بل واستثنائيا بصورة متزايدة • يضاف الى ذلك ، تنظيم الطبقة العمالية باطراد فى نقابات وأحزاب سياسية ، وكذا بناؤها القوى التقدمى الذى يتم بمعاونة العلامات والشارات والرموز والأفكار والقيم المتبلورة بدرجات متفاوتة • وفى هذا المعنى تكتسب الطبقة العمالية ذاكرة جماعية فعالة تزداد وضوحا ، وتندمج فى الوعى الطبقى • فمن العسير على هذا النحو اللجوء الى قوة الذاكرة الجماعية كمعيار للتمييز بين مختلف الطبقات •

موريس هالفاكس (ختام) ـ بتريم سوروكن

بقى لى فى ختام التحليل النقدى لمفهوم الطبقات الاجتماعية عند م. هالفاكس ، أن أضيف بضع كلمات فى مشكلة الذاكرة التاريخية للطبقات ، وكذا فى أعمالها الثقافية . فقد أكد هالفاكس أن الذاكرة الجماعية التى يعيشها الأفراد بصورة مباشرة والتى يمكن اعادة ترتيبها ، أقوى فى الطبقات العليا منها فى الطبقات الدنيا ، وخاصة طبقة العمال . غير أننا رأينا أن هذا التبين يتطلب فى الوقت الحاضر تحفظات هامة ، باعتبار أن هذه الطبقة قد استقرت ، وأن التنظيمات النقابية والسياسية فى طبقة العمال تبرز معالم هامة يهتدى بها فى اعادة ترتيب ما عاشه الناس معا.

لنتناول الآن الذاكرة التاريخية باعتبارها متميزة عن الذاكرة الجماعية ، أى أنها اعادة تصور ماضى الطبقة ، تقوم به أجيال لم تشهد هذا الماضى قط ، وتلجأ حتما فى سبيل ذلك الى التقاليد والنماذج المنقولة أو المكتسبة من جديد . وربما كان من الميسور حينئذ أن نفهم لماذا اعتبر هالفاكس أن البورجوازية ، والبروليتاريا خاصة ، قد تجرد كل منهما من هذه الذاكرة أكثر مما تجردت منها الطبقات فى عصر أسبق . ومن الجلى أن الانسان اذا لم يميز بين الطبقات وبين المراتب ، فانه يسهل التسليم بأن النبلاء كانوا يتمتعون بالذاكرة التاريخية التى تتصل بأسرهم وأعمال

وتصرفات أجدادهم • وفى الامكان أن تتبين أيضا أن طبقة العمال كان لها فى منتصف القرن الماضى قليل من التقاليد التى تتيح لها اعادة بناء ذاكرتها التاريخية • بيد أن الأحوال تغيرت منذ ذلك الحين • فذكرى الكومون، والجبهة الشعبية ، والمقاومة فىعهد الاحتلال ، والاضرابات العامة والجزئية التى سجلت ضروبا من النجاح قد اسهمت كلها فى خلق ذاكرة تاريخية فى طبقة العمال الفرنسية ، وفى المقدور اجراء ملاحظات مماثلة بالنسبة الى البلاد الأخرى •

واذا تراءت الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية فى ذهن هالفاكس أضعف عند طبقة العمال منها عند الطبقات الأخرى ، فانما مرد ذلك الى ظاهرة أخرى خلاف الظاهرة التى تبدت فى ذهنه : تلك هى نزوع طبقة العمال فى وعيها الى التطلع نحو المستقبل ، ووجود المستقبل فى قلب الحاضر نفسه ، بالصورة التى يعيش بها العمال حاضرهم أو يفسرونه • من المستحيل اذن فصل المظاهر المختلفة للوعى الطبقى ، كالوعى الذاتى ، والوعى بالحاجات ، والذاكرة والتصورات الجماعية ، ومعالجتها كل على حدة • ولا بد من تفهم هذا الوعى كمجموعة ، وهذه المجموعة هى الظاهرة النفسية الكلية المميزة للطبقة • ولا يمكن أيضا فى هذا الصدد فصل العنصر النفسى ـ ولا حتى الوعى الحقيقى ـ من فحواه و «أعماله» ، بما فيها الأعمال الثقافية • وهنا أصل الى التحفظ الأخير الذى يجب أن أشكله فى خصوص نظرية الطبقات لهالفاكس •

هذه النظرية لا تعير الاهتمام الكافى بالنماذج والأعمال والرموز والقيم والأفكار والمثل العليا عند كل طبقة • فهى بتأثير المدرسة الدوركايمية ، تربط هذه العناصر ربطا وثيقا بالوعى الجماعى الوحيد السائد فى المجتمع الاجمالى الذى يضم الطبقات الاجتماعية • ونظرية هالفاكس رغم تركيزها على عنصر الوعى الطبقى ، لا تصف لنا تنازع أساليب المعرفة ، وتدرج القيم ، وقواعد الأخلاق ، والجمال ، و « رؤى

العالم » الخاصة بالطبقات المختلفة ، وكذا النزاع بين المذاهب التى تبررها. والعجيب الى جانب ذلك أن هالفاكس نفسه يربط الذاكرة الجماعية عند الطبقة البورجوازية بالأخلاق النفعية وبتفسير نوعى للجدارات والقيم .

ولم تعرض المشكلة بالنسبة الى طبقة العمال أو طبقة الفلاحين أو الطبقة المتوسطة . والأرجح أن الذى منع تقدم هالفاكس فى هذا الاتجاه هو مفهومه عن المثل الأعلى الأوحد والمركز الوحيد للأنشطة الجماعية التى ترتبط به . وهنا أيضا يعيب نظريته فى الطبقات الاجتماعية الخطأ المضاد للخطأ فى النظرية الماركسية . واذا كانت النظرية الماركسية تماثل مباشرة بين وعى الطبقات البروليتارية وبين المذهب الماركسى ، وتغضى عن كل تحليل سيكولوجى للوعى الطبقى ، فان نظرية هالفاكس فى أساسها نظرية سيكولوجية ــ ولا يعدل العنصر الجماعى للنفس من طبيعتها ــ وهى ترجع دواما الى المنحى السيكولوجى رغم أنها تحاول جاهدة أن تتخطاها .

ويجب أن نضيف أن هالفاكس لم يحدد وجود ظاهرة « الطبقة » بعصر الصناعة ، وأنه باستثناء المجموعات ذات الرابطة الاقتصادية ، قد أغضى عن دراسة المجموعات العديدة التى تتلاقى مع الطبقات الاجتماعية وتشكل فى داخلها سلالم وتركيبات منوعة . وهكذا نلمح حدود نظرية الطبقات هذه ؛ والميزة الكبرى لهذه النظرية كما أسلفنا القول ادراكها للتعقيد الذى تتسم به هذه المشكلة ، وضرورة استخدام عدة معايير ، وأخيرا امكانية دراسة بعض وجوه ظاهرة الطبقات عن طريق الأبحاث التجريبية .

بتريم سوروكن Pitrin Sorokin

لم يبق لى فى ختام هذا العرض للنظريات غير الماركسية فى الطبقات الاجتماعية الا أن أدرس مفاهيم العالم الاجتماعى الأمريكى بتريم سوروكن • فقد حاول فى كتابه « المجتمع والثقافة والشخصية » ، سنة ١٩٤٧ ، وفى مقاله الذى نشر فى صحيفة Cahiers Internationaux de Sociologie العدد الثانى ، أن يجيب بالتفصيل على السؤال: « ماهى الطبقة الاجتماعية ؟ » ـ وينقد سوروكن ، أول كل شىء ، نقدا صادقا مجموعة من تعريفات الطبقة الاجتماعية تراءت له غير مقبولة (ذكرت بعضها وأهملت البعض الآخر) •

(أ) من ذلك أنه لا يوافق على أن تنسب الطبقة الى حشد اسمى ، أى مجرد جمع من الأفراد ينطبق على معيار ما • ويذكر فى طليعة المؤلفين الذين وقعوا فى هذا الخطأ وارنر Warner ، ولنت Lunt غير أننا رأينا فى سياق دراستنا أن هذا أيضا كان مفهوم باريتو ، وماكس فيبر ، وجيجر ، وكل أولئك الذين يماثلون بين الطبقات وبين بعض الفئات الاجتماعية القائمة وفقا لمستوى الدخل والثروة أو المرتبة •

(ب) ويرفض كل تعريف سلبى بحت للطبقات الاجتماعية من شأنه أن يعتبرها مجموعات من أفراد متشابهين ، بصرف النظر عن السن أو

الجنس أو الوظيفـة (سـمر وكيـلر ، أو أوجبرن ونمكوف بالولايات المتحدة ، وماهيم ببلجيكا) •

(ج) يستبعد التعريفات التى ترد الطبقات الى التدرجات الاجتماعية، وهى مفاهيم تقترن كثيرا ، كما رأينا قبلا ، بالتفسـير الاسمى النزعة • ويشير فى هذا الشأن الى كتاب « مبادىء علم الاجتماع » (١٩٣٣) لهيلر، وفيه نطالع ما يلى : « يطلق اسم الطبقة الاجتماعية على كل قسم دائم فى المجتمع يقوم على فروق ثابتة نسبيا فى المرتبـة ، ومفصـول عن الشرائح الأخرى بمسافة اجتماعية » • ويستخلص سوروكن ثلاثة أخطاء فى هذا التعريف : فهو لا يبين أى معيار نوعى للطبقـة الاجتمـاعية بالنسـبة الى المجموعات الأخرى التى كثيرا ما تكون متدرجة ؛ وهو يهدم وحدة كل طبقة اذ يتكون فى داخلها تدرجات لمجمـوعات حسب مسـتوى مكاسـبها وحاجاتها ونوع معيشتها ؛ وأخيرا فثمة طبقات اجتماعية يمكن أن تكون فىمرتبة واحدة، مثل العمال والفلاحين، أو ملاك الأراضىوالبورجوازيين•

(د) يرفض سوروكن التعريفات التى تماثل بين الطبقة الاجتمـاعية واحدى الجماعات « أحادية الوظيفـة » ، ويستخدم العبارتين « أحـادية الوظيفة » و « متعـددة الوظائف » فى معنى ممـاثل تقريبـا للمعنى الذى استخدمتهما فيه منـذ كتـابى « فكرة القانون الاجتمـاعى » (١٩٣٢) • فالجماعة التى تؤدى عملا واحدا هى جماعة أحادية الوظيفـة ؛ فاذا كان لها عدة أعمـال فهى متعـددة الوظائف • غير أن سوروكن يجهل الحالة الثالثة التى أكدت عليها فى مناسبات كثيرة ، حالة الجماعة فوق الوظيفية ، وعلى الأخص حينما تطبق هذه الحالة لا على المجتمع الاجمالى ، وانما على مجموعات خاصة فريدة فى نوعها ، هى فى رأيى الطبقـات الاجتماعيـة بذاتها •

وكيفما كان الأمر ، فان سـوروكن حين يكشف عن خطأ نسـبة الطبقات الى المجمـوعات أحـادية الوظيفـة ، فانه لا يقصـد فقط النزول

بالطبقات الى مجرد مهن (شمولر) ، أو أنشطة مختلفة الأنواع (اه بوير) وانما يقصد أيضا ـ دون أن يذكر ذلك ، بل وربما دون علمه ـ مفهوم شومبتير الذى أتيح لى أن أعرضه وأناقشه فى هذه الدروس •

وينتقد سوروكن أيضا النظريات التى تماثل بين الطبقات الاجتماعية وبين بعض الامتيازات أو ضروب من انعدام الأهلية القانونية أو الاقتصادية الأمـر الذى يؤدى الى الخـلط بين الطبقـــات ، والمـراتب états والشرائح Strates

(هـ) وأخيرا فأنه يهاجم بالمثل النظريات التى تعرف الطبقات الاجتماعية بأنها مجموعات متعددة الوظائف ـ مثلمـا يفعـل هو ـ ولكنها تركز على وظائف غير رئيسية • ويضرب مثالا لذلك فكرة ت• فبلن T. Veblen فى كتابه « نظرية الطبقة العاطلة » (١) حيث يلح على وظيفة الانســـان العاطل الذى يستمتع بأوقات فراغه ، والمســتهلك الكبير الذى يعيش فى رخاء ، وينسب هذه الوظيفة الى الطبقات العليـا ، بما فيها رجال الصناعة وأصحاب المصارف فى الوقت الحاضر • وعلى ذلك فانه يحـدد الطبقـة استنادا الى وظيفتين : الكسب ، والبطالة • ويذكر ســوروكن أيضا على سبيل المثال مفاهيم « تارد » Tarde وجونار Gonnard اللذين يبرزان أهليـة التزاوج والاختلاط ، والاشتراك فى مســتوى الثقافة ، ونوع المعيشة الخ •

وعندما شرع سوروكن فى وضع تعريف ايجابى للطبقة الاجتماعية، لاحظ أنه يجب لذلك ادخال هذا المفهوم فى تصنيف عام للمجموعات ؛ وفى ذلك كتب : « العلة الرئيسية فى الصعوبات التى ظهرت ، أن ما من واحد من مؤلفيها طور نظرية منهاجية للجماعات الاجتماعية أو حاول عمل تصنيف دقيق لها يمكن التحقق من صحتـه بالتجـربة • هذا القصـور الأساسى يؤدى حتما الى خلط الطبقات الاجتماعية اما بمجموعات من نوع

---

(١) Theory of the Leisure Class

آخر ، واما بتجمعات مجردة من كل واقع اجتماعى فعلى » • ويسترسل :
« ليس ما نبحث عنه هو جماعة من الجماعات المتعددة الوظائف السالف ذكرها ، وانما جماعة لم يسبق ذكرها ، قد نسميها « طبقة اجتماعية » أو شيئا آخر ، فلا أهمية لذلك ، ولنا أيضا أن نسميها « اكس X » •

ويمزج سوروكن عددا كبيرا من المعايير ، كما فعل هالفاكس ، ليعرف الطبقة الاجتماعية ويرسم الحد الذى يفصلها عن المجموعات الاجتماعية الأخرى • وفى رأيه أن الطبقات الاجتماعية :

١ ـ مفتوحة قانونا للكافة ، ولكنها نصف مغلقة فى الواقع •

٢ ـ تقوم على ضروب من التضامن •

٣ ـ طبيعية •

٤ ـ فى حالة تناقض أو تنازع •

٥ ـ منظمة تنظيما جزئيا ، وبالأخص شبه منظمة •

٦ ـ واعية جزئيا ، وغير واعية جزئيا ، من جهة وحدتها ووجودها•

٧ ـ من سمات المجتمع الغربى فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين •

٨ ـ تمثل جماعات متعددة الوظائف ، متحدة برباط مزدوج أحادى الوظيفة ـ رباط المهنة ، والحالة الاقتصادية (بأوسع المعانى) ورباط التقسيم والتدرج الاجتماعيين ـ أى بوجود مجموعة من الحقوق والواجبات تختلف اختلافا تاما عن مثيلاتها فى الطبقات الاجتماعية الأخرى •

نلخص الشرح الذى يقدمه سوروكن نفسه للسمات الثمانية للطبقة الاجتماعية :

١ ـ تختلف الطبقة من حيث انها مفتوحة قانونا ونصف مغلقة فى الواقع ، عن الطوائف وكذا عن المراتب التى خلفتها الطبقة تاريخيا •

٢ ـ أعضاء الطبقة فى جملتهم متضامنون ، بسبب نظامها المهنى والاقتصادى والقانونى ، رغم وجود منازعات ثانوية فى داخل كل الطبقات •

٣ ـ فى بعض اللحظات تتصدى طبقة أو أكثر لطبقات أخرى •

٤ ـ الطبقة جماعة « طبيعية » بمعنى أن مركزها يعتمد على الوضع فى مجموعه ، وليس فيه أى شذوذ ، ويحكمها نوع العمل الذى تنجزه• مثال ذلك فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى يقترن العمل اليدوى (الموصوف أو غير الموصوف) بشىء من الحطة ، والعمل العقلى أو المنظم بشىء من الرفعة •

٥ ـ لكى تشكل جماعة ما طبقة حقيقية ، يجب أن تتضمن على الأقل جزءا منظما وجزءا آخر شبه منظم • ولا يفسر سوروكن بوضوح ما يقصده بعبارة « شبه التنظيم » quasi-organisation ، ذلك لأنه يماثل أحيانا بين « شبه التنظيم » وبين « الوعى بوحدة الطبقة » ، وأحيانا يواجه الواحد بالآخر فيطلق تعبير « شبه التنظيم » على واقعة تدريب الأعضاء غير المنظمين بمعرفة التنظيم ؛ ويقصد أحيانا بهذه العبارة مايسميه الأمريكيون Informal organization « التنظيم غير الرسمى » والذى يتلخص فى نوع من التوازن الداخلى للجماعة ، من الأصح تسميته حسب الأحوال « القابلية للبناء » أو « البنائية » structuration أو « المبنى » structure ، وكلها ظواهر لا تختلط أبدا بالتنظيم •

٦ ـ يقدم سوروكن شرحا مقتضبا لوصفه للطبقة الاجتماعية بأنها « واعية جزئيا وغير واعية جزئيا بوحدتها ووجودها » ، ولا يحدد كيف يعمل هذا الوعى ولا كيف يتوافق مع وعى الأفراد ، ويكتفى بأن يقول : « عندما يتكون تنظيم ما ، يتأكد وعى طبقى ، ويتجلى بين أعضاء الجماعة، وتتطور مع الوعى الطبقى نفسه العناصر المكونة لكل جماعة ، وهى :

القيم والمعانى والقواعد الأساسية . ولكن ايديولوجية طبقية بسيطة يصوغها عالم نظرى أو آخر لا تكفى لتأكيد الوجود الموضوعى للطبقة ».

٧ ــ « لم تلعب الطبقات الاجتماعية قبل القرن الثامن عشر دورا فعالا فى المجتمعات الفردية . وكان مكان الطبقات مشغولا برتب أو مراتب ، وهى جماعات متعددة الوظائف ذات طبيعة مختلفة » . « بدأت الطبقات الاجتماعية تنبثق بقوة فى القرن الثامن عشر ؛ ومع انحلال المراتب باطراد ، تطورت الطبقات على مراحل وأصبحت بالتدرج منظمة ، أو على الأقل شبه منظمة » . « فى غضون القرنين الماضيين ازدادت الطبقات الاجتماعية قوة ، وهى الآن تكون مجموعة من أقوى المجموعات المتعددة الوظائف فى المجتمعات الغربية » .

٨ ــ السمة النوعية للطبقة الاجتماعية باعتبارها جماعة متعددة الوظائف هى تداخل الروابط الوظيفية من جهة ، ووضع اقتصادى من جهة أخرى ، وكذا الانتماء الى مستوى واحد فى الهرم الاجتماعى بالنسبة الى حقوق وواجبات الأعضاء .

وهكذا يكون الأساس الموضوعى للطبقة الاجتماعية فى المهنة ، والوضع الاقتصادى ، والوضع القانونى . تلك هى الوظائف الثلاث التى تشكل طبيعة الطبقة المتعددة الوظائف . « للروابط الاقتصادية والمهنية ، كل على حدة ، تأثير قوى على جسم الفرد وروحه وسلوكه ونوع معيشته . ويزداد تأثيرها قوة عندما تتدعم وتتكاثر بانتمائها لنفس المستوى فى الهرم الاجتماعى . فثمة أشخاص لهم حرفة واحدة ، ووضع اقتصادى ، وحقوق وواجبات متشابهة أساسا ، لا بد أن يتشابهوا من نواح أخرى كثيرة ، جسمية وخلقية وعقلية ، وكذا فى سلوكهم » . غير أن وجوه التشابه هذه لها حدود ، فما أن ينتقل الانسان من أمة الى أخرى ، ومن دين الى آخر ، ومن حضارة الى أخرى ، حتى يتحقق له أن

سيكولوجية الطبقة الواحدة وسلوكها ونوع معيشتها يمكن أن تفترق بدرجة كبيرة .

وقبل أن أتصدى لتقدير نظرية سوروكن فى شأن الطبقات الاجتماعية ، يجدر بى أن أقر له ببعض الأفضال . فبالاضافة الى تعدد المعايير التى تتيح فهم ظاهرة الطبقة الاجتماعية الشديدة التعقيد ، يجب أن نحمد له محاولته تخليص تحليله من كل فلسفة للتاريخ (١) ، ومن كل انحياز الى عقيدة سياسية وتقديرية . وجدير بالاعتراف بأن المقابلة عند هذا المؤلف بين الطبقات الاجتماعية والطوائف والرتب والمراتب ، وبوجه عام كل أنواع المجموعات المفروضة ، ظاهرة بوضوح . ولا يسعنى الا أن أثنى على سوروكن لمحاولته قصر وجود الطبقات على بعض أنماط الأبنية الاجتماعية الشاملة ، رغم انى أرى عدم امكان الموافقة على تأكيده بأنها لم تظهر الا فى القرن الثامن عشر ، أو على الأسباب التى يعلل بها ذلك . وأخيرا فلا بد أن أهنئه على اكثاره من وظائف الطبقات الاجتماعية — ولو أن هذا الاكثار لا يبدو لى كافيا — وكذا اثباته استحالة قصر الطبقات على تنظيماتها ، لأن الطبقات تتضمن دائما أكثر مما تستطيع التنظيمات التعبير عنه .

ورغم بعض التقدم الذى عمل سوروكن على انجازه فى سبيل صياغة نظرية سوسيولوجية للطبقات الاجتماعية ، فانى لا أظن أنه نجح فى حل المشكلة . وهو على الأصح قد مزج بعض العناصر المقبولة الى حد ما والصادرة عن أفكار سابقة دون أن يصل الى تركيب فعال . وتبدأ المصاعب عند قيامه ببناء مفهومه عن المجموعة . ويلح سوروكن مثل الكثير من الاجتماعيين على فكرة أن الطبقة جماعة حقيقية وليست حشدا اسميا من الناس ، ويطالب أيضا بحق بأن تدرج الطبقة فى تصنيف عام للمجموعات. ولكن ماذا يقصد بالمجموعة ؟ تصادفنا هنا خيبة الأمل الأولى . فسوروكن،

(١) وهذا شىء بديع بالنظر الى أن لسوروكن فلسفة تاريخ ، ولكنها مشكوك فى صحتها .

مثله مثل مورينو ، وزنانيكى ، وفون فيز ودوبريل (١) ، يقصر الجماعة على شبكة من « العلاقات الاجتماعية » ، أى أنه يجهل كلا من الذات « نحن » الذى يتأكد الى جانب « العلاقات مع الغير » فى داخل كل جماعة ، ويجهل أن الجماعة لا يمكن أن تقتصر على «نحن» و « العلاقات مع الغير » لأنها تمثل توازنها وتماسكها ، وبالتالى وحدة جماعية ، واطارا اجتماعيا أقوى وأغنى منها • ومن رأى سوروكن أنه يمكن تعريف كل حقيقة اجتماعية بأنها « تفاعل انسانى له معنى » ، وتتكون من عناصر ثلاثة: المعنى الروحى ، والناقل المادى ، والوسيط البشرى ، فالسمة الرئيسية للجماعة هى أنها « وحدة للتفاعل البشرى ، ذات معنى ، وسببية ، ووظيفية فى وقت واحد » • على أن ما يلفت النظر فى هذا التعريف هو الخصائص الأربع الآتية :

١ ــ أنه يقوم على نزعة روحية أفلاطونية •

(ب) أنه واسع جدا لدرجة أنه لا يكشف عن أى تمييز بين المجموعة الخاصة والمجتمع الاجمالى •

(ج) أنه يجهل وجود « نحن » ومنازعاتهم وتوازنهم فى داخل الجماعة •

(د) يهمل المسألة الخاصة بمعرفة ما اذا كانت المجموعات الخاصة ، أو المجتمعات الاجمالية فقط هى التى تتصل بالمعانى والقيم ، ومن ثم لا يعرض مسألة النطاق الذى تكون فيه الجماعات الخاصة قابلة لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها •

والنتيجة أننا لا نجد عند سوروكن تصنيفا حقيقيا للمجموعات ، ومن ثم لم تعرض مشكلة توافقها ، ودرجة تفرقها ، وعلاقاتها مع المجتمع

(١) Moreno, Znaniecki, von Wiese, Dupréel

الاجمالى . وفى مقابل ذلك يذكر مجموعات « ثقافية اجتماعية » لا تنتمى اليها ، بصورة متناقضة ، الطبقة ولا الاسرة ولا المهنة . وباختصار فانه على الرغم من أن سوروكن ، فى تعريفه للطبقة الاجتماعية، لا يوضح صراحة نزعته الروحية الدوجماطيقية ، فان هذه النزعة هى التى تمنعه من تفهم الطبقة باعتبارها « ظاهرة اجتماعية كلية » ذات مستويات مدرجة متنوعة. ويترتب على ذلك أنه يجعل الأعمال الموضوعية (التى يسميها الثقافة) خارج الطبقات الاجتماعية الى حد ما ، وذلك حين يغالى فى تقدير المجتمع الاجمالى من جهة ، ودور العنصر الروحى والعقلى فى المجتمع الاجمالى من جهة أخرى .

وليس هناك فائدة كبيرة فى اللجوء الى « التضامن » ، ومعيار « الحالة السوية » normalité ، وأخيرا المقابلة بين الطبقات ، لأن هذه السمات توجد بمقادير متفاوتة من القوة فى مجموعات أخرى خلاف الطبقات (كالمهن ، والطوائف الحرفية ، والأسر ، والأحزاب السياسية، وغيرها) وحتى تصلح لأن تكون أعلاما يهتدى بها فى تعريف الطبقات ، فانها يجب أن تحدد بالتفصيل بالنسبة الى هذه الطبقات : فالتضامن الطبقى أو الخصومة الطبقية يمكن فهمهما لا على أساس التضامن أو الخصومة بوجه عام ، وانما بالنسبة الى الطبقة نفسها (التى يبقى تعريفها بعد ذلك) بل وبالاستناد الى الوضع الخاص الذى توجد فيه الطبقة . نحن اذن هاهنا فى دائرة مفرغة حقيقية .

ويلح سوروكن كثيرا على العناصر المنظمة فى الطبقة ، ويرتبط هذا الاتجاه بفكرته المعيبة عن المجموعات الخاصة التى لا يكشف بدرجة كافية عن طبيعتها القابلة للبناء أو المبنية فى الكثير من الأحيان . ويعزى هذا أيضا الى الأهمية الكبرى التى يوليها لعنصر القانون فى الطبقة ، دون أن يبين ما اذا كان هذا العنصر قد ولد من الطبقة أو فرضه عليها المجتمع الاجمالى. واذ لم ينجح سوروكن فى تحديد مفهوم « شبه التنظيم » الذى يحل فى

رأيه محل « البناء » فانه لم ينته أيضا الى شرح الفرق بين طبقة ناشئة لم يتم بناؤها بعد ولكنها قابلة للبناء ولم تزل فى مراحل البناء الأولى ، وبين طبقة تكونت وبنيت ونظمت تنظيما جزئيا • وقد أحس سوروكن بالمشكلة ولكنه لم يحلها : تلك هى الفدية التى دفعها لأنه قلل من أهمية مجموعة المظاهر الثقافية فى الطبقة ، وبالغ فى دور التعبير عن الطبقة فى مختلف التنظيمات وفى القانون •

والتجاؤه الى الوعى الطبقى لا يفيـده كثيرا فى هذا الصـدد ، لأنه لا يبين ما اذا كان هذا وعيا جماعيا أم لا (ومن أين تنبثق ضروب الوعى الجماعى فى شبكات بسيطة من الروابط الاجتماعية) ولا كيف يتميز الوعى الطبقى من الوعى لدى المجموعات الأخرى من ناحية وحدتها ؟ ولم يذكر ما هى خصائص وحدود هذا الوعى الذى تلوح أعماله الثقافية النوعية مستبعدة لصالح الحضارة التى يسهم فيها المجتمع الاجمالى •

ويبدو لى أن قصر وظائف الطبقة الاجتماعية على المهنة، وعلى الوضع الاقتصادى ، وعلى دعم المرتبة الاجتماعية أمر مشكوك فيه بصفة خاصة • وقد اتيحت لى الفرصة قبلا للتأكيد بأن الطبقة هى التى تبت فى اختيار المهن ، وليس العكس من ذلك • وان التركيز بصفة خاصة على عنصر المهنة لتحديد وظائف الطبقة ليدل من جهة أخرى على أنه ينسى ـ كما نسى الماركسيون كثيرا ـ أن نسبة كبيرة من أفراد الطبقات لا يسهمون فى الانتاج ، ومن ثم لا يزاولون أية مهنة (ومنهم الأبناء القصر ، والآباء المسنون ، والنساء فى الكثير من الأحيان) • ويجب الاهتمام كثيرا بالوضع الاقتصادى ـ أى بمستوى الدخل والثروة والاستهلاك وفرص الحياة ـ غير أنه يجب ألا يفوتنا أن هذه العناصر تتغير بدرجة كبيرة فى داخل كل طبقة منتظمة فى شكل هرم من المجموعات المتقاربة اقتصاديا • ويتوقف المستوى الاجتماعى ومرتبة الطبقة فى المجتمع على الوضع فى مجموعه ، وفى الكثير من الأحيان على نتيجة الصراع بين الطبقات وكذا على مختلف جداول القيم المتزاحمة •

وأخيرا فالأمر لا يتعلق بتعدد وظائف الطبقات ، وانما بخصيصتها فوق الوظيفية ، فالطبقات لا تتصارع بعضها مع بعض فقط ، وانما هي تتصارع أيضا مع المجتمع الاجمالي ـ أي الأمة ـ وتزاحمها • ومن الواضح في المجتمعات الصناعية ـ وهي الوحيدة التي تنشأ فيها الطبقات الاجتماعية ـ أنه تبرز بصفة خاصة أهمية الوظائف الاقتصادية الخاصة بالانتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك والاسهام في التخطيط بين وظائف الطبقات التي لا حصر لها • غير أنه ليس ثمة ما هو أشد خطأ من قصر وظائف الطبقات الاجتماعية التي لا آخر لها على بعض الوظائف الاقتصادية•

واذ لم تتضح لي كفاية أية فكرة عن الطبقات الاجتماعية ، فاني سوف أحاول في الجزء الثالث من دروسي أن أتناول المسألة من وجهتي الخاصة •

الجزء الثالث

عرض منهاجي

الخصائص الرئيسية للطبقات الاجتماعية

يتضح من كل ما قلته حتى الآن الخط الواجب اتباعه للانتهاء الى توضيح مفهوم الطبقات الاجتماعية ، فيجب البدء بايجاد مكانها فى عالم المجموعات الخاصة ، ثم يكون من الأوفق دراستها :

(أ) فى علاقاتها بالمجموعات المنطوية فى داخلها ، بما فى ذلك شرائحها المتراكبة .

(ب) مع المجموعات الباقية خارجها أو التى تواجهها .

(ج) مع نمط البناء الاجمالى الذى تظهر فيه الطبقات الاجتماعية ، وتنشط ، وتصطرع .

(د) وأخيرا مع صور الحياة الاجتماعية الجارية فيها . يجب اذن لايضاح مفهوم الطبقات الاجتماعية اتخاذ السوسيولوجية المتنوعة للمجموعات مركزا للمرئيات ، دون اهمال سلم المجتمعات الاجمالية أو سلم السوسيولوجيا الدقيقة Micro-sociologie وسوف يتيح ذلك أيضا فى النهاية دراسة مشكلة حتمية الطبقات النوعية ، وعددها المتغير ، ومستقبلها المرجح .

تتجلى لنا ست خصائص رئيسية تميز الطبقات الاجتماعية من غيرها من المجموعات الخاصة ؛ تلك هى : خاصية الطبقات فوق الوظيفية ،

وتعارضها الجذرى ، وطبيعتها التى ترفض عادة نفاذ المجتمع الاجمالى فيها، وميلها نحو التكوين المتكامل (متميزا عن التنظيم) وأخيرا طبيعتها الخاصة بالمجموعات الفعلية المتباعدة • ولجأت الى عدد كبير من المعايير ؟ وأنا اليوم أميل الى مضاعفة هذا العدد كما سوف نرى • بيد أن هذه المعايير الأخرى انما تساعد على صوغ تعريف كامل ومفصل للطبقات الاجتماعية ، وهى مرتبطة بعضها ببعض قليلا، ومن ثم نستطيع أن نقنع فى البداية وقبل كل شىء بوضع التعريف الآتى للطبقات الاجتماعية : « الطبقات الاجتماعية مجموعات خاصة واقعية ومتباعدة ، تتميز بخاصيتها فوق الوظيفية ، وميلها الى التكون والتماسك ، ومقاومتها تغلغل المجتمع الاجمالى فيها ، وتعارضها الجذرى incompatibilité مع الطبقات الأخرى » • هذا التعريف الابتدائى لا بد أن يكون له فى ذهن المستمع أو القارىء غير الملم بالموضوع الأثران الآتيان :

(أ) يثبت بصفة ضمنية أن الوعى الطبقى والأعمال الثقافية للطبقات هى من المظاهر الهامة لواقعية الطبقات ، لأن البنائية حركة تهدف الى تماسك وتوازن مختلف الدرجات عمقا ، ومختلف أشكال الميول الاجتماعية فى داخل الظواهر الاجتماعية الكلية أو الجزئية أو الاجمالية ، ويتدعم ويتوطد هذا التماسك وهذا التوازن بالنماذج والعلامات والشارات والرموز والأدوار الاجتماعية والقيم والأفكار النوعية • واذا كانت جميع المجموعات الخاصة من حيث انها ليست قابلة للبناء فحسب وانما هى كاملة التكوين بالفعل ، تكشف عن وعى جماعى وأعمال ثقافية متطورة بجلاء ، بدرجة متفاوتة (أليس ثمة حديث عن « روح الجماعة » ؟) •

فما وجه العجب فى أن تتأكد هذه الطبيعية بصفة خاصة لدى الطبقات الاجتماعية ، المستعصية على المجتمع الاجمالى ، وفوق الوظيفية ، والمتعارضة فيما بينها ؟ ولذلك فعندما عاب على بعض النقاد أننى تجاهلت فى تعريفى هذا « الوعى الطبقى » و « الايديولوجية الطبقية » ، كنت خليقا أن أتساءل

عما اذا كانوا قد طالعوا حقا ما كتبت ، أو فهموا حقيقة ما قصدته بالحاحى على خاصية الطبقات الأساسية من حيث انها مبنية •

(ب) والى جانب أن المجموعات الفعليــة والمتباعدة ، المستعصية على المجتمع الشامل والمتناقضة فيما بينها تمثل مستقرا شديد الثراء فيما يتعلق بالأعمال الثقـافية ، واسـتعراض المعـرفة والأخـلاق ، والقـانون ، والايديولوجية ، وكذا من ناحية شدة الوعى الجماعى ، فانها لا تظهر الا فى الأبنية الشاملة المتطورة فى الصناعة ، والتى تمتلك الوسائل الفنية الكافية فى الانتاج والتوزيع ، والمواصلات ، والنشر ، والتى تحرك أعدادا كبيرة من الأعضاء المساهمين فيها • ففى هذه الأنماط من الأبنيـة الاجمـالية ، رأسمالية كانت ام جماعية ، تؤدى النماذج الفنية ، والوظائف والتنظيمات الاقتصادية دورا فى الدرجة الأولى من الأهمية فى تدرج المستويات عمقا• ومن ثم لا يبـدو من المشـكوك فيه ، من ناحيـة خاصية الطبقـات فوق الوظيفية ، أن أكثر الوظائف تركيزا وأهمية هى الوظائف الاقتصادية • لا يمكن اذن ، دون تناقض ظاهر ، أو سـوء نية ، أن ينسب الىّ الميل ، فى تعريفى للطبقات الاجتماعية ، الى استبعاد مظهرها الاقتصادى • وكل ما أحاول عمله هو رد هذا المظهر الاقتصادى ، وكذا المظهر السيكولوجى الى مكانهما فى مجمـوعة الظواهر الاجتمـاعية الكلية التى تشكل جزءا منها : الظاهرة الاجتماعية الكلية للطبقـة وللمجتمع الاجمالى الذى تظهر فيه الطبقات وتتصارع فيما بينها •

وبعد تبديد هاتين النقطتين الكبيرتين فى سـوء الفهم الناتج من أن بعض الذين انتقدونى قد أساءوا بلا ريب تأويل التعـريفات التى حاولت صياغتها للطبقات الاجتماعية ، نستطيع الآن أن نشرع فى وضع تفسير أدق للمعايير السـتة الرئيسية التى تتميز بوساطتها الطبقـات الاجتمـاعية عن المجموعات الخاصة الأخرى ؛ ثم نضيف بعد ذلك مجموعة من الخصائص التفصيلية الأخرى •

١ ـ قلت : ان الطبقات الاجتماعية هي مجموعات واقعية، الشيء الذي يميزها خاصة عن المجموعات المفروضة imposés ، والمجموعات الاختيارية volontaires . والأمر هنا يخص أساس تكوين المجموعات ، فالمجموعات من قبيل المراتب ، والهيئات والنقابات الحرفية ، والطوائف كانت في غالبيتها مجموعات مفروضة ، ومن ذلك العشائر phratries والأسر gentes ، والنبالة العريقة eupatrides ، والأشراف patriciat وعامة الشعب demos ، والدهماء plèbe عند الاغريق والرومان ؛ ومجتمعات التجار ، والطوائف الحرفية guildes والجوراند Jurandes [1] ، ورؤساء الحرف (المعلمين) maîtrises في مدن العصر الوسيط ، والنبالة ، ورجال الكنيسة ، والعامة roture والطوائف الحرفية في النظام القديم . وقد لا تكون بعض المجموعات المفروضة سوى نقابات حرفية corporations اجبارية حين لا تخاطب خلاف أعضائها ؛ وبعض المجموعات الأخرى منشئات (أو مبرات) fondations لا تضم الا المنتفعين الذين يخضعون لها . ومع ذلك فان المجموعتين المفروضتين الرئيسيتين : الدولة والكنيسة تصدران عن المنشأة والنقابة الحرفية في وقت واحد . وعلى أية حال فان كل مجموعة مفروضة (سواء أكانت نقابة الزامية أم منشأة) تفترض مقدما تنظيما قانونيا يفرض واجب الاسهام في ... أو الانتفاع من ... لمن يخضع لها ، وترتبط بتنظيم يمثل النطاق الذي يحدد الجماعة . بيد أن الطبقات الاجتماعية يتأكد وجودها خارج التقسيمات الرسمية ، دون اعتبار للتنظيمات القانونية المفروضة أو الحدود المرتبطة بالمنظمات (سواء كانت نقابات أو منشئات) . وعلى ذلك لا تنتمي الطبقات الاجتماعية من ناحية تشكيلها الى المجموعات المفروضة .

ولا تدخل الطبقات الاجتماعية أيضا ، وبدرجة أقل ، في نوع

(١) في النظام القديم ، وظيفة المكلفين بالاشراف على الطوائف الحرفية والجمعيات التي تضمهم ـ المترجم .

المجموعات الاختيارية ، ونقصد بهذا التعبير المجموعات التى يشترك فيها الأعضاء بمحض ارادتهم ، أى تبعا لانضمامهم وقبولهم وفقا لرغبتهم • ونستطيع أن نذكر كأبسط الأمثلة لهذه المجموعات ، النقابات المهنية Syndicats professionnels ، الجمعيات التعاونية ، جمعيات المعونة المتبادلة mutualités ، الأحزاب السياسية ، الجمعيات الخيرية، الجمعيات العلمية ، الشركات التجارية ، الشركات المساهمة ، الشركات الموحدة trusts ، الكارتل cartels (اتفاق المنتجين بقصد الاحتكار) وغيرها • ومن بين المجموعات الاختيارية نوع يتمتع ببعض الامتياز وهى الجمعيات associations التى يمكن تعريفها بأنها مجموعات اختيارية تدار بأسلوب ديموقراطى ، ويمكن للعضو الخروج منها بحريته • ومع ذلك فكثيرا ما تضع المجموعات الاختيارية اجراءات تقيد هذا الخروج ، ولا تراعى المساواة فى جميع الأحوال (كالشركات الموحدة والكارتل)• أما الطبقات الاجتماعية فلها طبيعة مختلفة عن ذلك كل الاختلاف •

هناك بالتأكيد أحوال يستطيع فيها الفرد أن يقرر بارادته الدخول فى طبقة ما (مثال ذلك المتعلم الذى ينضم الى طبقة البروليتاريا ، أو الرجل الوصولى الذى ينجح فى الانضمام بارادته الى طبقة عليا) (١) ؛ غير أن الطبقات الاجتماعية ، فى غير هذه الاستثناءات النادرة ، تتكون دون أى تدخل من ارادة أعضائها أو أية ارادة عليا • وهى ليست مجموعات مفروضة ، ولا اختيارية ، ولكنها واقعية • « المجموعات الواقعية مجموعات يشترك فيها الأعضاء دون رغبة صريحة يبدونها ، ودون أن تخضع لأوامر تنظيم معين أو سلطة معينة » • هذا النوع من المجموعات يشمل الطبقات الاجتماعية ، كما يشمل الكثير من المجموعات الأخرى ، كجماعات السن، والمجموعات المتقاربة اقتصاديا (القائمة على التماثل فى الثروة أو الدخل)، والمنتجين والمستهلكين والمتعطلين ، والجماهير المختلفة ، والمجموعات

(١) الحقيقة انه لايستطيع الانتماء اراديا الى مثل هذه الطبقة أو تلك مع اختلاف مركزه المادى والاجتماعى ، ولكنه فقط يساندها فكريا وايديولوجيا (المراجع) •

السلالية ، والأقليات القومية وغيرها • ويشـترك الانسـان عادة فى غالبية هذه المجموعات مثلمـا كان « السيد جـوردان يؤلف نثرا ••• دون أن يدرى »[1] •

ومع ذلك فليست هذه هى حال الطبقات الاجتماعية ؟ فهذه تكون مجمـوعات واقعيـة تنزع الى التكوين المتماسك ، ومن ثم الى اكتسـاب « الوعى الطبقى » • فالطبقات الاجتماعية بصورة أعم مجموعات أكبر ثراء بمضمونها وأقوى بناء من غالبية المجموعات الأخرى المسماة بالواقعية (مثل التى تقوم على السن أو الرابطة الاقتصادية أو الجمهور ، الخ) ، وبعضها يكون وحدات جماعية واقعيـة ، والبعض الآخـر لا يمثل الا امكانيـات مضمرة للوحدة •

٢ ــ قلت ثانيـا : ان الطبقـات الاجتمـاعيـة مجمـوعات متبـاعدة groupements à distance • والمسألة هنا تتعلق بمدى تشتت المجموعات• ويمكن أن نميز من هذه الوجهة المجموعات التى تجتمع بصفة دائما ، والمجموعات التى يلتئم شملها بصفة دورية ، والمجمـوعات ذات الصلات المصطنعة ، والمجموعات المتباعدة • ونذكر من بين المجموعات المتآلفة التى تجتمع بصفة دائمة ، الأسرة الكبيرة ، بيت الزوجية ، الكفور (العزب) ، المدرسة الداخلية ، الأديرة ، الوحدات العسكرية ، الجمـاعة الحـرفية فى القرن الوسيط (المعلم والصبى) الخ • وواضح أن الألفة فى الجماعة تختلف تبعا لما اذا كان اجتماعها المتصل وقتيا فقط (المدرسـة الداخلية ، الوحدة العسكرية الصانع والصبى) أو أنها مجبولة على البقاء طول الحياة (الأسرة الكبيرة ، بيت الزوجية ، الدير الخ) • ومن المجمـوعات التى تلتئم بصفة دورية ــ وهى الأكثر شيوعا ــ أمثلة كثيرة التنوع • ويجب غير ذلك التميز بين الجماعات التى تجتمع فى القليل النادر ، وتلك التى تجتمع كثيرا أو تبقى مجتمعـة معظم النهـار • نذكر من الطائفـة الأولى

(١) السيد جوردان ، الشخصية الرئيسية فى مسرحية موليير « النبيل البورجوازى » •

النقابات ، والأحزاب السياسية ، والجمعيات التعاونية ، ومجالس ادارة الشركات المساهمة الخ ، ومن الطائفة الثانية ، هيئات العاملين فى المصانع والمكاتب ، والطلبة المستمعين فى الكليات الخ .

ويمكن الجزم بأن الطبقات الاجتماعية لا تنتمى الى المجموعات الآليفة groupements intimes التى تجتمع بصفة دائمة ، ولا الى المجموعات التى تجتمع بصفة دورية. وان الاعتقاد بأن المجموعات لا يمكن أن يكون لها وجود دون أن يجتمع أعضاؤها أحيانا أو يتاح لهم رؤية بعضهم بعضا ، أو التزاور من وقت لآخر ، زعم باطل . فالطبقات الاجتماعية تمثل حالة ممتازة من المجموعات المتباعدة (أليست هذه من الأشياء التى يتضمنها القول الماركسى المأثور : « ياعمال العالم اتحدوا ؟) ، غير أنه يوجد أيضا عدد كبير من المجموعات الأخرى التى لا يجتمع أعضاؤها عادة ، منها على سبيل المثال : المتعطلون ، والمنتجون، والمستهلكون، والمهن (اذا لم تكن منظمة) ، والجماهير المختلفة ، الخ . ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أيضا المجموعات ذات الصلات المصطنعة ، كالمشتركين فى نشرة دورية الذين يتأثرون بها ، والمقيدين فى أحزاب سياسية ويطيعون أوامرها دون أن يترددوا على الأقسام الخاصة بهم فيها ، وأعضاء لجنة لا تجتمع ولكن تؤخذ الأصوات فيها بالتمرير الخ . ومن الجلى أنه لا يمكن اقامة حدود فاصلة تماما بين المجموعات المتباعدة والمجموعات ذات الصلات المصطنعة . والكثير من المجموعات فى الزمن الحاضر تظهر فيها الطبيعتان فى وقت واحد ، بفضل استخدام الطرق الفنية فى المواصلات : من ذلك الجماهير المختلفة ، والمهن ، بل والى حد ما الطبقات الاجتماعية التى هى المجموعات المتباعدة الحقيقية . فالواقع أن الطبقات الاجتماعية تنزع الى البنائية القوية ، وتتجلى فى عدد كبير من التنظيمات التى يمكن أن تكون شديدة النشاط ، قوية النفوذ : فهذه الطبقات تصبح من أجل ذلك فى بعض أقسامها مجموعات ذات صلات مصطنعة ، مع بقائها فى مجموعها مجموعات متباعدة .

ومن الطريف أن نذكر أن مجرد وجود الطبقات الاجتماعية ـ وهى أقوى وأغنى المجموعات الخاصة فى مضمونها ـ يناقض الفكرة الساذجة لدى بعض علماء الاجتماع الأمريكان الذين ظنوا أنهم قد وجدوا فى ألفة الجماعات الضيقة النطاق واجتماعها بصفة دائمة معيار الاستقرار والقوة والتماسك فى كل مجموعة . هذه الصفات تنتسب اليوم فى المكان الأول للمجموعات المتباعدة ، وذات الصلات الاصطناعية كالطبقات الاجتماعية . وانا لنجد تأييدا لهذه الملاحظة من ناحية سوسيولوجية الروح : ففى الامكان التحقق من أن الطبقات الاجتماعية تبدى كأطر اجتماعية للمعرفة والقانون والفن والأخلاق والتربية والدين الخ أقوى وأكثر فعالية من تلك التى تشكلها المجموعات الأليفة ، بل وأغلبية المجموعات التى تلتئم بصفة دورية .

٣ ـ نصل الآن الى الخاصية الرئيسية الثالثة للطبقات الاجتماعية ، وهى أهمها جميعا : تلك هى طبيعتها فوق الوظيفية ـ leur supra fonctionnalité والواقع أننا أوضحنا فى هذه الدروس فى عدة مناسبات أنه من المستحيل أن نذكر بالتفصيل كل الأعمال التى يتعين على طبقة اجتماعية أن تنجزها ؛ ذلك لأن الطبقة الاجتماعية ، بالاضافة الى أنها تتأهب للاستيلاء على السلطة ، أو أنها قد استولت بالفعل على السلطة ، أو أنها قد فقدتها ، فهى تفسر بأسلوبها كل الوظائف التى تزاولها بنفسها، أو تزاولها الطبقات والمجموعات الأخرى . والطبقات الاجتماعية هى بالفعل المجموعات الخاصة الوحيدة التى تتمتع بصورة مستقلة أصلية بالخاصية فوق الوظيفية ، ومن ثم فهى فى وضع تنافس فيه المجتمعات الاجمالية ، كالأمم ، حين يسمح لها بنيانها بأن تنقسم الى طبقات . والأقليات القومية ـ التى يمكن وضعها أيضا بفوق الوظيفية ـ ليست فى الواقع الا ضروبا من المحاكاة للأمم المجاورة لها ، أو ظلالا لها ملقاة فى الخارج . أما الطبقات الاجتماعية فانها على العكس من ذلك أقسام من أمة واحدة : فهى تطالب بعموم الوظائف ، أسوة بالأمة ومزاحمة لها ، وخارج غيرها من الأمم .

وقد أخطأ الكثير من المؤلفين حين نسبوا فوق الوظيفية الى مجموعة متعددة الوظائف ، وهى الدولة ـ أى كتلة المجموعات المحلية ـ فخلطوا بينها وبين الأمة . وقد يسر حـدوث هذا الخلط ، بل وأثاره بعض الشيء خطأ فى النظر ؛ ذلك أن تدرج المجموعات المتغير فى بعض الأبنية الاجمالية يقوم لصالح سمو الدولة على المجموعات الوظيفية الأخرى ، مصحوبا باتساع وظائف الدولة نسبيا . ولكن الدولة لا تصـل أبدا الى « فوق وظيفية » فعالة [1] ، الأمر الذى يمكن تبينه بالنظر الى أن الدولـة تتبدى فى تنظيم واحد : وهذا الاحتمال بعيد بالنسبة الى الأمة والى الطبقات الاجتماعية .

لا بد من وجود عدد كبير من التنظيمات المختلفة للتعبير عن وحـدة جماعية فوق الوظيفية ؛ لأن النزعة التخطيطية المجـردة لأى تنظيم كان لا يمكن أن تعبر الا عن بعض الوظائف ، لا عن الوظائف كلها ؛ ومن ثم كان التوتر الدائم بين الأحزاب السياسية ، والنقابات ، وجمعيات الشباب الخ باعتبارها معبرة عن طبقة اجتماعية ، وهو توتر يوازى التوتر الذى يتجلى بين الدولة والتنظيمات الاقتصادية ، والتنظيمات الثقافية باعتبارها معبرة عن الأمة أو الجمعيات الدولية . فوق الوظيفيـة هى اذن التى تمنع الطبقـات الاجتماعية ، كما تمنع الأمم من التماثل مع التنظيمات التى تسعى الى التعبير عنها ، والتى لا تستطيع أن تنتهى الى هذا القصـد الا بدرجة جزئيـة . والطبقات الاجتماعية ، على غرار الأمم تظل دائما غير منظمة مع كونها مبنية بنيانا قويا ، وتمثل قاعدة لتنظيمات نشيطة وفعالة للغاية .

و « فوق وظيفية » الطبقات الاجتماعية تتيح الشعور بمدى النزاع بين الطبقات الموجودة من جهة ، وكذا بين كل طبقة وبين البناء الاجتماعى الاجمالى من جهة أخرى . هذه الخصـومة المزدوجة أسـاسها النهـائى الخواص فوق الوظيفية المتنافسة . فكل طبقة اجتماعية عالم بذاته يريد أن

(1) انظر فى هذا الشأن كتابى « فكرة القانون الاجتماعى » (١٩٣٢) وكتابى « عناصر علم الاجتماع القانونى » (١٩٤٠) .

يصبح العالم الأوحد ؛ وذلك بأن يصير مماثلا اما للمجتمع الاجمالى القائم ـ ومن ثم تستبعد الطبقات الأخـرى ، أو تنحيها على الأقل جانبـا بابقائها فى وضع أدنى منها ـ واما للمجتمع الاجمالى فى المستقبل الذى لن يكون فيه طبقات . وهذا ما يؤدى الى التعارض الجذرى بين الطبقات الاجتماعية، وهو ما سوف نتكلم عنه قريبا .

لكنـا نعتقد أنه من واجبنـا قبـل ذلك تكملة عرضـنا لخاصية فوق الوظيفية فى الطبقات الاجتماعية بملاحظتين :

(أ) لما كانت الطبقات الاجتماعية « فوق وظيفية » فانهـا عالم شاسع من المجمـوعات المختلفة أحـادية الوظيفـة ، ومتعـددة الوظائف ، فهى « مجمـوعات من المجمـوعات » . وهى لا تضم الأسر والمهن فحسب ، وانما أيضا جماعات السن ، والمنتجين ، والمسـتهلكين ، والمجموعات ذات الرابطة الأخوية من مختلف الأنواع ، بما فيها رابطة الوضع الاقتصادى (الشرائح Strates) والمجموعات ذات النشـاط الذى لا يستهدف الربح ، والمجموعات الروحانية الوجدانية (المجموعات الدينية ، كرجال الكنيسـة ، والمؤمنين ، والمتقين ، والمحـافل الماسـونية ، الخ) . ولهذا يتوالى الصراع بين المجموعات المنوعة فى داخل الطبقـات الاجتمـاعية ، ولا يقتصر على الشرائح المختلفة للطبقة الواحدة . وتتناسب شـدة هذا الصراع تناسبا عكسيا مع شدة الخصومة بين الطبقات : فكلما ازدادت هذه الخصومة عنفـا ، ضعف الصراع بين الجمـاعات الموجـودة فى داخـل الطبقات ؛ ولهذا فانه اذا فرضنا أن الخصومة بين الطبقات لا بد أن تفقد حدتها فى بنيان جمـاعى اجمـالى ، كان من المتوقع أن تزداد فى داخل الطبقات حـدة النزاع بين المهن ، والمنتجين ، والمستهلكين ، والمجمـوعات ذات الرابطة الأخوية ، والمجموعات الروحانية الخ .

(ب) اذا قصرنا كل المجموعات الخاصة على المجموعات الوظيفيـة ، وميزناها تبعا لوظائفها فقط (كما يحدث كثيرا) فانا لن نوفق عندئذ فى

تحديد مكان للطبقات الاجتماعية بين هذه المجموعات • لنفرض أننا نتقدم خطوة فى هذا السبيل ، ونسلم بأن المجموعات الوظيفية تشكل تدرجات متغيرة فى مختلف أنماط الأبنية الاجمالية (حيث تكون فى ذروتها مجموعات القرابة أحيانا ، والمجموعات الدينية ، أو المجموعات ذات النشاط الاقتصادى ، أو المجموعات المحلية ، أحيانا أخرى) ، فانا لا نستطيع فى هذه الحالة أن نقع على أى أثر للطبقات الاجتماعية ، أو سلمها النوعى ، وسبب ذلك أن الطبقات الاجتماعية باعتبار خاصيتها فوق الوظيفية ، تنفذ فى معظم هذه المجموعات الوظيفية وتضمها جزئيا الى نطاقها • وتشكل الطبقات تدرجا نوعيا فيما بينها ، ويتشكل فى داخل كل طبقة سلم خاص آخر • ويتنافس هذان السلمان بنوع ما ، وبصفة دائمة، مع سلم المجموعات الوظيفية الذى يميز بنيان المجتمع الاجمالى • ولا تظهر الطبقات الاجتماعية بالفعل الا فى الأبنية الاجمالية التى يتنافس فيها سلم المجموعات الوظيفية مع سلم الطبقات الاجتماعية وبعض الجماعات الأدنى مكانة التى تقيم سلالم فى داخلها • من ذلك أنه فى بداية نظام الرأسمالية فى عصر كولبير ، حينما توطدت الدولة اقليميا ، محتفظة بذكرى تحالفها مع المدن المتحررة ضد الاقطاعيين ، أظهرت الدولة ميلها ، ليس فقط الى النهوض بالمصانع ، وانما أيضا الى محاباة المستفيدين منها — من أفراد طبقة البورجوازية الصاعدة التى بقيت فى صفوف العامة أو ارتفعت الى مصاف النبلاء — ضد « نبالة السيف » noblesse d'épée (أى العسكريين) والفلاحين ، والعمال • وبعد الثورة الفرنسية ، وفى ظل الرأسمالية التنافسية ، وتطبيق مبدأ « حرية العمل وحرية التجارة » أرخت الدولة من سيطرتها النسبية على المجموعات الوظيفية الأخرى ، فوق أنها سمحت للطبقات الاجتماعية ، وللصراع الطبقى ، والتدرجات الطبقية الداخلية والخارجية ، بأن تنفذ فيها بدرجة متزايدة• وعلى هذا ففى نظام الرأسمالية المتطورة ، تغلبت الطبقات فوق الوظيفية على سيادة الدولة ، وأخذ تدرجها يعلو على تدرج المجموعات الوظيفية فى الأبنية الاجمالية •

الخصائص الرئيسية للطبقات الاجتماعية
(ختام)

قدمت فى درسى السابق تعريفا ابتدائيا للطبقات الاجتماعية ، فى الصيغة الآتية : « الطبقات الاجتماعية مجموعات خاصة واقعية متباعدة ، تتميز بخاصيتها فوق الوظيفية ، وميلها الى التكوين المتماسك ومقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، وتعارضها الجذرى مع الطبقات الأخرى ». وشرحت بعد ذلك بالتفصيل المعايير الثلاثة الأولى : المجموعات الواقعية ، والمجموعات المتباعدة ، والمجموعات فوق الوظيفية .

٤ ـ أصل الآن الى الخاصية الرئيسية الرابعة للطبقات الاجتماعية : تعارضها الجذرى فيما بينها . لا تثور مشكلة درجة الملاءمة بوجه عام الا بين المجموعات التى من نوع واحد . وعلى العكس من ذلك فان المجموعات المختلفة الأنواع تكون عادة متلائمة بعضها مع بعض مهما كان نظام المجتمع ونمطه . وليس ثمة حاجة الى التأكيد بأنه فى مختلف أنماط الأبنية الاجمالية ، يشترك نفس الأفراد فى وقت واحد فى أسرة واحدة ومجموعات الرابطة الأخوية أو المحلية ، ومجموعات النشاط الاقتصادى، وفى حزب سياسى ، ومجموعة دينية ، وناد ، وما أشبه ذلك .

والمجموعات التى من نوع واحد ، ومتلائمة تماما فيما بينها ليست

نادرة الوجود ؛ ومع ذلك فهى لا تشكل نمط المجموعات الأكثر شيوعا . من ذلك الجماهير المختلفة ، والمنتجون والمستهلكون ، والجمعيات العلمية، والأكاديميات ، ومراكز الأبحاث ، والأندية ، والجمعيات التعاونية ، والشركات المساهمة والمشروعات الصناعية والتجارية ، وكذلك ـ من ناحية المبدأ ـ الشركات الموحدة trusts والكارتيل cartels.

ونصادف كثيرا المجموعات التى من نوع واحد والمتلائمة جزئيا بين بعضها البعض (أى أنها متلائمة بشروط معينة وعلى درجات مختلفة) ، هذا بالاضافة الى أن بعض المجموعات المتعارضة أساسا فيما بينها ، يثبت أحيانا ، وبالفعل أنها متلائمة جزئيا . نذكر من هذه المجموعات المتلائمة جزئيا فيما بينها : المهن ، والنقابات ، والصناعات ، والبلدان ، والمجالس البلدية، ومجموعات القرابة (بالمعنى الواسع الذى ينصرف الى الرابطة التى تجمع عدة أسر) وبعض المجموعات ذات الرابطة الأخوية (مجموعات الأصدقاء ، والمدعوين الى وليمة ، والرفاق فى اللعب ، والأطفال وغيرهم). والواقع أنه ليس ثمة ما يمنع الانسان أصلا من مزاولة عدة مهن أو حرف، أو من العضوية فى عدة نقابات ، وما شابه ذلك ؛ كما أنه ليس هناك ما يمنع من السكنى أو العمل فى فترات مختلفة من السنة فى أماكن أو بلدان أو مقاطعات مختلفة ، ولا من الاشتراك فى عدة دوائر من الأصدقاء الخ . ومع ذلك فان مثل هذه الضروب من الجمع ليست دائما ممكنة ، فنصادف حينئذ بعض التحديدات التى توضع صراحة أو يسلم بها ضمنا ، وكذا بعض المصاعب الواقعية التى تقيد هذا الجمع فى الكثير من الأحيان. وهناك بعض المجموعات المتعارضة فيما بينها أصلا ، كالأحزاب السياسية ، والمجموعات المتقاربة اقتصاديا ، والأسر ، وبيوت الزوجية ، والدول ، والكنائس ، تصرح بمخالفة هذه القاعدة بعض الشىء ، مخالفة صريحة أو ضمنية . فهناك من الأحزاب ما يعقد اتفاقيات انتخابية ، بل قد « تتحد » فيما بينها ، أو ترتضى أو تقبل « الانتماء الثنائى » الى حزبين. والمجموعات ذات الرابطة الاقتصادية (القائمة مثلا على الثروة ، أو الدخول ، أو

مصلحة خاصة مشتركة) تستطيع ، اذا لم تكن فى داخل طبقات مختلفة ، الانتقال بصورة غير محسوسة من حالة التعارض الى حالة التلاؤم ، وذلك عند تطور الأحداث ، وبسبب المرونة فى وضع أعضائها • ورغم أنه من المحظور أن يكون الانسان ربا لعدة بيوت زوجية أو عضوا بها فى وقت واحد، وذلك فى المجتمعات التى تحرم الزواج باثنتين أو أكثر ، فانه ليس من النادر أن يشترك الزوج أو الزوجة سرا أو بصورة شبه سرية أو شبه علنية فى عدة بيوت عائلية • وتصرح الدولة أحيانا بصورة ضمنية بحق المواطنة المزدوجة La double citoyenneté (وكان ذلك يلقى تسامحا بل وتشجيعا فىالتشريعين : الأمريكى والألمانى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر) ؛ وهذا الوضع تفرضه بصورة مباشرة الدول الاتحادية Etats fédéraux أو المتعاهدة confédéraux • وأخيرا ، ففى دول الأمريكتين ، تحتفظ نسبة كبيرة من المهاجرين لعدة أجيال بروابط ثقافية وسياسية وأخلاقية وسيكولوجية مع دولتهم الأصلية• يمكن اذن أن نخلص من ذلك الى أن التعارض بين الدول من ناحية استحالة الاشتراك فى عدد منها ، انما هو تعارض يقبل التدرج • ومن العجيب أن الكنائس هى الأخرى ليست دائما وبصفة أساسية متناقضة فيما بينها ، من ذلك على سبيل المثال الكنيسة المسماة L'Eglise Uniate – التى يعتبر المؤمنون المترددون عليها أنفسهم تابعين للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية فى وقت واحد – أو الحركة الناصرة لاتحاد الكنائس المسيحية التى لعلها تشكل نوعا من التعاهد •

ولنترك جانبا المجموعات المقفلة الخصوصية ، وهى التى تمتص أعضاءها لدرجة أنها تحرم عليهم الاشتراك فى أية مجموعة أخرى حتى ولو كانت من نوع مختلف (كبعض جماعات الرهبان ، والمذاهب ، وفرق العبيد ، وحجرات السجن الانفرادى مدى الحياة الخ) ؛ فنحن لا نجد جماعات متعارضة بالفعل فيما بينها سوى جماعات السن والجنس (فى النطاق الذى تشكل فيه بالفعل جماعات) ، والطوائف Castes الوراثية ،

والأقليات السلالية ، وقبل كل شيء الطبقات الاجتماعية • ولما كانت الطوائف جماعات مفروضة ، فانا ندعها على حدة • أما الأقليات العنصرية فانها كثيرا ما تتشابه وتتفكك ، وتصبح متلائمة بدرجة ما ، بفعل التهجين• أما جماعات السن فانها لا تكون دائما وحدات جماعية فعلية ، وحتى اذا اتخذت هذه الصفة فان بناءها وتنافرها يتحددان بدرجة قوية بمرور الأجيال •

وهكذا فان الطبقة الاجتماعية هي وحدها بالفعل التي تتجسد فيها بصورة تلقائية وأصلية خاصية التعارض الجذرى الدائم فى المجموعات غير المقفلة (وسنرى أنها تنتمى الى نوع المجموعات المفتوحة) • ومن المستحيل الاشتراك فى طبقتين اجتماعيتين أو أكثر فى وقت واحد• فليس فى الامكان مثلا الزعم بالانتماء الى البورجوازية والبروليتاريا والطبقات المتوسطة فى وقت واحد • وينتج هذا الوضع ليس فقط من خاصية الطبقات الاجتماعية فوق الوظيفية ـ التى تشجع كل طبقة على ارادة تمثيل المجتمع الاجمالى ، وادعاء تقرير مصير الطبقات الأخرى ومركزها ـ ولكنه ناتج أيضا من بنائها النامى الذى يتضمن عدم قابلية المدارك الجماعية والعقليات للنقصان ، واستحالة التوفيق بين جداول القيم ، والتفاوت الجوهرى فى رؤى العالم ، وتعارض « الايديولوجيات » (المذاهب التبريرية) • والخصومة بين الطبقات أثر مباشر للتناقض بينها ، ولخاصيتها فوق الوظيفية ، وهما صفتان أكثر أصالة من النزاع المباشر فى المصالح الاقتصادية والصراع فى سبيل السلطة •

ولعله يمكن الاعتراض على هذه الخاصية بأنه يوجد فى داخل كل طبقة تدرجا فى الشرائح ، وأن الشرائح السفلى فى طبقة ما ، والشرائح العليا فى طبقة أخرى أدنى مرتبة من الطبقة الأولى ، يمكن أن تؤدى معا عمل الوسيط ، أو الحائل دون الصدمات ، أو قد تنتقل بين الطبقتين ان لم تشترك فيهما معا • وبالاستناد الى وجود « الطبقات المتوسطة » من جهة ،

وطبقات المفكرين والتكنوبيروقراطيين من جهة أخرى ، يمكن التوسع فى فكرة أن هذه الطبقات (التى تكون على هذا الاعتبار فى وضع متوسط ، ومن ثم فهى عادة أدنى من غيرها من حيث درجة بنائها) تصلح لأن تكون، حسب قولنا هذا ، « مستودعا للشرائح » التى يمكن أن تنتقل من طبقة الى أخرى فتجعل التعارض بينها نسبيا بدرجة ما ٠

وأرد على هذه الاعتراضات بأنها تكشف عن ظاهرة تستحق اهتمامنا ولكنها تسىء تفسير هذه الظاهرة ٠ من ذلك أن عمال الكتب مثلا ، الذين يمثلون الشريحة العليا لطبقة البروليتاريا لا شأن لهم البتة بالطبقة المتوسطة ولا بالطبقة البورجوازية ٠ أما صغار المقاولين ، ورجال الفكر الذى يتحصلون على أجر طيب (كالمحامين ، والأطباء ، والمدرسين ، والفنانين ، وأشباههم) الذين يكونون الشريحة السفلى من الطبقة البورجوازية ، فانهم يظلون ملتصقين بشدة بهذه الطبقة ، ولا يبدو عليهم أى ميل للانضمام الى الطبقات المتوسطة ، أو بالأولى الى طبقة العمال ٠ أما الطبقة المفترضة ، الطبقة التكنوبيروقراطية ـ التى تنتمى بعض شرائحها الى البورجوازية ، والبعض الآخر الى الطبقات المتوسطة ـ فانها تبدى ميلا غير ثابت فى التنقل بين الطبقات ؛ لأن أفرادها يستطيعون خدمة أى نظام وأية طبقة ، طالما أن بناءهم فى درجة منفصلة لم يزل فى مدارجه الأولى ٠ على أنه اذا تم هذا البناء وأصبح حقيقة واقعة ، فان التكنوبيروقراطية سوف تتصدى لكل الطبقات الأخرى ، وتصبح متعارضة معها ، وتحاول السيطرة عليها ٠ ولا يخفف وجود الطبقات المتوسطة على هذا النحو من تعارض الطبقات فيما بينها ٠ ولا يساعد الانتماء الى الطبقات المتوسطة على التقارب من البروليتاريا أو من البورجوازية ٠ وتعبير (الطبقات المتوسطة) هذا انما يغطى العديد من الطبقات الافتراضية الناشئة ، التى لها أبنية مهتزة بعض الشىء ، وشرائح أكثر قابلية للحركة ٠ ومن ثم كانت صيغة الجمع المستخدمة فى شأنها ، ومن ثم أيضا استحالة التكهن دائما باستجابات الطبقة المتوسطة وشرائحها المختلفة للأحداث الواقعية ٠ وقد تجعلها هذه الأحداث

مستعصية على نفاذ المجتمع الاجمالى فيها بدرجة لا تقل فى ذلك عن سائر الطبقات .

٥ ـ الخاصية الرئيسية الخامسة للطبقات الاجتماعية هى مقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، ذلك أن كل المجموعات الخاصة تضمها المجتمعات الاجمالية ، ومن ثم تتحمل نفاذ هذه المجتمعات الاجمالية فيها :

ويتجلى هذا النفاذ حتى فى المجموعات المنوعة ، والمضطهدة ، والسرية ، والعبيد ، وما شابه ذلك . غير أن أسلوب الضم ، ودرجة نفاذ المجتمع الاجمالى ، تتفاوتان تبعا لمختلف أنواع المجموعات ومختلف أنماط الأبنية الاجمالية . ويمكن من هذه الوجهة تمييز المجموعات المستعصية على نفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، والمجموعات الخاضعة لها بدرجة ما ، وأخيرا المجموعات الخاضعة لها كل الخضوع . والطبقات الاجتماعية مجموعات مستعصية على نفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، وتتزاحم فى الوقت نفسه مع سلم المجموعات الوظيفية التى يتميز بها البنيان الاجمالى الذى تنشط فى داخله الطبقات . وهذه السمة الأخيرة تجعل مقاومة الطبقات الاجتماعية لنفاذ المجتمع الاجمالى فى النهاية أشد فعالية من مقاومة الكنائس العالمية ، بما فيها الكنيسة الكاثوليكية .

ولكن علينا لكى نفهم طبيعة الطبقات الاجتماعية هذه فهما صحيحا ، أن نبدأ بتوضيح مفهومنا فى شأن المجموعات غير المستعصية . ونسوق فى البداية أمثلة للمجموعات التى تنزع الى الخضوع تماما لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها : فمنها الجمعيات العلمية ، والفنية ، والأدبية ، والتربوية ، والمعاهد ، والأكاديميات ، والجامعات ، والليسيه ، والمدارس الاقليمية ، ومؤسسات ومراكز الأبحاث وغيرها ؛ والجمعيات والمؤسسات الخيرية ، وما شابه ذلك . ولا بد أن يكون من هذا القبيل ، وبصفة أساسية ، الدولة الديموقراطية ، وهيئة الاقتصاد المخطط التى يديرها أصحاب المصالح أنفسهم . غير أنه كثيرا ما يكون نفاذ المجتمع الاجمالى فى كل هذه

المجموعات أقل فى الواقع مما يجرى فى الظن بتأثير المظاهر ، أو مزاعم هذه المجموعات ؛ ذلك لأنها تستسلم لسيطرة المجموعات الروحانية الوجدانية ، أو المجموعات ذات الروابط الاقتصادية ، وبخاصة الطبقات الاجتماعية وايديولوجياتها .

وهناك ثانيا قسم كبير من المجتمع الاجمالى يتكون من مجموعات خاصة تقبل بدرجة ما نفاذ المجتمع الاجمالى فيها : تلك حالة معظم مجموعات القرابة (الأسرة الكبيرة ، أسرة الزوجين ، البيت الصغير) ، ومجموعات اقليمية (منها الدولة التى لم تكتمل ديموقراطيتها) ، والمجموعات ذات النشاط الاقتصادى (مشروعات، مهن، حرف ، الخ)، والمجموعات التى يربطها الوضع الاقتصادى ، وغيرها . تلك أيضا حالة الجماهير المختلفة ، وجماعت السن (فيما عدا مجموعات « الشباب » حين تشكل جماعة فعلية) والجنس ، وبعض الأحزاب السياسية ، والأندية ، والجمعيات الرياضية ، وبعض المجموعات الروحانية الوجدانية (الكنائس البروتستانتية) وبصفة جزئية الكنيسة الأرثوذكسية ، والبوذية ، واليهودية ، والمحافل الماسونية Loges maçonniques الخ) . ففى الظروف العادية ، تقبل كل هذه المجموعات جملة النماذج والرموز والتقديرات والاعمال الثقافية والمعايير المتدرجة التى تأتيها من المجتمع الاجمالى ، دون أن تتخلى مع ذلك عن « تكييفها » وابداء بعض التحفظات بشأنها ، والاختيار بينها ، وتنويع قبولها لها ، وكذا خلق نماذجها الخاصة، وممارستها ، وأعمالها ، ورموزها التى تطعم بها نظائرها الآتية من المجتمع الاجمالى الذى نفذ اليها . بيد أن الموقف يتغير حين تظهر الطبقات الاجتماعية ؛ لأن معظم المجموعات السالف ذكرها تنضم الى طبقة من الطبقات ، ومن ثم تتبع مقاومة هذه الطبقة لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها .

« المجموعات المستعصية لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها هى تلك التى تقاوم هذا النفاذ ، عن وعى أو دون وعى » . وتختلف دواعى هذه

المقاومة • فقد تتصدى المجموعات الخاصة لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، لأنها تشعر بأنها مستبعدة من تدرج المجموعات القائمة : من ذلك المهاجرون المحرومون من حق العمل ، والأقليات العنصرية المضطهدة ، والمتعطلون الذى يقضون السنين الطوال دون أن يجدوا عملا ، والمنبوذون ، الخ • وقد تصبح المجموعات مستعصية عقب اخراجها من المرتبة أو المركز الذى كانت تشغله قبلا فى « ظروف أفضل » ، اذا لم يكن البناء الاجمالى قد تغير بعد ، تلك هى المجموعات المستعصية بسبب عدم توائمها مع الأبنية الجديدة ، كالنبلاء ، ورجال الدين ، بعد الثورة الفرنسية ، وأصحاب ملة كانت شائعة وسائدة قبل قيام اصلاح دينى (كالكاثوليك فى بعض البلاد التى أصبحت بروتستانتية ، والوثنيون بعد انتصار المسيحية) ، والعشائر فى اليونان القديمة phratries بعد الاصلاح الذى قام به «سولون»، والاقطاعيون بعد استيلاء الدولة الملكية الاقليمية على مقاليد الحكم بصفة نهائية ، وغير ذلك ـ والفئة الثالثة للمجموعات المستعصية تشمل الكنائس العالمية ، وبخاصة الكنيسة الكاثوليكية (وبصفة جزئية الكنيسة الأرثوذكسية) ، ويعزى مقاومتها الى السمة الخاصة الفريدة التى تنسبها لنفسها ، السمة فوق الطبيعية والكشفية التى تتميز بها عقائدها وتقاليدها وتنظيماتها ، ويلزمها وضعها هذا أن ترفض الاقتباس من أى نبع آخر ، ويفرض عليها النزعة الى أن تتخطى بطبيعتها العالمية الأبنية الاجمالية ، وبخاصة الأمم • ومن الواضح أن الدرجة الحقيقية للنفاذ المتبادل بين الكنيسة والمجتمع الاجمالى يتوقف على عدد كبير جدا من العوامل • ولا بد مع ذلك من ملاحظة أن الكنيسة ، بغض النظر عن المركز المتغير الذى تشغله فى سلم المجموعات الوظيفية التى تميز البناء الاجمالى ، تندمج عادة فى هذا السلم [1] ، فى حين تنافس الطبقات الاجتماعية هذا السلم وتقلبه وتبنى غيره •

---

(1) يمكن أن نذكر بالاستثناء من ذلك نمط المجتمع الاقطاعى الذى كان يصطرع فيه الكثير من تدرجات المجموعات الوظيفية •

والفئة الرابعة والأخيرة من المجموعات المستعصية، تتمثل فيالطبقات الاجتماعية التى تعتبر كل طبقة منها نفسها المركز الأوحد والمقر الرئيسى للمجتمع الاجمالى ، وأساس وجوده فى المستقبل أو الحاضر أو الماضى. وتستند المقاومة فى هذه الحالة الى كل من الخاصية فوق الوظيفية ، والتناقض ، والبنائية القوية ، وكذا الدينامية القوية التى تعدل التدرج القائم بين المجموعات الوظيفية تعديلا عميقا .

وثمة مجموعات أخرى ، هى وحدها التى تملك قدرا ضعيفا من خاصية مقاومة النفاذ ، تلك هى مجموعات الشباب ، ليس فقط فى مختلف فروع أنماط المجتمعات المسماة بالعتيقة ، ولكن أيضا حيثما توطدت هذه المجموعات كوحدات جماعية واقعية : وتتميز بروح المقاومة والاصلاح والثورة ازاء المجتمع الاجمالى الذى تريد كما يبدو تعديل بعض مظاهره. غير أن المقاومة التى تبديها هذه المجموعات وقتية ، فيتضح فى النهاية أنه قد نفذت فيها قوائم القيم المشتركة فى المجتمع الاجمالى بصورة أعمق مما كان يبدو عليها لأول وهلة ـ اللهم الا اذا كان الأمر يتعلق بشباب طبقة معينة بالذات ـ والأمر على العكس من ذلك فى الطبقات الاجتماعية التى نواجه فيها انعدام قابلية النفاذ ومقاومة دائمة على أساس متين ، مما يؤدى الى صراعات حاسمة بالنسبة الى نمط البناء الاجمالى ، أى الى عملية بنائه أو هدمه .

والطبقات الاجتماعية الصاعدة ، والطبقات التى فقدت السلطة ، هى أكثر الطبقات امتناعا لنفاذ المجتمع الاجمالى . وعلى العكس من ذلك الطبقة الاجتماعية الحائزة للسلطة ، فانها تتقبل بمزيد من السهولة هذا النفاذ ، وتعتقد أنها تسيطر عليه . فاذا لم تعد قادرة على هذه السيطرة ، كان ذلك ايذانا بسقوطها . فالطبقة البورجوازية قبل الثورة الفرنسية واثناءها وبعدها ، وطبقة الفلاحين فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، والبروليتاريا فى ثورات القرن العشرين ، كلها أمثلة قديمة لطبقات صاعدة بدأت

بمقاومة نفاذ المجتمع الاجمالى فيها حتى سيطرت على هذا المجتمع • ولنضرب مثلا طبقة الفلاحين فى فرنسا ؛ فقد تكونت بعد الثورة الكبرى ، وكانت تتمسك بالملكية الفردية للأرض • وكان وضعها كثير التناقض ، فهى من جهة تعد أولادها للوظائف ، ولديها الفرصة لأن تتيح لهم الارتقاء على السلم السياسى والاجتماعى ، وهى من جهة أخرى ـ وهنا كانت قوتها كطبقة ـ احتفظت بعنصر الحصانة، ومقاومة نفاذ المجتمع الاجمالى• وعندما قامت الجمهورية الثالثة على أكتاف الفلاحين وحدهم ، استسلمت هذه الطبقة لتأثير المجتمع الاجمالى لدرجة تعرض معها وجودها للخطر ؛ وبعبارة أخرى كان وصول طبقة الفلاحين للسلطة بصفة نهائية ايذانا بتحول حاسم نحو تفككها •

وعندما يناقش الانسان مشاكل بقاء طبقة ما ، أو ولادة طبقات جديدة ، فان درجة مقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها تصلح معيارا هاما فى هذا الصدد • مثال ذلك أن نجاح « الكولخوز » الباهر فى روسيا السوفيتية لم يكن ممكنا لو لم تسبقه طبقة « مير » mir الروسية القائمة على طبقة فلاحين متجانسة تماما بقيت عدة قرون تقاوم المجتمع الاجمالى ، واحتفظت ، حتى بعد الثورة ، وبعد الكثير من الاجراءات التى اتخذت ضد أغنياء الفلاحين (الكولاك) الذين كانوا يعتبرون أعداء لطبقة الفلاحين الفقراء والمتوسطين ، احتفظت بشىء من قدرتها على مقاومة مجتمع اجمالى شديد النفاذ كمجتمع الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر • واستمر الفلاحون الروس يشكلون فى وجه الجميع ، وضد الجميع ، طبقة تضم شرائح مختلفة: والعجيب أن هذا الأمر يؤكد نجاح الكولخوز والسوفخوز، فى حين أن هذين النمطين من الاستغلال الزراعى قد فرضتهما الحكومة•

هل توجد طبقة متوسطة أو أكثر ؟ وهل بدأ المتعلمون أو الجماعات التكنو بيروقراطية يشكلون طبقة ؟ هذه أسئلة ترتبط أيضا بدرجة المقاومة أو عدم المقاومة عند هذه الجماعات ضد نفاذ المجتمع الاجمالى (مختلف

الطبقـــات) فيهـا • مثـــال ذلك أن بعض الدلالات تنبئنـا بأن الفنيين والبيروقراطيين والعسكريين والخبراء بدأوا يكونون عالما يغلق فى وجه هذا النفاذ • والشىء الذى يعـوزهم حتى يكونوا طبقـة ، هو بنائية قوية بدرجة كافية •

بقى علينا لاتمام هذا الشرح للخصائص الرئيسـية الست للطبقـات الاجتماعية أن نتوقف عند معيار البنائية القوية هذا •

٦ ـ للطبقات الاجتماعية كما بينا قبلا ، ميل واضح للبنائية القوية • ومع ذلك فانها بسبب خاصيتها فوق الوظيفية ، تظل غير منظمة • فالبنـاء والتنظيم ليسا بالمرة شيئا واحدا • والطبقة الاجتماعية المكونة بالفعل لهـا بناء موحد وراسخ ، ولكنها لا يمكن أن تتمثل فى تنظيم واحد ؛ وحتى أكثرية التنظيمـات التى ترتفع فى مدارجها ، لا تعبر عنهـا الا بصـورة جزئية غير مستوفاة • أما الطبقات الاجتماعية الفرضية فانهـا قابلة للبنـاء كسائر المجموعات ؛ ومع ذلك فقد لا تكون الا فى مسـتهل بنائها ، فهى لا تتمثل بالأحـرى فى أى تنظيم • وعلى ذلك يجب لتقـرير ما اذا كان « قسم من طبقة » أو « شريحة » فى داخل طبقة تنزع الى تكوين طبقة منفصلة ، أن يدرس ميلها البنائى • وتبدو هذه الحقيقة بسيطة للغاية اذا نظرنا خلفا الى تكوين الطبقة البورجوازية ، والطبقة البروليتارية ، وطبقة الفـلاحين (من ذلك أن نفس العقليـة ، والرموز ، والقيم ، والأفكار ، وأساليب التمثيل، والايديولوجيات قد لحمت وحدة وترابط «نبلاء الرداء» noblesse de robe (أى القضـاء) وعامة الشـعب من جهة ، وعمال من أصل اجتماعى ووضع اقتصادى مختلف ، من جهة اخرى) •

على أن لهـذا الدليل المرشـد أهميتـه الـكاملة اذا أردنا ملاحظة التقسيمات الجديدة الممكنة فى داخل الطبقات الاجتماعية • مثال ذلك أنه لا يمكن حل المشكلة الخاصة بمعرفة ما اذا كان يوجد بالبورجوازية المالية ، والصناعية ، والتجارية فى نظام الرأسمالية المتطورة « أجـزاء من الطبقة

نفسها ، أو طبقات مختلفة عنها الا بالنظر الى قوة خاصيتها البنائية المتنوعة.
وهل تمثل « شرائح » الفلاحين الروس الموسرين والمتوسطين والفقراء
طبقات مختلفة ؟ لا يمكن الاجابة على هذا السؤال الا بدراسة درجة بنائية
كل منها . كذلك لا يمكن حساب عدد الطبقات المتوسطة ، وطبيعة الطبقة
التكنوبيروقراطية ، والطبقات الجديدة التى قد تكون فى مرحلة التكوين
بين سكان الريف وسكان المدن الا بدراسة درجة نفاذ المجتمع الاجمالى
فيها ، وكذا بنائيتها الحقيقية .

التعريف التفصيلي للطبقات الاجتماعية الاتجاهات الثلاثة الرئيسية للأبحاث التجريبية في الطبقات الاجتماعية

استبان لنا في الدرس الأخير أن معيار البنائية القوية للطبقات الاجتماعية يشمل ضمنا معيار الوعي الطبقي ، وأعمال الطبقة الثقافية ، والايديولوجية • وأوضحنا في نقدنا للنظرية الماركسية أن مفهوم الوعي الطبقي قد ظل قليل الوضوح ، اذ أعوزته التحليلات السيكولوجية • وكان هناك غير ذلك خلط بين الأعمال الثقافية والايديولوجية • ثم اذا كان هذا المصطلح الأخير (الايديولوجية) قد اكتسب الكثير من المعاني ، فقد اقترحنا أن يحتفظ له فقط بمعنى التبرير (الفقهي أو غير الفقهي) للأوضاع المتحزبة التي تتخذها الطبقة ، وأن توضع الأعمال الثقافية (القانون والأخلاق والفن والمعرفة واللغة والتربية) الخاصة بطبقة ما في روابط وظيفية مع هذه الطبقة • يبقى بعد ذلك مشكلة الوعي الطبقي ، التي يقتضي علاجها على أنها صادرة عن السيكولوجيا الجماعية ، الأمر الذي سنحاول القيام به بايجاز شديد في مستهل هذا الدرس •

وحالما نسلم بامكان الحديث عن « المدارك الجماعية » نستطيع أن نعطي معنى محددا لعبارة « الوعي الطبقي » بتخليصها في الوقت نفسه

من كل مظاهر الغموض • والوعى الجماعى هو تفسير جزئى للمدارك الفردية ، يحتمل التدرج • ولا يمكن مماثلة المدارك الفردية بالمدارك الجماعية ، ولا فصلها بعضها عن بعض ، فهى متشاركة • والمدارك كلها ، فردية كانت أو جماعية ، وعلى مختلف الدرجات ، مفتوحة ، وموجهة•• و « عمدية » (بمعناها الفينومينولوجى) (١) • وهى فى حقيقتها ليست الا اتجاهات مختلفة فى التيار النفسانى الواحد ، وفى الظاهرة النفسانية الكلية : اتجاه نحو الذات (نحن) ، والجماعة ، والمجتمع الاجمالى بالنسبة الى المدارك الجماعية ، واتجاه نحو « الأنا » بالنسبة الى المدارك الفردية ؛ واتجاه نحو « الغير » والعلاقات بالغير بالنسبة الى المدارك المتداولة بين الأشخاص • غير أن هذه الأقطاب الثلاثة قائمة على الدوام ، وبشكل تجاذبها وترابطها أحد المظاهر الجوهرية فى كل حياة نفسانية ، وكل وعى بصفة خاصة • وللوعى الجماعى من هذه الناحية قدر من الحقوق فى الحياة مثل ما للوعى الفردى ، بل انه يتمتع بنوع من الأفضلية على الوعى المتداول بين الأشخاص ، لأنه يصلح أساسا للاتصال بين المدارك • ومن الواضح بالمثل أنه لما كان الوعى الجماعى وجها من وجوه الظاهرة النفسانية الكلية ، فانه يمكن أن يتلون ويتفاوت فى الأهمية الى أقصى حد ممكن : ومن العسف قصره على مجرد الغرائز والحالات الوجدانية والتصورات الجماعية •

وتصدر المصاعب لا عن وجود المدارك الجماعية ، وانما عن كثرتها ، ففى داخل كل جماعة ، قدر من المدارك الجماعية يساوى ما بها من ال (نحن) المنوعة • ومع ذلك فطالما كانت جماعة من الجماعات فى داخل عملية بنائية ، فان وعى هذه الجماعة يحاول أن يسيطر على المدارك الجماعية الكلية الصادرة عن العناصر السوسيولوجية الصغيرة التى تتصادم بداخلها• وبالمثل فان وعى الأمة الجماعى يميل عادة ، فى الأبنية الاجمالية الى التفوق

(١) الفينومينولوجى phenomenologie علم وصف الظواهر ـ المترجم

على العدد الكبير من المدارك الجماعية المستقرة فى الذات « نحن » من جهة ، وفى الجماعات من جهة أخرى • ولكن هناك مدارك جماعية ؛ وأشد الصعوبات هى بالتحديد فى مدارك الطبقات الاجتماعية • ويبدو الوعى الطبقى الذى هو وعى جماعى قوى بصفة خاصة ، أشد سيطرة فى الوقت نفسه من أى وعى آخر بالنسبة الى المدارك الجماعية للمجموعات والذات « نحن » الموجودة فى داخل الطبقة • وهذا أمر يمكن التثبت منه بصفة خاصة ؛ لأن وعى الأمة يتجلى أكثر تسامحا من الوعى الطبقى• وينفذ هذا الوعى الطبقى بقــوة فى كل المدارك الجماعية لدى المجموعات و « نحن » الموجودة داخلها ؛ فى حين أن وعى الأمة لا ينجح بالمرة ، فى الكثير من الأحيان ، أو لا ينجح الا بقدر ضئيل فى النفاذ الى وعى الطبقات التى تضمها •

ثم انه حالما يكف الوعى الطبقى عن الهيمنة على الوعى الجماعى لدى المجموعات الموجودة داخل الطبقة ، تخرج هذه المجموعات من طبقتها وتنتقل الى طبقة أخرى أو تشرع فى تكوين طبقة جديدة • وعلى هذا فان الوعى الطبقى ، أو بالأحرى العقلية الجماعية لطبقة ما ، هو أساس جوهرى لوحدة الطبقة ، يتهدده على الدوام فوارق الأوضاع الاقتصادية الخاصة بشرائحها المختلفة وحركيتها الاجتماعية ، والحشد الكبير من المجموعات المختلفة الأنواع ، المنضمة فى داخل اطار الطبقة • فاذا أدركنا أن كل طبقة اجتماعية هى عالم فسيح من المجموعات ، استطعنا أن ندرك حينئذ فقط أهمية الوعى الطبقى من جهة ، والأعمال الثقافية للطبقة وايديولوجيتها التى تستطيع الابقاء على تماسكها ، من جهة أخرى •

وفى الامكان اضافة خصائص أخرى الى خصائص الطبقات التى قدمناها آنفا ، تكمل وتفصل ما شرحناه منها : من ذلك أن الطبقات الاجتماعية مجموعات متسعة للغاية بالنسبة الى عدد المشتركين ؛ وهى أضخم المجموعات الخاصة المعروفة الى اليوم ، لأنها تتخطى الحدود

القومية • فالطبقات الاجتماعية اذن هي على النقيض من المجموعات المصغرة أو الضيقة النطاق ، والمجموعات المتوسطة الأبعاد • وترتبط هذه الخاصية من جهة بظاهرة أنها تشكل مجموعات متباعدة ، ومن جهة أخرى بتشكيلها المقصور على أنماط المجتمعات المتطورة في الصناعة والتي تمتلك وسائل فنية كافية للانتاج والمواصلات والنشر •

وتتميز الطبقات الاجتماعية أيضا من حيث انها تشكل جماعات مستديمة ، بمعنى أنها تنتمى الى فئة المجموعات الأكثر ثباتا من ناحية بقائها • وهي تتميز من هذه الزاوية ليس فقط عن المجموعات الوقتية ، وانما أيضا عن المجموعات الدائمة التي يحتمل انحلالها اذا توافرت شروط معينة • فالطبقات الاجتماعية تعتبر الى جانب الدول والكنائس ، من المجموعات التي لا يتوقع انحلالها ، ولا يفكر أحد في هذا الانحلال • واعتماد هذه المجموعات الدائمة في وجودها كمجموعات على حياة أعضائها الفعليين وارادتهم يقل في ذلك عن غيرها من المجموعات ، الأمر الذي يزيد من فرص تماسكها • وترتبط خاصية دوام الطبقات الاجتماعية باعتبارها مجموعات (الأمر الذي لا يمنع في الحقيقة من تلاشيها وحلول مجموعات أخرى محلها) بالخاصية فوق الوظيفية ومقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالي فيها •

والطبقات الاجتماعية فوق ذلك مجموعات مفتوحة تتميز عن المجموعات المقفلة ، وكذا عن المجموعات التي يرتبط دخولها بشروط • ويتعلق البحث هنا بأسلوب الانضمام الى جماعة ما ، ولا يتوافق هذا الأسلوب دائما مع أساس تشكيل هذه الجماعة • والانضمام الى المجموعات الاختيارية ، بل وحتى الى المجموعات المفروضة قد يكون حرا ، وقد يخضع الى بعض الشروط ، وقد يكون ممتنعا • والمجموعات الواقعية هي وحدها دائما مجموعات مفتوحة • ولما كانت الطبقات الاجتماعية مجموعات واقعية ، فانها بالتالي مجموعات مفتوحة • فالخاصية الأولى ها هنا تتضمن

الثانية • ونلاحظ مع ذلك أن حرية الانضمام الى طبقة اجتماعية لم تزل نسبية للغاية • فليس هناك أية حدود قانونية من جهة ، ثم هناك من جهة أخرى امكانية انضمام الأفراد أو الجماعات برغبتهم حين يشعرون بميل يجذبهم الى طبقة ما لبواعث مختلفة (باعتناق قضية هذه الطبقة لأسباب ايديولوجية أو اقتصادية ، أو ليحتموا فيها ، أو على سبيل التوقى الخ) ، غير أن هذا الانضمام الفعلى الى طبقة أدنى أو أعلى يفترض تغيرا فى العقلية ونوع المعيشة ومستواها ، الأمر الذى لا يتم بسهولة • أما الانضمام الى طبقة عليا ، فانه يستلزم من الفرد أيضا أن يمتلك الوسائل الاقتصادية التى تتيح له بلوغ هذه الطبقات العليا •

والخاصيتان الأخيرتان اللتان يمكن نسبتهما الى الطبقات الاجتماعية هما : أنها تنتمى الى مجموعات التفرقة groupements de division وأنها لا تستطيع ممارسة ضغط غير مشروط contrainte inconditionnelle على أعضائها • وتترتب هاتان السمتان على ما سبق بيانه • ولمجموعات التفرقة اتجاه نضالى ، أما مجموعات الوحدة فلها اتجاه تصالحى • وهناك خارج الطبقات سلسلة من مجموعات التفرقة ، كمجموعات السن والجنس ، والمجموعات ذات الرابطة الأخوية ، والمهن ، والنقابات ، والأحزاب السياسية • وعلى نقيض هذه الفئة ، مجموعات الوحدة ، كمجموعات القرابة ، والمجموعات المحلية ، وقسم من المجموعات الاقتصادية كالمصانع ، والمشروعات ، والصناعات • هذا التميز لا يمت بصلة لأى تقدير ، كما لا شأن له من باب أولى بموضوع خدمة الصالح العام أو الصالح الفردى ، لأن مجموعات التفرقة قد تخدم الصالح العام ، كما أن المجموعات الوحدوية قد تخدم المصالح الفردية جهارا أو بوسيلة مستترة • والطبقات الاجتماعية ، بسبب مقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، وتعارضها الأصلى ، تعتبر مجموعات التفرقة المثلى • بيد أن خاصيتها النضالية يمكن أن تتنوع تبعا لاتجاه الذات (نحن) ومختلف الجماعات المنطوية فيها ، وكذلك تبعا

لوضعها فى سلم الطبقات من جهة ، وللأحداث الجارية فى المجتمع الاجمالى من جهة أخرى •

وأخيرا ، فان الطبقات الاجتماعية تمارس ضغوطا شديدة على أعضائها الفرديين والجماعيين (« نحن » والجماعات المنضوية فيها) وهى مراكز الاستجابات الجماعية (الايجابية والسلبية) التلقائية ، التى هى مع ذلك قوية ، بيد أنها لا تمارس أى اكراه غير مشروط ، فهى لا تستطيع أن تحظر على المشتركين فيها الانسحاب منها ، وترك الجماعة للافلات من العقوبات• وهى لاتملك الا الاكراه المشروط contrainte conditionnelle ولا شأن لذلك بشدة العقوبة التى يمكن أن تتراوح بين اللوم البسيط وبين المقاطعة الشديدة التى لا تهدد الوضع الاقتصادى فحسب ، وانما تهدد أمن وحياة أصحاب الشأن أنفسهم ، اذا لم ينجحوا فى الخروج من الطبقة التى وقعوا معها فى نزاع • وتقترن خاصية الطبقة هذه من حيث أنها تملك الاكراه المشروط بانتمائها الى المجموعات المفتوحة الواقعية ، غير المنظمة على هذا الوجه والمتباعدة •

نستطيع الآن أن نصوغ تعريفا شاملا مستوفيا للطبقات الاجتماعية : « الطبقات الاجتماعية مجموعات خاصة فسيحة الأرجاء للغاية تمثل عالما شاسعا من المجموعات التابعة ، تقوم وحدته على خاصيتها فوق الوظيفية ، ومقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالى فيها ، وتعارضها الأصلى فيما بينها ، وبنائيتها القوية التى تتضمن وعيا جماعيا متسلطا وأعمالا ثقافية نوعية • هذه المجموعات التى لا تظهر الا فى المجتمعات الاجمالية المتطورة فى الصناعة ، والتى تقدمت فيها بصفة خاصة النماذج الفنية والوظائف الاقتصادية لها فوق ذلك السمات الآتية : فهى مجموعات واقعية ، مفتوحة، متباعدة ، تفرق على الدوام ، وتبقى غير منظمة ، ولا تملك سوى الاكراه المشروط » •

وفى ختام هذه الدروس ، نستعرض بايجاز المشاكل التى تثور أمام

سوسيولوجيا الطبقات الاجتماعية التى يلزم دراستها بالتفصيل ، وذلك على الأفضل بتحليل الأوضاع الواقعية ، وبالأبحاث التجريبية empiriques اذا وافقنا على اتخاذ محاولتنا فى تصوير مفهوم الطبقات الاجتماعية أساسا لنا فى هذا السبيل •

١ ـ الطبقات الاجتماعية ، ككل ظاهرة اجتماعية كلية (جزئية كانت أو اجمالية) تمثل عالما صغيرا من أشكال التآلف الاجتماعى • ويجب أن تتولى السوسيولوجيا الدقيقة (الميكروسوسيولوجيا) للطبقات الاجتماعية دراسة تحقيق ودعم مختلف أشكال التآلف الاجتماعى بالنسبة الى كل طبقة على حدة ، وتبعا للدور الذى تتكفل الطبقة بأدائه فى الأبنية والأحداث الاجمالية • ويمكن تسجيل الملاحظة الآتية : ان الطبقات الاجتماعية تؤيد الذات « نحن » أكثر بكثير مما تؤيد العلاقات مع الغير (الفردية والجماعية) ، وتؤيد من بين « نحن » الجماهير Masses والطوائف Communions على حساب المجتمع المحلى Communauté بل انه فى الامكان التساؤل عما اذا لم تكن الأهمية البادية فى الوعى الطبقى والأعمال الثقافية والايديولوجية من حيث تكوين الطبقات نفسها وعملها هى نتيجة لحركة تعويضية يقصد بها سد النقص والقصور لدى المجتمع المحلى •

ومع ذلك فما أن يصوغ الانسان السؤال بالنسبة الى كل طبقة على حدة ، حتى يتبين له أن مثل هذه الملاحظات العامة يمكن أن تكون فقط نقطة بداية • فالواقع أنه فى الطبقة البورجوازية من جهة ، وفى طبقة الفلاحين من جهة أخرى ، يبدو « المجتمع المحلى » رغم كل شىء متينا ، فى مثل متانة « الجمهور » و « الطائفة » ، فى حين أنه فى طبقة العمال لا يكاد يكون محسوسا فى أكثر الأحيان • وفوق ذلك فان « نحن » فى الطبقات المتوسطة محدودة بقوة بالعلاقات مع الغير ـ وعلى الأخص العلاقات الجماعية مع الغير • هذا التحديد لعنصر « نحن » ، فى الطبقة

البورجوازية ، وبخاصة فى عصر الرأسمالية التنافسية ، واضح بجلاء فى صالح العلاقات بالغير •

ويمكن فضلا على ذلك ملاحظة أنه كلما ازدادت حدة الخصومة بين الطبقات ، ازدادت الطائفة Communion فيها قوة ، وكلما ضعف الصراع بين الطبقات ، ازدادت قوة الجمهور Masse • ولا بد أيضا أن يؤخذ فى الاعتبار الطبيعة الايجابية والسلبية لأشكال التآلف الاجتماعى لدى « نحن » • فمن ذلك مثلا أن الطبقات الاجتماعية الصاعدة تتطور بسرعة الى جماعات وطوائف وجماهير ايجابية نشيطة• أما الطبقات الناشئة التى لم تزل بعد فى دور التكوين ، فانها تؤيد الجماهير السلبية ؛ وأما الطبقات التى تجردت من السلطة ، فانها تؤيد الجماعات والطوائف السلبية •

وعلى ذلك لا بد من تعديل سوسيولوجية الطبقات الاجتماعية بالنسبة الى كل طبقة ووضعها الفعلى فى الأبنية والأحداث الاجمالية • وتبدو لنا هذه الملاحظة أكثر صدقا اذا اعتبرنا أن الطبقات عالم شاسع من المجموعات ــ أى مجموعات المجموعات ــ وأن فى داخل هذه المجموعات تثور أيضا مشكلة نشاط أشكال التآلف الاجتماعى بقدر متفاوت من الشدة•

٢ ــ نصل الآن الى المظهر الثانى للطبقات الاجتماعية باعتبارها عالما شاسعا من المجموعات التابعة لها • تتبوأ الطبقات الاجتماعية فى هذا الصدد مكانة غير عادية بين المجموعات الخاصة ؛ لأنها الوحيدة التى يضم كل منها عددا كبيرا من سائر المجموعات ، فلا يتخطاها فى هذا الشأن سوى المجتمع الاجمالى • وظاهرة أن الطبقات الاجتماعية هى « مجموعات من المجموعات » انما هى نتيجة مباشرة لخاصيتها فوق الوظيفية • واذا اعتبرنا عالم المجموعات الموجودة فى داخل الطبقة قاصرا على الشرائح المترتبة على التفاوت فى الثروة أو الأجر ، والتأهيل المهنى ، والحاجات واشباعها ، فانا نقلل بقدر كبير من عدد المجموعات المنضمة فى داخل الطبقة • وسلم

مجموعات الرابطة الاقتصادية ليس الا مظهرا من مظاهر عالم المجموعات التى تمثلها طبقة اجتماعية •

ففى الامكان ـ من جهة ـ وجود أنواع أخرى من تدرجات المجموعات التابعة فىداخل الطبقة ؟ وقد تكون معايير هذه التدرجات مكانة المجموعات ، وسلطتها ، وسمعتها الطيبة ، ومجدها ؟ وقد تغدو هذه المعايير مستقلة تمام الاستقلال عن التقسيم الاقتصادى الى شرائح : مثال ذلك النقابات ، والأحزاب السياسية العمالية ، والمفوضون العماليون ، و « الأقليات النشيطة » فى داخل طبقة البروليتاريا • والأمر كذلك بالنسبة الى الطبقة البورجوازية ، فهناك : « كبار رجال الأعمال » وهم المنظمون الأكفاء الذين يتمتعون بخيال خصب ، وجمعيات أرباب الأعمال، وأصحاب رءوس الأموال النابهون الأحرار فى عصر نهضة الرأسمالية التنافسية ، وما شابه ذلك • وفى داخل الطبقة الاجتماعية ، يتضمن سلم المجموعات المستقلة عن الشرائح الاقتصادية تقييما لا يمكن أن يصدر الا عن جدول القيم الخاص بهذه الطبقة •

ومن جهة أخرى فهناك عدد كبير من المجموعات المنضوية فى داخل الطبقات الاجتماعية لا تشكل أى تدرج ، الأمر الذى يمكن ملاحظته فى عدد من المهن والأسر القائمة على مستوى واحد من حيث الوضع الاقتصادى ، والتربية ، والمكانة ، والسلطة ، والسمعة ، وكذا بالنسبة الى أنواع مختلفة من جمعيات الصداقة ، والأخوة ، والجمعيات الدينية ، والتربوية ، والرياضية ، والأندية ، ومجموعات السن ، والمجموعات العامة ، وجماعات المنتجين والمستهلكين الداخلين فى اطار الطبقة الاجتماعية •

وقد ذكرنا من قبل أنه كلما اشتد الصراع الطبقى ضعف الشعور بكثرة المجموعات فى داخل كل طبقة • وعلى العكس من ذلك تزداد هذه الكثرة وضوحا وأهمية كلما هدأ الصراع الطبقى بعض الشىء • ونستطيع

الآن آن نضيف شيئا من التحديد فنقول : ان تدرجات المجموعات الوظيفية المتزاحمة فى داخل الطبقات الاجتماعية لا تعبر بالمرة عن ضعف الصراعات الطبقية ، بل الأمر على العكس من ذلك تماما • مثال ذلك أن تكون سلم للمجموعات فى داخل طبقة العمال ، معاييره المكانة والسلطة والسمعة الطيبة والمجد ، وهو سلم يتزاحم مع الشرائح الاقتصادية المتدرجة ، انما هو مظهر يدل على حدة الخصومة الاجتماعية • وعلى النقيض من ذلك ، اذا أمكن توحيد سلالم المجموعات المتزاحمة فى داخل طبقة اجتماعية لصالح الشرائح الاقتصادية الخاصة بالطبقة ، فانما يحدث هذا بالذات عندما لا تكون هذه الطبقات مبنية بناء قويا (كالطبقات المتوسطة مثلا) أو عندما يضعف الصراع الطبقى فى الواقع ، أو ••• فى خيال المؤلفين الذين يلحون كثيرا على الشرائح الاقتصادية ، حتى انهم يخلطونها بالطبقات نفسها •

وعلى أية حال ، لا بد هنا أيضا من عمل تحليلات وتحقيقات تجريبية لدراسة الطبقات الاجتماعية باعتبارها عوالم كبيرة macrocosmes من المجموعات ، وكذا دراستها باعتبارها عوالم دقيقة microcosmes من أشكال التآلف الاجتماعى ؛ ذلك لأن كل طبقة تمثل عالما كبيرا نوعيا من المجموعات ؛ وفى كل حدث واقعى تجتازه الطبقة ، والبناء الاجمالى الذى تنشط فى داخله ، نشهد تنوع هذه العوالم الكبيرة ، والسلالم التى تميزها ، والمعايير التى تقوم عليها هذه السلالم •

٣ ـ وهذا يؤدى بنا الى المظهر الثالث فى الدراسات المتعلقة بالطبقات الاجتماعية ، مظهر الأبنية الاجمالية التى تتجلى فيها الطبقات الاجتماعية وتتصارع فيما بينها • وقد أكدنا خلال عرضنا النقدى والمنهاجى على فكرتين عامتين :

(أ) الترابط بين وجود الطبقات الاجتماعية وبين الأبنية الاجمالية المتميزة بالتصنيع •

(ب) ان التدرج بين الطبقات الاجتماعية ، والتدرج فى داخل كل منها ، يميلان الى التزاحم مع تدرج المجموعات الوظيفية التى يستقر عليها بناء المجتمعات التى تضمها .

ومع ذلك فالتعميم فى الكثير من النقاط الأخرى محتمل بالكاد ، أو هو غير محتمل بالمرة . ويتطلب تحديد درجة النفاذ الفعلى للمجتمع الاجمالى فى طبقة اجتماعية ، ودرجة التزاحم بين سلم الطبقات وسلم المجموعات الوظيفية ، تحقيقات تجريبية تأخذ فى الاعتبار الأحداث والأوضاع الواقعية ، وكذا الأبنية .

وتزداد الحاجة الى هذا الاجراء فيما يختص بعدد الطبقات الاجتماعية ، وكذا بالعلاقة بين الحتمية السوسيولوجية الجزئية للطبقات والحتمية السوسيولوجية الاجمالية .

ومن المستحيل التكهن بعدد الطبقات ، فهناك دائما طبقات فى طور النشوء تبدى ارادات بنائية مزعزعة . وقد تغدو هذه الحالات الفرضية فعلية أو لا تتحقق ، تبعا لتنوعات الأنماط الاجمالية ، وحسب الأحداث الجارية . وثمة طبقات تتناقص أهميتها بسبب تغير الظروف ، فتمضى قدما فى طريق الفناء ، وتنحل فى هدوء (من ذلك طبقة الفلاحين فى فرنسا ، الأمر الذى لا يمنع بداهة من ظهور براعم طبقات ريفية جديدة) . وثمة طبقات تبدو سائرة فى طريق الزوال (كالبورجوازية الصغيرة) ، ولكنها تبلور انطلاقة جديدة (كالطبقات المتوسطة) بسبب الانقلاب فى الأساليب الفنية (التكنيك) ، وزيادة عدد الأعضاء الفنيين المرءوسين ، والوسطاء المختلفين الخ . بل ان الكتل التى يمكن أن تكونها الطبقات المختلفة فيما بينها لا يمكن دائما التكهن بها ، ويمكن أن تتنوع تبعا للأحداث ، ووفقا للبلاد المختلفة . هذه المسائل لا يمكن دراستها الا بأبحاث وتحقيقات تجريبية ، مع استبعاد كل تطبيق دوجماطيقى .

وطالما كان للطبقات وجود ، فان حتميتها السوسيولوجية الجزئية

تتزاحم بصورة محسوسة مع الحتمية السوسيولوجية الاجمالية للمجتمعات التى تضمها ؛ غير أن هذا التزاحم يكون على درجات يلزم تحليلها تحليلا تجريبيا • ويمكن أيضا أن نلاحظ بوضوح ـ وبوضوح أكثر مما فى أية جماعة أخرى ـ انقطاعا بين حتمية الطبقات وحتميـة المجتمع الاجمالى ؛ ومع ذلك فهذا الانقطاع نسبى ، محدود باتصال نسبى • ولا يمكن دراسة هذه الضروب من الانقطاع والاستمرار الا بوسائل تجريبية •

ومن البديهى أنه اذا استولت طبقة ما على السلطة ، فان حتميتها قد تنجح وقتا ما فى احتلال المركز الأول فى سلم الحتميـات الجـزئية التى تلتزم الحتمية السوسيولوجية للأبنية الاجمالية بتوحيدها • وعلى العكس من ذلك فانه عنـدما تنتزع السـلطة من أيدى الطبقـة ، تتدخل حتميتها النوعية فى نزاع عنيف مع الحتمية السوسيولوجية للمجموع ، دون أن توفق مع ذلك الى أداء دور آخر عدا دور المعوقات • وأخيرا فان الحتمية الجزئية للطبقات الصاعدة ، اذ تشدد الانقطاع بينها وبين حتميـة المجتمع الاجمالى فانها تمارس ضغطا قويا للغاية على هذه الأخيرة ، حتى ولو كان ذلك باثارة ردود أفعال وصراعات بين الحتميات • ويجب أن نضيف الى ذلك أنه فى اللحظة التى تحتل فيها حتمية طبقة وصلت الى السلطة ذروة سلم الحتميات الجزئية ، تبدو فعالية الحتمية الخاصـة بهذه الطبقة أنهـا آخذة فى الضعف ، فهى على حد قولنا : حين تكسب فى الاتساع ، تفقد من حيث القوة ••• ولا تنسى فوق ذلك أن كل طبقة تعيش فى ظروفها الزمنية أو على الأصح فى سلمها الخاص بالظروف الزمنية التى لا تطابق الظروف الزمنية عند المجتمع الاجمالى •

لكل هذه الأسباب فان المماثلة بين حتمية الطبقات وحتمية المجتمعات الاجمـالية خطأ كبير ، مرده الى الافراط فى التبسـيط • وبين الحتميتين يتطور جدول طويل معقد : وليس ثمة ما يعطى صورة صحيحة وواقعية عن علاقاتهما سوى أبحاث تجرى بروح تجريبية مثلى •

لم يبق لى فى النهاية سوى أن أبين ما أراه فى مستقبل الطبقات الاجتماعية • وانى اذا كنت أرفض احتمال زوالها فى المجتمعات المتطورة فى الصناعة ، فليس معنى هذا أنى أجزم بأن الطبقات الموجودة فى الوقت الحاضر سوف تخلد ، أو أن الرأسمالية المنظمة تتمتع بفرص جدية لمواصلة الحياة • وقد تنبثق طبقات اجتماعية جديدة تماما فى مختلف أنماط البناء المخطط الاجمالى ، بل ان منها ما قد بدأ فعلا فى التكوين • ومن المحتمل أن تجد وسائل للتخطيط ، من شأنها الوصول الى شىء من التوازن بين الطبقات الاجتماعية الجديدة عن طريق نوع من التعويض الذى سوف يمحو ـ بصفة جزئية على الأقل ـ التفاوت الاقتصادى بين الطبقات الاجتماعية • عندئذ فقط ، يحل تدرج المجموعات الوظيفية محل تدرج الطبقات ؟ وتستطيع المجموعات فوق الوظيفية كالطبقات أن تميل الى التعادل فيما بينها • فاذا أمكن تحقيق مثل هذا الحل ، فان المنازعات والمنافسات بين المجموعات فى داخل الطبقات وخارجها سوف تصبح أهم من الصراع الطبقى • يبقى علينا مع ذلك أن نعرف ما اذا كان التوازن والتعادل بين الطبقات فى بنيان مخطط اجمالى لاحق للنظام الرأسمالى ، جديرين بالدوام أمدا طويلا ، أو أنه سوف يحل محلهما ـ ان عاجلا أو آجلا ـ صراع حاد بين الطبقات التى يستحيل التكهن بعددها أو طبيعتها •

ومن المستحيل أن يتكهن علم الاجتماع بشىء ، وانما فى استطاعته فقط المعاونة فى تجنب كل نزعة دوجماطيقية ، وذلك بالاجتهاد فى تطويع مفاهيمه وتوضيحها لجعلها قادرة على متابعة تعرجات الحياة الواقعية • وهذا ما حاولت عمله فى دروسى هذه فيما يتعلق بالمفهوم السوسيولوجى الكبير الأهمية الذى يكثر فيه النقاش والجدل ، مفهوم الطبقات الاجتماعية •

معجم المصطلحات

ملحوظة : الألفاظ العربية المقابلة للمصطلحات أو المفردات الفرنسيه تعبر فقط عن المعانى التى قصدها المؤلف فى كتابه هذا للمصطلحات أو المفردات المذكورة ٠

A

تجريد	abstraction
حشد ، تجمع ، تكتل	agrégat
فوضوى	anarchiste
المذهب المعارض لتدخل الدولة	antiétatisme
تجمع	assemblage
جمعية	association

B

البدنياك ـ طبقة فقراء الفلاحين (فى روسيا)	bédniaks
السلوكية (مذهب)	behaviorisme
طبقة البورجوازية	bourgeoisie
البورجوازية الصغيرة	petite bourgeoisie
البيروقراطية ـ نظام الحكم القائم على تسلط الموظفين والهيئات التى تتولى الوظيفة التنفيذية فى الدولة، وهى فى المفهوم البسيط اقطاع المكاتب ٠	bureaucratie

classe bureaucratique	الطبقة البيروقراطية
classe techno-bureaucratique	طبقة البيروقراطيين انفنيين
Boutique (La)	الحانوت ـ طبقة التجار البورجوازيين (فى فرنسا)

C

calvinisme	الكلفنية ، مذهب دينى مسيحى نسبة الى جون كلفن
théologie calviniste	اللاهوت الكلفينى
capitalisme	الرأسمالية
capitalisme concurrentielle	الرأسمالية التنافسية
capitaliste	رأسمالى ، صاحب رأس المال
cartel	كارتل ـ اتفاق المنتجين بقصدالاحتكار
caste	طائفة ، فئة
catégorie	قسم
clan	عشيرة
classe sociale	طبقة اجتماعية
classe paysanne	طبقة الفلاحين
classes sociométriques	الطبقات الاجتماعية القياسية
cohésion	تماسك
collectivisme	الجماعية (مذهب اشتراكى)
collectivité	الجماعة
combinaison	تآلف وامتزاج الافكار
communauté	المجتمع المحلى
commune	الكومون (باريس ١٨٧١)
communisme	الشيوعية
communion	طائفة ذات طابع عائلى أودينى
condition	ظرف ـ حالة ـ وضع
confrérie religieuse	جمعية أخوية دينية
conscience de classe	وعى طبقى
consciences collectives	مدارك جماعية

conservateur	محافظ
consommation	استهلاك
consommateur	مستهلك
contrainte	ضغط ، اكراه
» conditionnelle	اكراه مشروط
» inconditionnelle	اكراه غير مشروط
corporation	نقابة حرفية
corporatisme	نقابية
» médiéval	نقابية القرن الوسيط
couche	شريحة (قطاع) طبقية
critère	معيار
cynique	لئيم ، لاذع اللسان

D

demos	عامة الشعب
dérivation	استنباط ، اشتقاق ، استنتاج
déterminisme	الحتمية (مذهب)
dialectique	الجدل
dogmatisme	الجزمية (دوجما طيقية)

E

eclectisme	مذهب التوفيق
égalitaire	تكافؤى
élite	الصفوة
empirique	تجريبى
empirisme	المذهب التجريبى
endogamie	الزواج الداخلى
eschatologie	علم الأخرويات
état	مرتبة
étatisme	مذهب سيطرة الدولة
Etat fédéral	دولة تعاهدية (فيدرالية)
Etats confédéraux	دول متعاهدة (اتحاد غير وثيق العرى)

eupatrides	النبالة العريقة فى اليونان القديمه
exogamie	الزواج الخارجى

F

fétiche	تميمة
fétichisme	التميمية ـ الاعتقاد الخرافى فى بعض الاشياء
fondation	مؤسسة ، منشأة خيرية ، مبرة
forces productives	قوى الانتاج
formalisme	صورية (نزعة)
feudisme	الفرويدية (نسبة الى فرويد)

G

gérontocratie	حكومة الشيوخ
groupe	جماعة
groupement	مجموعة
groupements à distance	مجموعات متباعدة
» imposés	مجموعات مفروضة
» intimes	مجموعات أليفة
» d'affinité	المجموعات متقاربة اقتصايا
» économique	
» uni-fonctionnel	مجموعيات احادية الوظيفة
» multi- »	مجموعات متعددة الوظائف
» supra- »	مجموعات فوق الوظيفية
» guildes »	الطوائف الحرفية فى العصر الوسيط

H

hétérogène	لامتجانس
hobereau	الأشراف الريفيون فى بروسيا
homogène	متجانس

I

idéalisme	المثالية (مذهب)

idéologie	الايديولوجية
immanence	بارقة
immanent	على وشك الانبثاق والظهور
incompatibilité	تعارض ، تنافر
individualisme	الفردية (نزعة)
inégalitaire	لا تكافؤى
innovateur	مجدد
intellectuel	مفكر
intentionnalité	نية
intuitionisme	الحدسية (مذهب)

J

jugements de valeur	أحكام قيمية
jurandes	جمعيات المشرفين على الطوائف الحرفية فى العصر الوسيط

K

Kolkhoses	الكـولخوز : المزارع الجماعيـة فى روسيا
Koulaks	الكولاك : الفلاحون المستقلون الأثرياء فى روسيا

L

loges maçonniques	المحافل الماسونية
lutte de classe	صراع طبقى

M

macrocosme	العالم الفسيح
maîtrises	رؤساء الحرف (المعلمين)
le Manifeste Communiste	البيان انشيوعى
marxisme	الماركسية (مذهب)
» vulgaire	» السوقية
masses	الجماهير
matérialisme	المادية (مذهب)

matérialisme historique	المادية التاريخية
» dialectique	» الجدلية
mentalité	عقلية
métaphysique	ميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)
microcosme	العالم الصغير (الانسان)
micro-sociologie	السوسيولوجيا (علم الاجتماع) الدقيقة •
minorité	أقلية
» agissante	أقلية نشيطة ، فعالة
» ethnique	أقلية عنصرية
monopole	احتكار
» de fait	» فعلى
mysticisme	صوفية
mythe	أسطورة

N

noblesse	النبالة ـ طبقة النبلاء
» d'épée	نبالة « السيف »
» de robe	« « الرداء » أى القضاء
nominalisme	الاسمية (مذهب)
néo-fichtéanisme	الفشتية الجديدة
néo-hégélianisme	الهيجلية الجديدة
néo-idéalisme	المثالية الجديدة (نزعة)
N.E.P.	السياسة الاقتصادية السوفيتية الجديدة
normalité	الحالة السوية

O

objectivisme	الموضوعية
opportunisme	الانتهازية
ordre	نظام

P

patriciat	الأشراف

paysannerie	طبقة الفلاحين
persistance des agrégats	ثبات الحشود
phénoménologie	الفينومنولوجيا (علم الظواهر)
phratries	العشائر (فى اليونان القديمة)
platonisme	الأفلاطونية (فلسفة)
plèbe	الدهماء
plus-value	فائض القيمة
point d'imputation	نقطة اسناد
position	وضع ، مركز
postulat	مصادرة
pragmatisme	البرجماتية
probabilisme	الرجحانية (مذهب)
progressiste	تقدمى
prolétaire	فقير ، معدم ، كادح
prolétariat	البروليتاريا فى أصلها الاغريقى القديم الطبقة غزيرة النسـل والمعدمة اقتصاديا ، طبقة العمال الكادحين

R

rang	درجة ، منزلة
rentier	صاحب ريع
représentations sociales	تصورات اجتماعية
résidu	راسب
révolutionnaire	ثورى
roture	العامة (عامة الناس)

S

seredniaks	سردنياك ـ طبقة الفلاحين المتوسطة فى روسيا
situation de classe	وضع طبقى
société	مجتمع
société globale	المجتمع الاجمالى
société patriarcale	المجتمع الأبوى القديم

solidarité de classe	التضامن الطبقى
sovkhoses	الســوفخوز : المزارع الحكوميــة فى روسيا
spéculateur	مضارب
spiritualisme	الروحية
strate	شريحة (قطاع) طبقية
stratification sociale	تدرج اجتماعى
subjectivisme	الذاتية (منحى فلسفى)
symbolisme	الرمزية

T

technocratie	حكم الخبراء الفنيين
tiers-état	المرتبة الثالثة (عامة الشعب ـ فى فرنسا فى العهد القديم)
totalité	الكل ، الكلية ، الكافة
transcendance	التعالى ، التسامى
trusts	شركات موحدة
transsubstantiation	استحالة المادة ، أى القربان الى لحم ودم المسيح

U

utopie	الطوباوية ، نظام خيالى ، تخيل مثالى لمجتمع السعادة البشرية

الفهرس

الموضـــوع الصفحة

الجزء الثالث

عرض منهاجي

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٣٠٦٧



الثمن ٥٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب